كتابي 44

إميلى برونتى

مرتفعات ويذرنج

الجزء الأول

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! .. وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن «آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به «شارلوت» فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) .. ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٣٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرا «آن» . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط . فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين أير) باسم «لوودد» .

حلمى مراد

مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

الجزء الأول

الشقيقات الخالدات !

عزيزى القارىء ..

منذ قدمت لك الترجمة الكاملة لقصة « شارلوت برونتى » الخالدة (جين إير) وأنا أتوق إلى أن أقدم لك هذه القصة « الشقيقة » بدورها ، (مرتفعات ويذرنج) التى تفوق (جين اير) روعة وخلودا .. بل وتفوقها مكانة فى موازين التراث الأدبى العالمى الذى تعتز به الانسانية جمعاء ..

وحين أضع هاتين القصتين « الكلاسيكيتين » الخالدتين فى مرتبة « الشقيقتين » فإنما أعنى بذلك معناه المزدوج : فهما شقيقتان فى « جوهما » القصصى ، ولونهما الأدبى – كما سترى – من ناحية .. وهما من الناحية الأخرى نتاج عبقرية مؤلفتين شقيقتين هما « شارلوت برونتى » – مؤلفة (جين اير) – و « اميلى برونتى » ، مؤلفة (مرتفعات ويذرنج) .

أسرة العبقرية .. والفواجع !

وهذا يسوقنى إلى كلمة قصيرة عن أسرة « برونتى » التى أنجبت الشقيقات الثلاث ، بل العبقريات الثلاث ، والمؤلفات الثلاث : « شارلوت » ، و « اميلى » ، ثم صغراهن « آن » برونتى !

ومن عجب أن الشقيقات الثلاث تشابهن فى .. كل شىء تقريبا !.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت !

.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وخلودهن ، فاقترن اسم كل منهن بقصة من روائع الأدب الإنسانى – وكان نصيب صغراهن « آن » من هذا الإنتاج قصة (آجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه القصة من الشهرة أقل من نصيب (جين اير) و (مرتفعات ويذرنج) ..

.. وتشابهن فى هزال أبدانهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى أصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب – وهو مرض السل – فماتت به شارلوت فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ – ١٨٥٥) .. وماتت به « اميلى » فى سن الثلاثين (١٨١٨ – ١٨٤٨) .. ثم ماتت به « آن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ – ١٨٤٩) !

طفولة حزينة

والواقع أن فواجع أسرة « برونتى » لا تقف عند هذا الحد ، (ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به قصصهن جميعا !) .. فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قس « أبروشية » بجهة (هاروث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت ، برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم أميلى ، وأخيرا « آن » . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى « ماريا » فى سن السابعة ، والصغرى « آن » فى عامها الأول !

وهكذا صارت « ماريا » ، وهى بعد فى سن السابعة ، بمثابة « الأم » للصغار الخمسة الآخرين !.. وبعد أربع سنوات ، ألحق الأب الحزين ابنتيه الكبيرتين « ماريا » و « اليزابيث » بمدرسة داخلية — هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى قصة جين اير ، باسم «لوورد» .. لذلك لم يكن غريبا أن ماتت الاختان الكبريان فى تلك المدرسة ، تاركتين لأبيهما الثاكل شقيقاتهما الثلاث ، وشقيقهما الوحيد « برانويل » .

فضل البيئة ، والتربية ، على موهبتهن الأدبية

وجلب القس شقيقته لترعى أطفاله الأربعة . وكان بيته فى « الأبروشية » فسيحا متعدد الحجرات ، تحيط به فى الخارج الأحراش والغابات ذات الجمال الأخاذ ، فى كافة فصول العام . وفى داخل الدار كانت الخادمة « تابى » تروى للصغار قصص العائلات الغريبة الأطوار التى تقطن القصور والضياع المتباعدة فى تلك المنطقة من مناطق مقاطعة (يوركشاير) !.. كما كان الأب يعنى بتعليم صغاره ويتحدث إليهم كما لو كانوا كبارا .. وعودهم أن يطالعوا الكتب والصحف ، ويناقشوه فى محتوياتها .. وهكذا شبوا وقد أنمى الاطلاع فيهم ملكة الخيال والتصور ..

ومنذ صباهن اتجهت ميول الشقيقات الثلاث نحو الأدب .. بينما مال شقيقهن الوحيد « برانويل » إلى الرسم ، بالإضافة إلى مواهبه الأخرى فى الكتابة ، والدراسة ، والحديث

البارع !.. على أنه حين جاء أوان ترجمة هذه المواهب فى الحياة العملية ، منى بفشل ذريع فى جميع الميادين ، فأدمن الخمر .. ثم برزت موهبته الكبرى فى العثور على مبررات لهذا الفشل !.. وهكذا صار الفتى الذى كان موضع فخر شقيقاته ، وآمالهن ، مجلبة للخجل والعار !.. وإذ يئسن من أن يصبح مصدر دخل للأسرة ، عمدن إلى البحث عن أعمال كمربيات لدى الأسر الثرية ، وهى المهنة الوحيدة الشريفة للعوانس الفقيرات فى ذلك العصر .. ثم رحلت شارلوت واميلى إلى (بروكسل) حيث اشتغلتا زمنا بالتدريس ، لكن صحة اميلى بدأت فى التدهور ، واشتد بها الحنين إلى أحراش (يوركشاير) ، فعادتا إلى وطنهما .. وهناك بدأتا تمارسان مع شقيقتهما الثالثة كتابة القصة ونظم الشعر ، فنشرن ديوانهن الأول بتوقيعات مستعارة لثلاثة أشقاء وهميين — من الرجال — بأسماء : « كارر ، وايليس ، واكتون بيل » !

وبرغم فشل الديوان من حيث الرواج ولفت أنظار النقاد ، فإن مجرد رؤية الشقيقات الثلاث لإنتاجهن مطبوعا على الورق ، كان كافيا لإشعال حماسهن من أجل تحقيق أحلامهن الأدبية الواسعة ، فلم تعد تستطيع قوة أن توقف انطلاقتهن !.. وهكذا عكفت « شارلوت » على كتابة (جين اير) ، و « آن » على كتابة (آجنس جراى) ، و « اميلى » على كتابة (مرتفعات ويذرنج) .. وكانت الأخيرة هى أول قصة من الثلاث ترى النور .. نور المطبعة !

وكانت « اميلى » قد « حملت » هذه القصة زمنا فى عقلها وقلبها ، وهى راقدة فوق احواض نبات (الخلنج) ، تحت اشعة شمس الربيع ، او وهى ترقب دوامات الجليد فى ايام ديسمبر القارسة . وبرغم ان القصة نشرت تحت ذلك الاسم « الرجالى » المستعار ، فقد رجح القراء ان المؤلفة امراة ، لكنهم تخيلوها امراة مغامرة عركت الحياة الصاخبة ، وإلا لما استطاعت تصوير العواطف « بهذا العنف ، والجموح ، والقوة الدافقة ! » .. وما درى الواهمون أن المؤلفة لم تعش إلا حياة الراهبات الناسكات !

وبدات اميلى تسعل .. لكنها ابت الاستكانة لعلاج ، بل رفضت زيارة الطبيب .. فسارت نحو النهاية بخطى حثيثة . وحتى فى يوم وفاتها ذاته ، ارتدت ثيابها ، وهبطت من غرفتها ، وجلست لتكتب كالعادة !.. فماتت « واقفة » ، او « على خشبة المسرح » كما يشتهى الممثلون !

ولم يستطع احد ان يتعرف فى ابطال (مرتفعات ويذرنج) على اشخاص عرفتهم « اميلى » فى حياتها .. لكنهم اشخاص يستطيع ان يتعرف عليهم كل من يعرف الانسانية .. فى كل زمان ومكان !.. فمن بوتقة احراش (يوركشاير) الضارية الغامضة ، وبقايا قصص المربية « تابى » نصف المنسية ، وببصيرة المتصوفة التى تنفذ إلى حقائق الحياة والموت .. كتبت اميلى برونتى عن .. حب أقوى من الموت !

هل هى قصة حب ؟

على انها ليست قصة حب ، وإن كانت هى قصة من

الحب !.. فلقد عرفت اميلى بوحى من قلبها المستوحش ان الحب ليس على الدوام رقيقا ، سعيدا .. وإنما هو قد يكون قاسيا ، ضاريا ، لا ضمير له !.. وقد يمزق سكينة النفس كما تمزق العاصفة سكون الغابة !.. لكنها عرفت ايضا انه قد يتسامى فيغدو اعظم ، واجل قدرا من المحبين انفسهم ! .. وتتوالى الاجيال ، ويشب كل جيل فيجد (مرتفعات ويذرنج) تنتظر نفرا منه ليجد فيه مصداقا لحبه ، العنيف ، العفيف ، المتسامى .. وسيظل هناك دائما عشاق يرون فيها مرآة لعواطفهم الشخصية ، التى تهيم فى وديان بعيدة عن تلك التى تهيم فيها عواطف عامة الناس !

وقد يروق لك إذا زرت انجلترا ان ترى البيت الذى يقولون انه مسرح احداث هذه القصة .. وإن لم تجد شخصا يؤمن حقا بان شبح « كاترين » قد تسلق يوما نافذته !

وقد يروق لك ان تزور البيت الذى عاشت فيه اسرة « برونتى » بضاحية (هاورث) ، وكتبت فيه « اميلى » (مرتفعات ويذرنج) .. الخ .. ومن اجل هذا حرصت على ان ازود هذه الطبعة بكل ما استطعت الحصول عليه من صور نادرة لتلك الاماكن التاريخية ..

والآن ، دعنى اخلى بينك وبين البدء فى قراءة هذه التحفة الأدبية الإنسانية الرائعة ، التى ستوافيك ترجمتها الكاملة الأمينة هذه فى ثلاثة اجزاء من هذا الحجم ..

والله ولى التوفيق ؟

حلمى مراد

الفصل الأول

١٨٠١

عدت للتو من زيارة مالك الدار التى استأجرتها ، وهو الجار الوحيد الذى يكدر صفو العزلة التى أنشدها .. ولعمرى إن هذه قطعة من الريف رائعة الجمال حقا ، وما أحسبنى كنت مهتديا ـ فى انجلترا كلها ـ إلى مكان ينأى عن ضجة المجتمع وضوضائه مثلما ينأى هذا المكان .. انه الفردوس المنشود لعدو البشر !.. وأنا ومستر « هيثكليف » خير اثنين اتفقت مشاربهما بحيث نقتسم هذه الوحشة فيما بيننا .. يا له من شخص عظيم !.. إننى لا أظنه قد أدرك كيف هفا إليه قلبى ومال ، عندما رأيت عينيه السوداوين تضيقان فى حذر وريبة ، وتنسحبان تحت حاجبيه ـ بينما كنت أدنو منه على ظهر جوادى ـ ثم عندما توغلت أصابعه فى عزم وإصرار داخل أغوار صدريته ـ وأنا أعلن اسمى له ـ كأنما تحتمى بها حتى لا تمتد لمصافحتى ..

قلت : « مستر هيثكليف ! »

فكان الجواب إيماءة يسيرة .. واستطردت أقول :

ـ انى مستر لوكوود ، المستأجر الجديد لبيتك ياسيدى، وقد بادرت إلى الحضور للتشرف بزيارتك فى أول فرصة أتيحت لى بعد مقدمى ، لأعبر لك عن رجائى فى ألا أكون قد أثقلت عليك بإلحاحى فى طلب استئجار (ثرشكروس جرانج) ؛ إذ علمت بالأمس انك كنت تفكر فى ..

فقاطعنى وهو يرتد إلى الوراء مجفلا : « ان (ثرشكروس جرانج) مملوكة لى يا سيدى ، وما كنت لأسمح لمخلوق بان يثقل على مادام فى استطاعتى ان أحول دون ذلك . ادخل .. » .

وقد انطلقت هذه الكلمة الأخيرة من بين أسنانه المطبقة وكأنما كانت تعبر عن رغبته فى ان « اذهب إلى الشيطان » ! بل ان البوابة التى كان يستند اليها لم تبد أية حركة ودية تستجيب بها لهذه الدعوة .. وأحسب ان هذا الموقف منه إنما حفزنى وشد من عزمى على تلبية دعوته ، إذ شعرت بالميل نحو رجل يبدو أشد منى غلوا فى التحفظ والنفور من الناس ..

وإذ رأى صدر جوادى يدفع الحاجز فى رفق ، مد يده فأزاح السلسلة التى كانت البوابة مغلقة بها ، ثم استدار دفعة واحدة ، ومضى يتقدمنى فى الممر المرتفع .. حتى اذا ما بلغنا الفناء صاح مناديا : « جوزيف .. خذ جواد مستر لوكود ، واحضر بعض النبيذ »

وقد أوحى لى هذا الأمر المزدوج بفكرة خامرتنى وحدثت بها نفسى قائلا : « لاريب ان هذا كل ما فى المؤسسة من خدم وحشم ! .. فلا عجب اذا ترعرع العشب بين البلاط وكانت الماشية هى الأداة الوحيدة لتشذيب الأسوار النامية ! »

اما جوزيف فكان رجلا مسنا ، لا بل شيخا عجوزا .. أو لعله كان مفرطا فى الشيخوخة برغم ما يبدو عليه من صحة قوية وعضلات مفتولة .. فتمتم فى همهمة مكتومة تنم عن السخط ، وهو يأخذ بعنان جوادى : « ليكن الله فى عوننا » ..

بينما أخذ فى الوقت نفسه يحملق فى وجهى فى غلظة وتبرم ، بحيث حدست ـ إمعانا منى فى السماحة ـ انه لابد فى حاجة إلى « العون الإلهى » ليساعده على هضم غذائه ، وان ابتهالاته التقية لا شأن لها بمقدمى المفاجىء غير المنتظر !

و « مرتفعات ويذرنج » هو اسم الدار التى يسكنها مستر هيثكليف . وكلمة « ويذرنج » اصطلاح اقليمى ذو دلالة خاصة فى وصف جلبة الرياح التى يتعرض لها موقع الدار فى الأجواء العاصفة . وهم ولا ريب يستمتعون بالهواء النقى المنعش طوال ايام العام فى هذا المكان المرتفع ، كما ان فى وسع المرء ان يحدس قوة الرياح الشمالية التى تهب على حافة المرتفعات حين يتأمل ذلك الانحناء الشديد لسيقان اشجار (الشربين) الضامرة القليلة المتناثرة خلف الدار ، وتلك السلسلة من الأغصان المدببة الخالية من الاوراق ، وقد مدت اطرافها جميعا فى اتجاه واحد كأنها تستجدى الشمس حرارتها ودفأها .. ومن حسن الحظ أن المهندس الذى شيد الدار كان من بعد النظر بحيث اقامها متينة قوية ، وجعل نوافذها ضيقة غائرة فى الجدران ، ووقى زوايا البناء بأحجار كبيرة بارزة .

وقبل أن أجتاز عتبة الدار تمهلت قليلا لأتأمل فى إعجاب عددا من النقوش الغريبة الشكل المتناثرة فوق الواجهة ، وعلى الأخص فوق الباب الرئيسى ، حيث تبينت ـ وسط غمرة من الرسوم تمثل سباعا ذات اجنحة ومناقير ، وغلمانا عراة بغير حياء ـ تاريخا محفورا هو « ١٥٠٠ » ، واسما هو

« هيرتون ايرنشو » .. وكنت اود ان ابدى بعض التعليقات او اطلب نبذة موجزة من تاريخ المكان من صاحبه المتجهم الوجه ، لولا ان هيئته عند الباب كانت تبدو كأنما تريد منى التعجيل بالدخول او المبادرة إلى الرحيل .. ولم يكن بى ميل او رغبة فى الاستزادة من ضيق صدره وحدة خلقه قبل أن افحص خفايا مسكنه من الداخل .

وإن هى إلا خطوة خطوتها حتى وجدت نفسى فى حجرة الجلوس العائلية التى تلى الباب مباشرة ، دون أن يتوسطهما دهليز او ردهة .. وهم يطلقون عليها فى هذه الأنحاء اسم « البيت » تجوزا ، إعلاء لقدرها عندهم ، وتشمل عادة المطبخ وحجرة الجلوس معا . ولكنى اعتقد أن المطبخ فى (مرتفعات ويذرنج) يقع فى مكان آخر من الدار ـ او هذا على الأقل ما تبينته ـ اذ بلغت مسامعى من مكان سحيق غمغمة الكلام وقعقعة الآنية ، وفى الوقت نفسه لم اجد حول الموقد الضخم اثرا للشواء والسليق او خبز الفطائر ، ولم ألمح على الجدران بريق القدور النحاسية او الصافى اللامعة الحديثة الطلاء .. ومع ذلك كان احد اركان القاعة يعكس الضوء والحرارة من صحاف واسعة مصنوعة من الصفيح السميك ، تناثرت بينها اباريق وقنانى من الفضة ، وقد رصت صفوفا طبقة بعد طبقة فوق (بوفيه) عريض يرتفع حتى يبلغ السقف .. وكان هذا الأخير غفلا لم تمسه يد بطلاء او دهان ، ودقائقه الداخلية ظاهرة للعيون المتفحصة ، إلا رقعة منه كان يخفيها اطار من الخشب مثقل بما يتدلى منه من فطائر دقيق

الشوفان المجففة وافخاذ البقر والضان والخنازير المقددة . وكانت على الجدار فوق المدفأة بنادق عتيقة مختلفة الاشكال قبيحة المنظر ، ومسدسان هائلان داخل جرابين من الجلد ، كما رصت على رف المدفاة ثلاث علب ذات رسوم زاهية صاخبة وضعت على سبيل الزينة .. وكانت ارضية القاعة من حجر ابيض مصقول ، والمقاعد من طراز عتيق ذات طلاء اخضر وظهور مرتفعة مستقيمة ، الا مقعدا او اثنين من المقاعد السوداء الثقيلة كانا فى ركن معتم من القاعة .. وكانت تقبع فى فجوة تحت (البوفيه) كلبة رائعة الخلقة من كلاب الصيد . ذات لون أحمر قاتم ، حديثة عهد بولادة فوج من صغارها ، وقد احاط بها سرب من الجراء الصغيرة التى لا تكف من الصراخ ، على حين كان عدد آخر من الكلاب ، رابضا فى بعض منافذ الحجرة الاخرى .

ولم يكن المسكن والاثاث يلوحان على شيء من الغرابة او الشذوذ لو انهما كانا لريفى بسيط من اهل الشمال : من اولئك الرجال ذوى الأسارير التى تنضح بقوة الشكيمة . والسيقان القوية التى تنبض عضلاتها فى السراويل المحكمة الضيقة عند الركبتين ، و « الطزالق » الطويلة اللامعة .. ولو انك تجولت فى دائرة محيطها خمسة اميال او ستة بين هذه التلال ، فى الوقت الملائم بعد العشاء ، لوجدت الكثيرين من امثال هذا الانسان ، وقد جلس كل منهم فى مقعده المريح ذى المساندين ، وقدح الجعة يفور امامه بالزبد والحبب فوق مائدة مستديرة .. اما مستر هيثكليف فان التباين العجيب كان

واضحا بينه وبين مسكنه وطراز معيشته : فهو فى هيئته داكن البشرة اشبه بالغجر ، بينما هو فى ثيابه ومسلكه سيد مهذب لا يختلف عن سراة الريف ونبلائه . وقد يكون قليل الاحتفال بهندامه إلى حد ما ، ولكنه ، مع ذلك الاهمال فى العناية بنفسه ، لا يبدو شاذا او منفرا للابصار ، إذ كان ممشوق القوام رشيقا .. وهو إلى ذلك يبدو مكتئبا ضيق الصدر دواما ، وربما خاله بعض الناس على قدر من الكبر والخيلاء السوقية التى تنم عن ضعة الأصل ، ولكن شعورا من الميل اليه انبعث من اعماقى يحدثنى بأن الامر لم يكن كذلك البتة ، وادركت بغريزتى ان تحفظه انما ينبع من نفوره من اظهار عواطفه فى ضجيج وعجيج ، ومن تبادل العواطف والمجاملات فى مظاهرات علنية ! .. فهو يسدل على حبه وبغضائه ستارا من الكتمان ، كما يرى ان إبداء الحب او البغضاء نحوه ضرب من القحة .. ولكن لا احسبنى اعدو سريعا نحو النتائج قبل الاوان ، واراني اغدق عليه من صفاتى الشخصية فى سخاء ، فقد تكون لدى مستر هيثكليف اسباب اخرى تختلف كل الاختلاف من تلك التى لدى ، عندما يقبض يده ويخفيها فى طيات ثيابه حين يرى من يسعى إلى التعرف به .. ومالى لا اعترف بان تكوينى يكاد يكون غريبا غير مالوف ؟ .. لقد اعتادت امى العزيزة ان تقول لى إننى لن يكون لى بيت مريح تسكن إليه نفسى . وقد ثبت لى فى الصيف الماضى اننى لا استحق البتة ان يكون لى بيت واسرة . فبينما كنت استمتع بشهر من الطقس الجميل على شاطىء البحر ، الفت إلى المصادقة برفقة مخلوقة من اوفر خلق الله فتنة

وسحرا ، وكانت تلوح فى ناظرى الهة معبودة طالما انها لم تكن تعرفنى انتباها .. على انى لم اصارحها بحبى بالكلمات قط ، ومع ذلك فان كانت للنظرات لغــة مفهومه فلا بد ان اشد الناس غباء ادركوا اننى غارق فى حبها حتى اذنى ! .. وقد شعرت الفتاة بعاطفتى اخيرا ، وراحت ترد لى النظرة بالنظرة وتنطق عيناها بأحلى واشهى ما يتخيله إنسان .. فما الذى فعلته انا ؟ .. اننى اعترف بذلك والخجل يملؤنى .. لقد انكمشت فى نفسى فى برود عجيب . اشبه بانكماش القوقعة ! .. كنت لدى كل نظرة منها ازداد انزواء وبرودا وانكماشا . حتى اخذت البريئة المسكينة تشك فى صدق حدسها . وتكذب ما انبأتها فراستها وحواسها ، وما لبثت ان غمرها الخجل والارتباك لخطئها المزعوم ، فاغرت امها بالرحيل عن المكان ! .. وهكذا وصمنى هذا التحول الغريب فى مسلكى بصفة الرجل المجرد عن المشاعر الذى يتعمد القسوة ليحطم قلوب العذارى ، وانا وحدى الذى اعلم كم كنت مظلوما فى هذه السمعة ..

***

واتخذت مجلسى عند طرف المدفأة قبالة المقعد الذى كان مضيفى يتقدم نحوه ، واردت ان اقطع فترة الصمت الذى ساد بيننا لحظة ، فحاولت ان اربت على الكلبة الام التى كانت قد فارقت صغارها وانت تتشمم اقدامى من الخلف فى ضراوة ، وقد قوست شفتها إلى اعلى وكشفت عن انياب بيضاء يسيل منها اللعاب اشتهاء لشىء تنشبها فيه ! .. ولكن مداعبتى لم

فحاولت ان اربت على الكلبة الام التى كانت قد فارقت صغارها وانت تتشمم اقدامى من الخلف فى ضراوة ..

تلق منها قبولا ، وإنما أثارت زمجرة طويلة مخيفة ما أن انبعثت من حلقها حتى تلتها زمجرة أخرى من مستر هيثكليف الذى ركلها ركلة شديدة وهو يقول لى :

ـ خير لك أن تدع الكلبة وشأنها ، فإنها لم تعتد أن تفسدها بالتدليل ، كما أننا لا نقتنيها لتكون مسلاة لنا ..

ثم مضى فى خطوات سريعة نحو باب جانبى وهو يصيح من جديد : جوزيف ! .. فغمغم جوزيف من أعماق القبو بألفاظ غير مفهومة ، ولكنه لم يبد ميلا الى الصعود ، فاندفع سيده يهبط الى القبو خلفه ، وتركنى وجها لوجه مع الكلبة الخبيثة ، وقد انضم اليها اثنان من كلاب الرعاة الخشنة الشعر البشعة المنظر ، شاركاها فى فرض رقابة دقيقة على حركاتى .. وإذ كنت لا أتوق إلى الاتصال من قرب أو من بعد بأنياب هذه الطغمة ومخالبها ، فقد جلست ساكنا بلا حراك . غير أننى وقد مللت السكوت وخيل إلى أن الكلاب لا تفهم الاهانات الضمنية ، عكفت ـ لسوء الحظ ـ على تحريك وجهى حركات ساخرة من « الثلاثى الأليم » .. وكأنما أثار « السيدة » شىء ما فى محياى ، فإذا بها تنقض على ركبتى فجأة وقد تملكها غضب شديد .. ودفعتها إلى الخلف دفعة قوية ، وأسرعت أضع المائدة حائلا بينى وبينها ، غير أن هذا المسلك أثار « الخلية » بأسرها ضدى ، فإذا بستة من الأعداء ذوات الأربع ، من جميع الأحجام والأعمار ، تتدفق إلى ميدان المعركة من أوكار خفية ، وإذا بى أحس

بأعقابى وأطراف سترتى هدفا لهجوم المعتدين .. فتناولت محرك النار من المدفأة ، ورحت أدفع به عنى كبار المحاربين بقدر ما وسعنى من جهد وحيلة ، غير أنى اضطررت فى الوقت نفسه إلى الصياح عاليا فى طلب النجدة من بعض سكان المنزل ليعيد الأمن والسلام إلى الحجرة !

وصعد مستر هيثكليف وخادمه سلم القبو فى تثاقل وقد لاح عليهما الغضب والحنق ـ ولست أظنهما قد أسرعا فى خطوهما ثانية واحدة عما ألفاه ـ برغم أن منطقة المدفأة كانت مسرحا لعاصفة عاتية من الزمجرة والنباح وصيحات الغضب ! .. ولكن أحد سكان المنزل كان ـ لحسن حظى ـ أسرع منهما إلى المبادرة بنجدتى ، فقد اندفعت نحونا سيدة قوية البنية ذات ساعدين عاريين وثوب مشمر عند الوسط ، ووجنات متوردة من لفحات النار ، ومضت تفرق بينى وبين أعدائى وهى تستخدم مقلاة فى يدها تلوح بها ، ولسانا بليغا كان له أثره الحاسم فى وقف العدوان ، إذ هدأت الزوبعة فجأة كأنما مستها عصا ساحر بارع ! .. وكانت السيدة ما تزال تلهث كأمواج البحر حين تهب عليها عاصفة عاتية ، عندما دخل سيدها إلى المسرح ، سألنى وهو يحدجنى بنظرة سخط لم يكن فى وسعى أن أحتملها بعد هذه المعاملة الجافية :

ـ ماذا حدث بحق الشيطان ؟

فأجبته صاخبا : « بحق الشيطان فعلا يا مستر هيثكليف !

. . فان قطيعا من الخنازير تملكته الشياطين لا يؤوى فى جوفه من الأرواح الشريرة ما تؤويه حيواناتك هذه يا سيدى ! . . إنك كمن يترك شخصا غريبا بين فصيلة من النمور . . ! ».

فقال وهو يضع الزجاجة امامى ، ويعيد المائدة إلى مكانها :

ـ انها لا تتحرش بالاشخاص الذين لا يمسون شيئا . . والكلاب اذا كانت يقظة ساهرة انما تؤدى واجبها المفروض . . هل لك فى كاس من النبيذ ؟

ـ كلا وشكرا . .

ـ انها لم تعضك ، اليس كذلك ؟

ـ لو انها فعلت لـكنت قد تركت اثرا منى لا يزول على الفاعل الخبيث !

فلانت اسارير مستر هيثكليف فيما يشبه ابتسامة عابرة وقال :

ـ هيا . . هيا . . لقد استبد بك الانفعال يا مستر لوكوود ، فخذ قليلا من النبيذ . . والحق ان الضيوف فى هذه الدار نادرون ، وهم من القلة بحيث لا نعرف ، انا والكلاب التى قنيتها . كيف نستقبلهم . . فى صحتك ياسيدى !

فانحنيت امامه ارد له التحية ، ثم شربت نخبه ، وقد بدات اتبين مبلغ السخف فى ان اجلس متجهما عبوسا بسبب

سوء مسلك حفنة من الكلاب الأوغاد . وفضلا عن ذلك كرهت ان اتيح لمضيفى المزيد من التسلية على حسابى بعد ان اتجهت سخريته إلى هذه الوجهة . . ولعله راى بفطنته ان من الحمق ان يغضب مستاجرا طيبا، فإنه اطلق نفسه على سجيتها وانطلق يتحدث إلى فى اسلوبه المقتضب ، عن الموضوع الذى خاله مشوقا لى ، وهو الحديث عن مزايا الدار التى استاجرتها لاعتكف فيها واستجم . وعما قد يكون فيها من مساوىء . . ولقد وجدته جم الذكاء بارع الحديث ، يجيد معالجة المواضيع التى طرقناها ، حتى بلغت الجراة ـ قبيل انصرافى ـ حدا جعلنى اندفع فاعده بزيارة اخرى فى اليوم التالى . . وما من ريب فى انه لم يكن راغبا فى المزيد من تطفلى عليه ، ولـكنى سوف اذهب لزيارته برغم ذلك ، فمن المذهل حقا ان احس بنفسى رجلا اجتماعيا يحب الاختلاط ومعاشرة الناس ، بالمقارنة به !

* * *

الفصل الثانى

كان عصر الأمس قارس البرد كثيف الضباب ، فأحسست ميلا إلى قضاء الأمسية بجوار المدفأة ف مكتبى،بدلا من خوض الوحول والاحراش إلى (مرتفعات ويذرنج) .. فلما فرغت من تناول غذائى (ملحوظة : اننى اتغدى هنا بين الثانية عشرة والواحدة ، اذ انمدبرة المنزل – وهى سيدة فىمنتصف العمر، تسلمتها مع البيت كأنها بعض اثاثه الثابت ! – لم تستطع ، او لم تشأ ، ان تفهم رغبتى ف تناوله ف الخامسة) .. صعدت الدرج متثاقلا إلى الطابق العلوى ، تتراوحنى هذه النية المتكاسلة ، ثم خطوات إلى حجرتى ، ففوجئت بفتاة من الخدم تبرك امام المدفأة وقد احاطت بها الفرش ودلاء الفحم ، محاولة إطفاء اللهب باكوام من الرماد اثارت حولها غبارا كثيفا مروعا .. فردنى هذا المنظر على اعقابى ، واسرعت بتناول قبعتى ، وما لبثت بعد مسيرة اربعة اميال ان بلغت بوابة حديقة « هيثكليف » ف اللحظة المناسبة بحيث نجوت من ندف الثلج الذى بدأ ينهمر فيملأ الجو بما يشبه الريش المتطاير ..

وكانت الارض ، عند قمة التل الكئيبة الباردة ، صلبة يغطيها جليد أسود ، بينما كان البرد يبعث القشعريرة ف كل جارحة من بدنى .. واستعصت على السلسة ولم استطع نزعها ، فتسلقت البوابة وانطلقت اعدو فوق الممر المرصوف بالبلاط ، والذى تتاخمه من الجانبين شجيرات عنب الديب المتناثرة بغير نظام او ترتيب .. فلما بلغت الباب رحت

اطرقه ، وما من مجيب ، حتى آلمتنى مفاصل اصابعى ، وكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من داخل المنزل هو نباح الكلاب وزمجرتها .. !

وجعلت اقول ف نفسى ساخطا : « لعنة الله عليكم ايها الانذال المناكيد سكان هذا المنزل ! .. والله إنكم لتستحقون النفى الأبدى عن امثالكم من البشر جزاء جلافتكم وسوء لقياكم للضيوف .. انني ، على الاقل ، ماكنت لأدع بابى موصدا ف رائعة النهار ، ولكنى لن ابالى وسوف ادخل المنزل على كل حال ! »

واذ استقر عزمى على ذلك ، امسكت بسقاطة الباب ورحت اهزها ف قوة وعنف ، فاذا بجوزيف ذى السحنة الكئيبة يطل براسه من كوة مستديرة ف مخزن الغلال ، ويصيح بى :

– ماذا تريد ؟ .. ان السيد هناك ف الحقل ، وعليك ان تنعطف عند نهاية الممر اذا اردت ان تتحدث اليه ..

فهتفت اجيبه :

– الا يوجد ف المنزل من يفتح لى الباب ؟

– لا يوجد سوى السيدة ، ولن تفتح لك ولو مكثت تطرق الباب حتى الليل !

– لماذا ؟ .. الا يمكنك ان تخبرها من اكون يا جوزيف ؟

– محال ان افعل ، فلا شأن لى بهذا ..

وما لبث راس الوغد ان توارى داخل الكوة !

وبدأ الثلج ينهمر غزيرا كثيفا ، فأمسكت بمقبض الباب لأشرع فى محاولة اخرى ، عندما اقبل من الفناء خلفى شاب فى مقتبل العمر ، لا يرتدى معطفا ، ويحمل فوق كتفه مذراة للدراس ، فصاح بى أن اتبعه .. وبعد ان اجتزنا حجرة للغسيل ومررنا بساحة مرصوفة تحوى مخزن فحم ، ومضخة مياه ، وبرج حمام ، وصلنا اخيرا إلى القاعة الفسيحة الدافئة التى استقبلت فيها اول مرة . وكانت تشع بهاء وبهجة فى وهج النار العظيمة المستعرة فى المدفأة ، والتى تندلع من كتل الفحم وشرائح الحطب وأوراق الشجر الجافة .. وشد ما سررت إذ لمحت بجوار المائدة ــ التى كانت محملة بالكثير من الطعام المعد للعشاء ــ تلك السيدة التى ذكرها جوزيف ، فاذا بى ارى مخلوقة لم يخطر ببالى قط اننى ملاقيها فى هذا المكان .. وانحنيت امامها محييا ، وانتظرت ان تدعونى للجلوس ، الا انها راحت تتطلع إلى وقد استندت إلى ظهر مقعدها ، وظلت جامدة فى مكانها لا تريم ولا تنبس ببنت شفة ! .. فقلت :

ــ يا له من جو فظيع ! .. اخشى يامسز هيثكليف ان يكون الباب قد حمل عواقب إهمال خدمكم وتراخيهم ، فقد لقيت عناء شديدا فى إسماعهم صوت طرقاتى ...

ولكنها لم تفتح فمها بكلمة . كنت انظر اليها متفرسا ، فكانت تحدجنى بانظارها دون ان تطرف عيناها ! .. ومهما يكن من امر فانها ظلت تحملق فى بنظرات ثابتة باردة خالية من اى معنى او اكتراث ، حتى انتابنى الضيق والحرج ..

وعندئذ قال الشاب فى غلظة : « اجلس .. سوف يحضر عما قليل .. » .

فاطعته وجلست صامتا .. ثم تنحنحت وحاولت ان انادى (جونو) الشريرة التى تنازلت فى هذا اللقاء الثانى وهزت طرف ذيلها هزات يسيرة دليلا على سابق تعارفنا .. وما لبثت ان قلت :

ــ هذه كلبة جميلة حقا ! .. هل تنوين التخلى عن الصغار ياسيدتى ؟

فقالت ربة الدار الجميلة فى اقتضاب : « انها ليست ملكى » .. ولكنها نطقت بهذه العبارة فى لهجة اشد تحفظا ونفورا مما كان يمكن ان يجيبنى بها هيثكليف نفسه ! .. ومع ذلك فقد استطردت اقول وقد تحولت نحو كومة تقبع فى مكان معتم وتكتظ بما يشبه القطط :

ــ آه ! .. ان حيواناتك الأليفة المفضلة بين هذه إذن ؟

فاجابتنى فى ازدراء : « ما اعجبها نخبة من الحيوانات المدللة ! » ــ فقد شاء سوء طالعى ان يكون ما اشرت اليه كومة من الارانب الميتة ! ــ وارتبكت ، فتنحنحت ثانية واقتربت بمقعدى من النار ، ثم عدت اكرر تعليقاتى على سوء الحالة الجوية فى تلك الامسية ، فقالت :

ــ ما كان ينبغى ان تغادر منزلك ..

ثم نهضت ومشت إلى رف المدفأة وهى تهم بتناول اثنتين من العلب الملونة الموضوعة فوقه .. وكان مجلسها محجوبا عن

الضوء ، أما الآن فقد استطعت ان ارى وجهها وقوامها فى جلاء . كانت نحيلة الجسم لا يكاد يبدو عليها أنها جاوزت سن المراهقة ، كان قوامها فاتنا ، اما وجهها فكان ابدع وارق وجه اتيح لى أن أراه من قبل : دقيق الملامح ، ناصع البياض ، وكانت خصلات شعرها الشبيهة بلون سنابل القمح ، او بالأحرى الذهبية اللون ، تنسدل على عنقها البض الجميل .. وكانت لها عينان لو لانت نظراتهما قليلا لغدا لهما سحر لا يقاوم ! .. ومن حظ قلبى السريع التأثر والحساسية ان العاطفة الوحيدة التى كانت تطل منهما كانت تتذبذب بين الزراية والاستخفاف وقلة الاكتراث ، وبين نوع من اليأس والقنوط كان وجوده فيهما امرا بالغ الغرابة والشذوذ !

كانت العلب بعيدة نوعا عن متناول يدها ، فبدرت منى حركة لمعاونتها ، واذا بها تستدير نحوى فى وحشية كما يفعل البخيل الشحيح اذا هم احد بمعاونته فى احصاء ذهبه ، وهى تندفع قائلة :

ـ لست فى حاجة لمعونتك ، ففى وسعى أن آخذها بنفسى ..

فاسرعت اقول لها : « ارجو المعذرة .. » .

واخذت تربط مرولة فوق ثوبها الأسود الأنيق ، ثم امسكت بملعقة ملأى بأوراق الشاى كانت تهم بوضعها فى الابريق ، غير انها توقفت لتسألنى : « هل دعيت لتناول الشاى ؟ » .

فاجبتها : « يسرنى ان انال قدحا منه .. » .

فعادت تقول : « ولكن هل دعيت ؟ » .

عندئذ قلت وأنا احاول الابتسام : « كلا .. ولكنك صاحبة الشأن فى دعوتى » . فطوحت بالشاى والملعقة معا إلى داخل العلبة ثانية ، وعادت إلى مقعدها فى نفور واشمئزاز ، وقد تغضن جبينها ، واختلجت شفتها السفلى القانية كطفل يهم بالبكاء !

وفى الوقت نفسه كان الشاب قد القى على كتفيه سترة رثة بادية القدم ، ثم وقف بقامته المنتصبة أمام النار المتأججة ، وهو يحدجنى من عل من ركنى عينيه بنظرة تفيض بالحقد والضغينة ، كأن بيننا ثارا قائلا لم ينتقم له بعد ! .. وبدأت اتساءل إن كان من الخدم او السادة ، فقد كان ثوبه وحديثه كلاهما سواء فى الخشونة والفظاظة ، كما كان خاليا تماما من مظاهر الرقى التى تبدو على مستر ومسز هيثكليف .. وكان شعره الأسمر كثيفا مجعدا خشنا غير منسق ، شعر فوديه(١) يتدلى فوق صدغيه كالدبية ! .. اما يداه فكانتا سمراوين خشنتين اشبه بأيدى الفعلة والعمال .. ومع ذلك كان مسلكه يتسم بالحرية والانطلاق ، بل بالتعالى والأنفة ، لا يظهر شيئا من ذلك الاحترام والاهتمام اللذين يبديهما الخدم نحو سيدة الدار .. وإذ كنت لا املك دليلا واحدا على حقيقة مركزه ، فقد رايت من الأفضل ان اكف عن الالتفات إلى مسلكه العجيب .. وما لبث مقدم هيثكليف ، بعد دقائق خمس ، ان خلصنى من حيرتى وارتباكى إلى حد ما ، فقلت له وأنا اصطنع الجذل لرؤيته :

---

(١) الفود : ما يلى الأذن من شعر الرأس .

WWW.LIILAS.COM/VB3

— هانت ذا ترى يا سيدى اننى حضرت وفاء بوعدى .. ولكنى اخشى ان يحبسنى هذا الجو الصاخب فى منزلك نصف ساعة ، اذا وسعنى رحابك هذه الفترة ..

فاجاب وهو ينفض رقائق الثلج البيضاء عن ثيابه :

— نصف ساعة ؟ .. انى لاعجب كيف تختار ذروة العاصفة الثلجية للتجول خارج منزلك خلالها ! .. هل تعلم انك انما تخاطر بتعريض نفسك للضياع وسط المستنقعات ؟ .. ان الذين الفوا هذه البرارى غالبا ما يضلون الطريق فى ليلة كهذه ، وفى وسعى ان اوكد لك بأنه لا ينتظر ان تتغير حالة الجو عن قريب ..

— ربما استطعت ان آخذ دليلا من بين غلمانك ، على ان يبقى فى (الجرانج) حتى الصباح .. فهل يمكنك ان تستغنى عن أحدهم ؟

— كلا .. لا يمكننى ذلك .

— آه .. حقا ؟ .. حسنا لا بد لى إذن من ان اعتمد على فطنتى ..

— هراء !

وفى تلك اللحظة صاح ذو السترة البالية وهو يحول نظراته الثاقبة الضارية عنى إلى السيدة الشابة : « الا تريدين إعداد الشاى ؟ »

ولكنها قالت تسأل هيثكليف عنى : « هل سيتناول «هو» شيئا منه ؟ »

— اسرعى باعداده حالا !

وقد انثالت هذه الكلمات من فمه فى وحشية منقطعة النظير بحيث انتفضت مجفلا .. وكانت اللهجة التى قيلت بها تنم عن خلق حاد وصدر ضيق ، حتى لم أعد ميالا إلى وصف هيثكليف بانه شخص عظيم كما خلته فى بادىء الأمر !

***

فلما تم اعداد المائدة دعانى اليها فى جفاء بقوله : « هيا ياسيدى .. قرب مقعدك إلى الأمام » . وهكذا اجتمعنا جميعا حول المائدة ، بما فى ذلك هذا الشباب الفظ الخشن ، واخذنا نلوك طعامنا وقد ران علينا صمت كئيب ..

وظننت من واجبى ان ابدد تلك السحابة التى تخيم فوقنا ، ما دمت السبب فى انعقادها فى الجو ـ فما احسب من المعقول ان يجلسوا كل يوم على هذه الحال من العبوس والعزوف عن الكلام .. كذلك من المحال ، مهما يكن من حدة طباعهم وسوء خلقهم ، ان يكون ذلك التجهم الشامل هو طابع اساريرهم المألوف ـ وهكذا بدأت اقول فى الفترة بين ارتشاف قدح من الشاى واستقبال قدح آخر :

— ما اغرب ما تطبعه العادة من اثر فى اذواقنا وافكارنا ! .. ان الكثيرين لا يمكنهم ان يتصوروا امكان وجود السعادة فى حياة تقضى على هذا النمط من النفى المطلق عن العالم ، كالحياة التى تقضيها يامستر هيثكليف .. ومع ذلك استطيع القول بانك وقد احاطت بك أسرتك ، ومعك زوجتك المحبوبة كالملاك الحارس على بيتك وقلبك ..

فقاطعنى قائلا ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية ساخرة :

ـ زوجتى المحبوبة ؟ .. أين هى .. زوجتى المحبوبة ؟

ـ اعنى مسز هيثكليف .. زوجتك !

ـ حسنا .. نعم .. آه ! . لعلك تقصد ان روحها قد تولت مهام الملاك المشرف على (مرتفعات ويذرنج) ، وحامى اقداره ومصائره حتى بعد ان فنى جسدها .. هل هذا ما تعنيه ؟

وإذ ألفيتنى قد ترديت فى زلة حمقاء ، رحت احاول ان اصلحها .. وكان ينبغى لى ان الحظ التفاوت العظيم فى السن بين الاثنين ، بما لا يجعلهما خليقين بان يكونا رجلا وزوجته . كان احدهما فى نحو الأربعين ، وهى سن النضج العقلى التى قلما ينتاب الرجل فيها هوس الزواج عن حب من الفتيات الصغيرات ـ فاننا انما نحتفظ بهذه الاحلام لتكون عزاءنا وسلوانا فى سن الشيخوخة الأخيرة ! ـ اما الأخرى فلا يبدو انها بلغت السابعة عشرة !

وعندئذ ومضت الحقيقة امام خاطرى فقلت لنفسى : « لعل زوجها هو هذا المهرج الذى يجلس عند مرفقى ، ويشرب نصيبه من الشاى فى طست ، ويأكل خبزه دون ان يغسل يديه ! .. انه هيثكليف الصغير ولا ريب ، وهذه عاقبة من تدفن نفسها حية ! .. قد القت بنفسها بين يدى هذا الحيوان الشرس لمجرد انها تجهل وجود اشخاص خيرا منه بكثير .. يا لرحمة السماء ! .. لا بد لى من ان اكون على حذر مما

قد أسببه لها من ندم على سوء اختيارها ! » .. وربما لاح هذا الخاطر الأخير مليئا بالغرور والخيلاء من جانبى ، ولكن الواقع انه لم يكن من ذلك فى شىء ، فقد روعنى من جارى انه ادنى إلى ان يكون منفرا حقا ، تعافه النفس .. اما انا فكنت اعلم ، من تجاربى الماضية ، اننى ادنى إلى ان اكون ساحرا جذابا !!

وفى تلك اللحظة كان هيثكليف يستطرد قائلا :

ـ ان مسز هيثكليف هى زوجة ابنى ..

فكان فى قوله ما طابق حدسى وتخمينى .. ولكنه إذ قال ذلك ، تحول نحوها يرمقها بنظرة غريبة تفيض بالحقد والكراهية ، الا ان تكون عضلات وجهه قد خلقت بالغة الشذوذ والانحراف بحيث لا تعبر ـ كسائر الناس ـ عما يعتمل فى نفسه ! وعندئذ تحولت إلى جارى الفتى قائلا فى خفة ونزق :

ـ آه ! .. طبعا ؛ لقد فهمت الآن ، فأنت المالك المحظوظ لهذه الحورية الساحرة !

ولكن تلك الزلة الثانية كانت ادهى وامر ! .. فقد رأيت وجه الفتى يحتقن بالدماء ، ورأيته يستجمع قبضته وينم مظهره عن النية المبيتة للانقضاض على .. غير انه ما لبث ان استعاد سيطرته على مشاعره وانفثأت عاصفة غضبه فى سيل من اللعنة القاسية التى وجهها لشخصى ، فحرصت على التظاهر بعدم الالتفات إليها .. بينما قال مضيفى :

ـ لم تكن موفقا فى ظنونك يا سيدى ، فان احدا منا لم

يوهب حظ امتلاك حوريتك الساحرة .. لقد مات زوجها ، وسبق أن قلت انها زوجة ابنى ..

ـ وهذا الشاب هو ؟

ـ انه ليس ابنى قطعا ..

وابتسم هيثكليف ثانية ، كما لو كانت نسبة أبوة هذا الدب إليه ضربا من المزاح الجرىء .. وفى الوقت نفسه كان الفتى يزمجر :

ـ ان اسمى هيرتون ايرنشو .. وانصح لك ان تحترمه !

فأجبته : « اننى لم ابد نحوه شيئا من عدم الاحترام » .

وكنت أضحك فى سرى من تلك الخيلاء التى اعلن بها اسمه .. ورايته يحدجنى بنظرة طويلة لم اعن بمبادلته اياها طويلا خشية أن يبعثنى الاغراء على صفعه ، او تنطلق منى تهقهة السخرية عالية مدوية ..

وبدات أشعر عن يقين بان المكان يضيق بى فى محيط هذه العائلة البهيج ! .. فقد طغت كآبة الجو النفسى للمكان على المباهج المادية المحيطة بى وجردتها من سحرها الدافىء الجميل ، وعزمت على ان التزم الحذر فى الإقدام على زيارة هذا البيت مرة ثالثة ..

وإذ كانت مهمة الاكل قد انتهى امرها ، ولم ينبس واحد منهم بكلمة فى حديث مما يتبادله الناس فى مثل هذه الاجتماعات ؛ فقد اقتربت من النافذه لاتبين حالة الجو .. ويا لسوء ما رايت ! .. كانت ظلمة الليل قد اسدلت استارها

قبل الاوان ، واختلطت معالم السماء والتلال فى دوامة واحدة رهيبة من الرياح الصاخبة والثلج الكثيف الخانق .. فلم اتمالك نفسى من الصياح :

ـ ما أحسبنى استطيع العودة لمنزلى الآن بغير دليل ، فالثلج يوشك ان يغمر الطرق ويخفى معالمها ، وحتى لو ظلت مكشوفة ، فان الظلام من الحلكة بحيث لا اكاد اميز خطوة واحدة امامى !

وكان هيثكليف يقول للشاب : « هيرتون .. عليك ان تسوق هذه الشياه الاثنتا عشرة إلى رواق المخزن ، وتضع امامها لوحا من الخشب ليمنع تسربها منه .. فسوف يغمرها الجليد اذا بقيت فى الحظيرة طوال الليل .. »

واستطردت اقول وقد تزايد انفعالى :

ـ ماذا ترانى فاعلا الآن ؟

ولم يجب احد على سؤالى ، فلما التفت خلفى لم اجد غير جوزيف وقد اتى يحمل دلوا به عصيدة للكلاب ، بينما كانت مسز هيثكليف منحنية فوق نار المدفاة وهى تتسلى بإشعال حزمة من عيدان الثقاب كانت قد سقطت من فوق رف الموقد عندما اعادت علبة الشاى إلى موضعها فوقه .. فلما وضع جوزيف حمله على الارض اخذ يجيل فى الحجرة نظرات فاحصة ناقدة ، وما لبث ان قال بصوته الحاد الذى يشبه الصرير :

ـ شد ما اعجب كيف يطيب لك الوقوف هنا فى بلادة وخمول بينما انصرف الجميع لشانهم .. ولكنك طبعت على

السوء ولا فائدة من الكلام معك ، فلن يجدى ذلك فى إصلاح مسلكك الذميم الذى سينتهى بك إلى الشيطان رأسا كما سبقتك إليه أمك من قبل !

وخيل إلى لحظة أن هـذه الدرة من درر الفصاحة كانت موجهة لشخصى ، وإذ كنت قد بلغت من الحنق والسخط حدا لا يحتمل المزيد ، فقـد خطوت نحو الوغد العجوز وفى عزمى أن أركله بقدمى ركلة تلقى به إلى خارج الحجرة ، لولا أن مسز هيثكليف ردتنى إلى الصواب عندما سمعتها تجيبه :

ـ ألا تخشى أيها الشيخ المنافق المفترى أن يصيبك مس من الشيطان كلما ذكرت اسمه على لسانك ؟ .. إننى أنذرك بأن تكف عن إثارتى وإلا رجوته أن يختطفك فيـسدى إلى بذلك جميلا خاصا ! .. مهلا .. أنظر يا جوزيف ..

وتناولت من فوق أحد الأرفف كتابا طويلا أسود اللون ، ثم استطردت تقول : « سوف أريك كيف تقدمت فى دراسة السحر الأسود وممارسته شأوا بعيدا ؛ لن ألبث أن أجعل منه عما قريب موطنا سهلا لى ! .. إن البقرة الحمراء لم تمت بمحض الصدفة يا جوزيف ، وآلام الروماتيزم التى تحل بك ليست من نفحات العناية الإلهية ! »

فغمغم الشيخ لاهثا : « آه ! . الشريرة ! . الشريرة ! . اللهم نجنا من السوء ! »

ـ كلا أيها الخبيث .. فأنت طريد رحمته ! .. امش من هنا وإلا أصابك منى أذى جسيم .. سوف أصنع لكم جميعا

تماثيل من الشمع والصلصال ، ومن يجرؤ منكم على تجاوز الحدود التى أرسمها فسوف .. لا ، لن أقول ماذا سيحل به ، ولكنكم سوف ترون .. اذهب .. امش من هنا ، فهانذا أسلط عليك نظراتى ..

واصطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحقد والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين ، وإذا بجوزيف يهرول خارجا ، وقد سرت فى بدنه رعدة فزع حقيقى ، وهو يتمتم أثناء انصرافه بالصلوات والدعوات التى تتخللها كلمة «يا للشريرة ! .. يا للشريرة !» .. بينما كنت أغالب الضحك ظنا منى بأن مسلكها ليس إلا نوعا من المزاح الرهيب ..

فلما وجدت بعد ذلك أننا أصبحنا منفردين ، حاولت أن أثير اهتمامها بما أنا فيه من كرب .. فقلت فى لهفة :

ـ أرجو أن تغفرى لى إزعاجك يامسز هيثكليف ، فإنى على يقين من أنك ـ وأنت صاحبة هـذا الوجه الصبوح ـ لا يسعك إلا أن تكونى طيبة القلب عطوفا .. فهلا أرشدتنى إلى بعض علامات الطريق حتى أستهدى بها السبيل إلى منزلى ! .. إننى الآن ليست لدى أية فكرة عن طريق الوصول إليه ، أكثر مما يمكن أن يكون لديك عن طريق الوصول إلى لندن !

فأجابت وهى تتهاوى على أحـد المقاعد ومعها شمعة موقدة وذلك الكتاب الطويل الأسود مفتوحا :

ـ خذ الطريق الذى قدمت منها ! .. هذه نصيحة موجزة ولكنها الوحيدة المجدية التى أستطيع أن أسديها إليك ..

واصطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحقد والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين ، واذا بجوزيف يهرول خارجا ..

ـ وإذا سمعت اننى وجدت ميتا فى بركة ماء او حفرة مليئة بالجليد ، فهلا يهمس لك ضميرك بانك مسئولة عن ذلك إلى حد ما ؟

ـ وكيف ذلك ؟.. ليس فى وسعى ان ارافقك بنفسى ، وهم لن يسمحوا لى بالذهاب إلى نهاية سور الحديقة ..

فهتفت قائلا :

ـ انت ؟.. انه ليسوؤنى ان اسالك اجتياز عتبة هذه الحجرة ، مرشاة لى ، فى مثل هذه الليلة .. إنما وددت ان تدلينى على الطريق لا ان ترينى إياها .. او تقنعى مستر هيثكليف بان يرسل معى دليلا يرشدنى ..

ـ من تريد ؟ .. ليس هنا سواه وسوى ايرنشو وزيلا وجوزيف .. فاينا تريد ان يكون الدليل ؟

ـ الا يوجد غلمان فى المزرعة ؟

ـ كلا ، هذه جماعتنا كلها ..

ـ إننى إذن مضطر إلى البقاء هنا ..

ـ هذا امر يمكنك ان تتفق عليه مع مضيفك . اما انا فلا شأن لى به ..

وعندئذ انبعث صوت هيثكليف الصارم من ناحية المطبخ وهو يصيح بى :

ـ لعل لك فى ذلك درسا يعلمك الا تقوم بمزيد من تلك الجولات الطائشة بين هذه التلال . اما عن بقائك هنا ، فليس

لدى معدات لإيواء الضيوف ، وعليك ان تشاطر هيرتون او جوزيف فراشه إذا فعلت . .

ـ يمكنني ان انام على مقعد فى هذه الحجرة . .

فاجابنى الشقى البذىء اللسان :

ـ كلا . . كلا . . فالغريب غريب سواء اكان غنيا ام فقيرا . . وليس مما يوافقنى ان ابيح حرمات مسكنى لكائن من كان عندما اكون غافلا عنه !

وبلغ صبرى نهايته بهذه الإهانة الصارخة ، فصحت معربا عن اشمئزازى ، واندفعت اتخطاه نحو الفناء ، مرتطما بايرنشو فى عجلتى ، فقد كان الظلام من الحلكة بحيث لم اتبين مسالك الخروج . . وبينما كنت اهيم على وجهى فى الظلام سمعت (عينة) أخرى من المجاملات الرقيقة المهذبة التى يتبادلونها فيما بينهم !. . فقد لاح الشاب بادىء ذى بدء مظاهرا لى متطوعا لنصرتى ، إذ قال :

ـ سوف اذهب معه حتى المتنزه . .

فصاح به سيده ـ او كيفما كانت الصلة التى بينهما ـ قائلا :

ـ سوف تذهب معه إلى الجحيم ! . . ومن الذى سيعنى بالجياد ؟

فغمغمت مسز هيثكليف فى رقة كانت اكثر مما توقعت :

ـ إن حياة رجل لهى اكثر اهمية من إهمال الجياد ليلة واحدة . . ولا بد لشخص ما ان يذهب معه . .

فتحول هيرتون نحوها قائلا فى غلظة :

ـ لن اذهب بامر منك ! . . وإذا كنت تقيمين وزنا له ، فخير لك ان تصمتى . .

فاجابته فى حدة :

ـ ارجو ان يراود شبحه احلامك إذن ! . . كما ارجو الا يجد مستر هيثكليف مستاجرا آخر للجرانج حتى يصبح ركاما وانقاضا !

وعندئذ غمغم جوزيف ، الذى كنت اتقدم ناحيته ، قائلا :

ـ اسمعوا ! . اسمعوا ! . انها تصب اللعنات عليهم !

وكان يجلس على مرمى السمع منا ، يحلب الابقار فى ضوء فانوس يضعه على الارض بجانبه ، فبادرت إلى التقاطه دون استئذان او اعتذار ، واندفعت نحو اقرب باب جانبى فى السياج ، وانا اهتف بهم اننى سوف اعيده لهم فى الغد . .

ولكن الشيخ المأفون انطلق يصيح وهو يطاردنى :

ـ يا سيد ! . . يا سيدى ! . . لقد سرق الفانوس ! . . هيا يا « جناشر » ، هيا يا وولف اذهبا وراءه . . امسكاه !

وهكذا ما كدت اهم بفتح الباب الصغير ، حتى كان الوحشان ذوا الشعر الكثيف قد انقضا على عنقى ، فالقيا بى الى الارض ، واطفأ المصباح ، بينما انفجر هيثكليف وهيرتون معا يقهقهان فى سرور وابتهاج جعل شعورى بالغضب والهوان يبلغ الذروة . . ومن حسن الحظ ان الوحشين كانا اكثر اهتماما بالزمجرة والنباح ،ونشر مخالبهما ، والتلويح بذيليهما ،

من تذوق لحمى وهما ينهشانى حيا ! .. ولكنهما ما كانا يطيقان منى حركة أو نهوضا ؛ فاضطررت برغمى أن أظل راقدا فى مكانى حتى طاب لسادتهما الأشرار أن يخلصونى من هذا الكرب .. ووقفت أنتفض حنقا وغيظا ، وقد طارت قبعتى ، فرحت أهيب باللئام أن يدعونى أنصرف على الفور ـ وإلا تعرضوا لخطر جسيم إذا احتجزونى دقيقة واحدة أخرى ! ـ كما انثالت من فمى عبارات الوعيد والتهديد ، مختلطة غير متناسقة أشبه بالهذيان ، منذرة إياهم بالانتقام الرهيب ، فكانت بما تنطق به حقد عميق غير ذى قرار ، أشبه بأقوال الملك « لير » بطل شكسبير المعروف !

واشتد بى الانفعال ، واستعر أوار الغضب ، حتى سال الدم من أنفى غزيرا ، وما زال هيثكليف يتهقه مسرورا ؛ وما زلت ماضيا فى التعنيف والتأنيب .. ولست أدرى كيف كان يمكن أن ينتهى هذا المشهد ، لولا تدخل شخص أكثر منى تعقلا وأكثر من مضيفى رحمة وإحسانا .. تلك هى زيللا ـ مديرة المنزل البدينة ـ التى اندفعت أخيرا من داخل الدار لتسأل عن سبب هذه الجلبة .. وكانت تظن أن بعضهم قد اعتدى على اعتداء عنيفا ، وإذ كانت لا تجرؤ على مهاجمة سيدها ، فقد مضت تطلق « مدفعية » لسانها على الوغد الصغير ، وهى تصرخ قائلة :

ـ الله الله يامستر إيرنشو ! .. إنى لأتساءل عما أنت بسبيله بعد ذلك ! .. ترى هل بلغ بنا الأمر إلى حد ذبح

الناس على عتبة دارنا ؟ .. أرى أن هذا المنزل لم يعد يصلح لى بعد الآن ! .. انظر إلى الفتى المسكين .. إنه يوشك على الاختناق .. تعال يا هذا .. تعال .. فما ينبغى أن تذهب وأنت على هذه الحال .. ادخل ، وسوف أعالجك مما حل بك .. والآن ، امسك نفسك !

وإذ كانت تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، أراقت فوق رأسى فجأة إناء من الماء المثلج ، انحدر فوق ظهرى ، ثم جذبتنى إلى داخل المطبخ .. وتبعنا مستر هيثكليف ، وقد تلاشى مرحه العارض سريعا ، وحل محله ذلك التجهم المألوف ..

ولما كنت فى أسوأ حالات المرض ، وقد حل بى الدوار والإعياء ، فقد اضطررت برغم أنفى إلى قبول البقاء تحت سقف منزله .. وأما هو فقد أمر « زيللا » بأن تعطينى كأسا من البراندى ، وما لبث أن توارى فى الحجرات الداخلية .. وفيما كانت المرأة الطيبة تشاطرنى الأسى على ما أصابنى من سوء الحال ، وقد بدأت أنتعش قليلا على أثر الشراب الذى قدمته لى تلبية لأمر سيدها ، راحت تساعدنى فى الوصول إلى الفراش ..

***

الفصل الثالث

أوصتنى زيللا ، وهى تتقدمنى على الدرج ، بأن أخفى ضوء الشمعة ، وألا أحدث صوتا يكشف أمرى ، إذ أن لسيدها رأيا عجيبا فى الحجرة التى كانت تود أن تضعنى فيها ، ولا يرضى بالسماح لأى انسان بأن يدخلها .. وسألتها عن السبب فأجابتنى بأنها لا تعرف لذلك سببا ، فلم تقض فى هذا المنزل إلا عاما أو عامين ، كما أن أعمالهم الغريبة المحيرة كانت من الكثرة بحيث لا تستطيع ملاحقتها بالفضول وحب الاستطلاع !

وإذ كان الإعياء والحذر قد نالا منى بما لا يجعلنى أهلا للفضول بدورى ، فقد أغلقت باب الحجرة وتلفت حولى باحثا عن الفراش .. كان أثاث الحجرة كله مؤلفا من مقعد واحد وصوان صغير للثياب ، ثم خزانة كبيرة من خشب البلوط ذات فتحات مربعة فى أعلاها أشبه بنوافذ العربات .. فاقتربت من تلك الخزانة وتطلعت بداخلها فوجدتها نوعا فريدا من المضاجع العتيقة الطراز ، أقيمت على نحو ملائم لتحاشى ضرورة تخصيص حجرة لكل فرد من أفراد العائلة .. والواقع أنها كانت مخدعا صغيرا ، كما كانت قاعدة النافذة التى تقع بداخلها تصلح كمنضدة .. ودفعت مصراع الباب المنزلق ، ثم دخلت تلك المقصورة ومعى الشمعة المضيئة ، ورددت الباب إلى مكانه فأغلقته .. وعندئذ فحسب شعرت بالطمأنينة والأمن من رقابة هيثكليف الصارمة ، وكل إنسان سواه !

وكانت قاعدة النافذة ، حيث وضعت شمعتى ، تحوى فى ركن منها كومة من الكتب قليلة العدد تعلوها الرطوبة والعفن ، كما كانت هى نفسها مغطاة بكتابة مختلفة تخدش طلاءها .. ومع ذلك فلم تكن تلك الكتابة إلا اسما واحدا تكرر نقشه بمختلف أنواع الحروف ، الكبيرة والصغيرة ، فكنت أرى تارة « كاترين ايرنشو » ، ثم يتغير إلى « كاترين هيثكليف » ، ويتغير من جديد إلى « كاترين لينتون » .. الخ .

أسندت رأسى إلى النافذة فى تراخ وخمول ، ومضيت أعيد هجاء اسم كاترين ايرنشو ـ هيثكليف ـ لينتون ، مرة تلو الأخرى ، حتى غمضت عيناى .. ولكنى ما كدت أغفو خمس دقائق ، حتى انبثق من الظلام وميض ساطع من الحروف البيضاء التى راحت تتراقص كالأشباح الوثابة وتملأ الجو باسم كاترين على مختلف صوره وأشكاله ! .. فجاهدت حتى أيقظت نفسى لأطرد ذلك الاسم الدخيل ، وعندئذ تبينت أن ذبالة الشمعة قد مالت على أحد الكتب العتيقة وعطرت المكان برائحة الجلد المحترق ! .. فسحقت طرف الفتيل بين أصابعى ، وجلست مكروبا مما أعانيه من البرد والغثيان ، ناشرا الكتاب المعطوب فوق ركبتى ، فوجدته نسخة من التوراة طبعت بحروف صغيرة ، تفوح منه رائحة العفن المروعة ، ووجدت فى أوله صفحة بيضاء تحمل هذه العبارة : « هذا كتاب كاترين ايرنشو » ، ثم تاريخا يصل إلى ربع قرن مضى .. وما لبثت أن تركته ورحت أتناول باقى الكتب واحدا بعد الآخر ، حتى فحصتها جميعا ، ووضح لى أن « كاترين » هذه كانت تعنى

بانتقاء مكتبتها ، كما تبينت من رثاثة الكتب ان صاحبتها كانت تحسن استعمالها ، وإن كان ذلك فى غير اغراض القراءة فحسب .. فقلما كان يخلو فصل من فصول هذا الكتاب او ذاك من تعليقات ـ او هذا ما يبدو ، على الاقل ـ كتبت بالمداد فى كل فراغ تركته المطبعة ! .. وكان البعض لا يعدو جملا غير متماسكة ، بينما اتخذ البعض الآخر شكل مذكرات يومية منتظمة ، كتبت بخط صبيانى سقيم .. وشد ما ابتهجت عندما رايت فى الجزء العلوى من ورقة بيضاء خالية من الكتابة ، (لعلها اعتبرت كنزا ثمينا عندما اكتشف امرها اول مرة) ، رسما كاريكاتوريا بديعا لصديقنا جوزيف، كان بالغ الاتقان برغم بدائيته ! .. وكأنما اضرم ذلك نيران الاهتمام فى نفسى بكاترين المجهولة ، فبدات على الفور افك رموز خطها الهيروغليفى الباهت ، وكان اول ما طالعنى منه :

« انه يوم احد فظيع ! .. ولكم يود ان يعود ابى ثانية ، فان (هندلى) ينوب عنه على نحو بغيض .. ومسلكه نحو هيثكليف يزداد شناعة ... لذا عزمت انا وهيثكليف على التمرد .. وخطونا الخطوة الاولى هذا المساء . كان المطر ينهمر طوال اليوم غزيرا ، فلم نستطع الذهاب إلى الكنيسة ، ومن ثم كان لا بد لجوزيف من ان يجمعنا للصلاة فى المخزن العلوى الصغير .. وبينما كان هندلى وزوجته يستمتعان بالجلوس فى الطابق السفلى امام نار المدفأة المريحة ـ واقسم انهما كانا يفعلان اى شىء إلا القراءة فى الانجيل ـ كنت انا وهيثكليف وصبى الحقل المسكين نتلقى الامر بحمل كتب

الصلوات والصعود إلى المخزن العلوى حيث جلسنا صفا واحدا ، فوق زكيبة ملأى بالقمح ، ونحن نئن ونتأوه ونرتجف من البرد ، وندعو الله ان تمشى القشعريرة فى بدن جوزيف ايضا لعله يوجز فى العظة التى سيلقيها على مسامعنا .. ولكنه كان املا خائبا ! .. فقد دام القداس ثلاث ساعات كاملة .. ومع ذلك كان اخى من الصفاقة بحيث صاح متعجبا ، وهو يرانا نهبط الدرج : « ماذا ؟ .. هل انتهت الصلاة بهذه السرعة ؟ »

«وكان مباحا لنا عادة ، فيما مضى ، ان نقضى امسيات ايام الآحاد فى اللعب ، على شرط الا نثير جلبة او ضوضاء .. اما الآن فالضحكة الخافتة تكفى لإرسال كل منا ليركع فى ركن قصى . وكان الطاغية يقول : « انكما تنسيان ان لكما سيدا هنا .. ولكنى سوف اسحق اول من تسول له نفسه ان يخرجنى عن طورى .. اننى مصر على الهدوء الشامل والصمت المطلق .. آه ! . هل انت الذى فعلت هذا يا ولد ؟ .. فرانسيس يا عزيزتى ، شديه من شعره عند مرورك به فقد سمعته يطقطق اصابعه ! .. » فجذبته فرانسيس من شعره عن طيب خاطر ، ثم مضت لتجلس على ركبتى زوجها ، حيث مكثا ساعة يتضاحكان ويتبادلان القبل والأحاديث الفارغة كأنهما طفلان ثرثاران ، فى مداهنة سخيفة يخلق بنا ان نخجل منها ! .. اما نحن فقد قبعنا فى فجوة (البوفيه) ، ودبرنا لأنفسنا جلسة مريحة بقدر ما سمحت به إمكانياتنا فى هذا المكان الضيق .. وكنت قد ربطت مرولتينا معا ، وعلقتهما ستارا ، عندما

قدم جوزيف من جولته فى حظائر الماشـية ، فاذا به يجذب الستار فينتزعه من مكانه ، ثم يلطمنى ويقول فى صوت كنقيق الضفادع : « إن السيد لم تجف دماؤه فى قبره بعد ، ولم ينقض يوم الأحد المقدس ، وما زال صوت تلاوة الانجيل فى آذانكما ، ومع ذلك تجسران على اللعب والضحك ؟ .. العار لكما واللعنة عليكما ! .. اجلسا فى سكون أيها الطفلان الفاسدان ، فهناك كتب طيبة تكفيكما للقراءة إذا أردتما .. اجلسا خاشعين وفكرا فى صلاح روحيكما الشريرتين ! »

«وإذ قال ذلك أرغمنا على الجلوس فى وضع يتيح لنا أن نتلقى شعاعا خافتا من وهج المدفأة البعيدة يكفى لأن نتبين سطور الكتب السخيفة التى ألقى بها إلينا .. ولم أستطع احتمال هذا التكليف . فأمسكت بالكتاب القذر الذى كان من نصيبى وطرحت به إلى وجار الكلب مقسمة على أننى أمقت الكتب الطيبة ! .. أما هيثكليف فقد رمى بكتابه إلى نفس المكان ولكن بركلة من قدمه .. وعندئذ انقضت الصاعقة ، فقد صاح قسيسنا الورع :

ـ يا سيد .. يا مستر هندلى ! .. تعال إلى هنـا حالا ! .. لقد مزقت مس كاثى ظهر غلاف « درع الخلاص » .. ووضع هيثكليف قدمه على الجزء الأول من « الطريق الفسيحة نحو الدمار » ! .. إنه لعار كبير أن تتركهما يمعنان فى هـذا المسلك الذميم .. آه ! .. إن الرجل العجوز ما كان ليدعهما دون علقة ساخنة .. ولكنه ذهب !

« فأسرع إلينا هندلى من فردوسه بجوار المدفأة ، وأمسك أحدنا من قفاه ، والآخر من ذراعه ، ثم قذف بنا إلى المطبخ الخلفى حيث أكد لنا جوزيف تأكيدا قاطعا بأن الشيطان سوف يأتى فى طلبنا .. وإذ ارتاح بالنا إلى ذلك ، مضى كل منا إلى أحد الأركان وجلسنا ننتظر مقدمه ! .. أما أنا فقد أخذت هذا الكتاب ومحبرة كانت فوق رف فى المطبخ ، وفتحت باب المنزل قليلا ليسمح بدخول الضوء ، وظللت أكتب نحو عشرين دقيقة .. وأما رفيقى فقد نفد صبره واقترح أن نستولى على معطف المرأة التى تمخض الزبد ، ونحتمى به من المطر ثم نمضى لنركض بين البرارى ـ وهو اقتراح لطيف حقا ، فلو حضر عندئذ العجوز ذو السحنة الكئيبة فربما اعتقد أن نبوءته قد تحققت ـ ولن نزداد بللا أو بردا تحت المطر عما نحن عليه هنا .. »

* * *

أحسب أن كاثرين قد نفذت مشروعها . لأن العبارة التى تلت ذلك طرقت موضوعا آخر .. ويبدو أنها كتبتها والدموع تنهمر من عينيها ، قالت :

« ما كنت أحلم البتة أن هندلى سوف يجعلنى أبكى بمثل هذه الحرقة يوما من الأيام ! .. إن رأسى يؤلمنى ألما شديدا حتى لا أكاد أطيق وضعه فوق الوسادة ، ومع ذلك لا أستطيع أن أكف عن البكاء .. يالهيثكليف المسكين ! .. إن هندلى يصفه بالمتشرد ، ولا يريد أن يدعه يجلس معنا أو يأكل معنا بعد الآن .. كذلك يقول إننى وهيثكليف لا ينبغى أن نلعب

معا ، ويتوعد بطرده من المنزل إذا عصينا أوامره .. بل لقد راح يوجه اللوم لوالدنا (رباه ! كيف يجرؤ على ذلك ؟) لأنه أحسن معاملة هيثكليف ، ثم أقسم بأنه يلزمه حده ويضعه في الموضع اللائق به ! » .

* * *

وبدأ النعاس يراود أجفاني ، فهومت فوق صفحة الكتاب المعتمة ، وسرح بصري من الكتابة المخطوطة إلى الحروف المطبوعة ، فرأيت عنوانا طبع بالمداد الأحمر على سبيل الزخرفة ، كان نصه : « سبعون في سبعة (١) ، وأول الواحد والسبعين الأولى ! . عظة تقية ألقاها المحترم جابس براندرهام في كنيسة جيمردون صو » . وبينما كنت أكد عقلي ، وأنا بين النوم واليقظة ، لاستنتاج ما يمكن أن يعالجه جابس براندرهام في موضوعه هذا ، تهاويت على الفراش واستغرقت في النوم .. ولكن واأسفاه ! .. لقد تآمرت على آثار الشاي الردىء والخلق السيىء ! وإلا فأي شيء آخر يمكن أن يجعلني أقضي مثل هذه الليلة المروعة ؟ .. إنني لا أذكر البتة ليلة أخرى أستطيع مقارنتها بهذه ، منذ أن أدركت معنى الإحساس بالألم والفزع .. !

---

(١) إشارة إلى عدد المرات التي أوصى الإنجيل بأن يغفرها الإنسان لمن يخطىء إليه ، فقد ورد في إنجيل متى (١٨ ـ ٢١) : « حينئذ تقدم بطرس إلى المسيح وقال : يا رب كم مرة يخطىء إلي أخي وأنا أغفر له . هل إلى سبع مرات ؟ قال له يسوع لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات . »

وقد بدأت الأحلام تطيف بي ، حتى قبل أن أنقطع عن الشعور بالمكان الذي أرقد فيه .. فخيل إلي أن الصباح قد حل ، وأنني خرجت منصرفا إلى منزلي ، ومعي جوزيف مرشدا لي .. وكان الثلج يغمر طريقنا ، عميقا كثيفا ، فكنا نتخبط في مسيرنا ، عندما أخذ رفيقي يضجرني بلومه المتكرر لي إذ لم أحضر معي « عكاز الحاج » ، قائلا إنني لن أستطيع دخول الدار ما لم يكن معي واحد منها ، بينما كان في الوقت نفسه يلوح في زهو بهراوة ضخمة ذات رأس ثقيل ، فهمت أنها هي التي يطلق عليها هذا الاسم .. وظللت لحظة أعدها سخافة بالغة منه أن يزعم احتياجي لمثل هذا السلاح حتى أستطيع دخول منزلي الخاص .. ما لبثت أن ومض في فكري خاطر جديد : إنني لست ذاهبا إلى هناك ، وإنما نحن نمضي إلى حيث نسمع السيد جابس براندرهام الشهير يلقي عظته : « سبعون في سبعة » ، وأن واحد منا ـ جوزيف ، أو الواعظ أو أنا ـ قد يكون « أول الواحد والسبعين الأولى » .. وأننا سوف يشهر بنا علانية ، وتوقع علينا عقوبة الحرمان من الكنيسة ..

ووصلنا إلى الكنيسة .. وكنت قد مررت بها في اليقظة أثناء جولاتي بين البراري ، مرتين أو ثلاثا .. وهي تقع فيما يشبه الكهف المرتفع ، على مستشرف من الأرض ، بين تلين ، بالقرب من مستنقع يقال إن النفايات الرطبة التي تملؤه تفي بجميع أغراض التحنيط للجثث القليلة التي أودعت الأرض هناك ! .. وقد ظل سقف الكنيسة قائما حتى الآن ، ولكن

لما كانت مخصصات القس لا تعدو عشرين جنيها فى العام ، ومنزلا من حجرتين ينذر الجدار الفاصل بينهما بتحويلهما عاجلا إلى حجرة واحدة ، فان احدا من رجال الدين لم يعد يقبل القيام باعباء وظيفة القس لهذه الكنيسة ، سيما وقد ذاع امر تلك الحقيقة الواقعة ، وهى ان قطيع رعيته يفضل ان يدعه يموت جوعا على زيادة راتبه بنسا واحدا يدفعونه من جيوبهم ! .. ومهما يكن من امر ، فقد كان الاجتماع الذى عقده جابس ، فى الحلم ، حافلا بحشد من المستمعين الذين ارهفوا سمعهم له .. وبدا يلقى عظته .. يا الهى ! .. اى قداس هذا ؟ .. لقد قسمه إلى اربعمائة وتسعين قسما ، كل منها من الامتلاء بحيث يكفى خطبة منبرية عادية ، وكل يناقش خطيئة مستقلة ! .. ولست ادرى من اين اتى بكل هذا العدد من الخطايا ؟ .. كذلك كانت له طريقته الخاصة فى تفسير عبارته ، فكان يبدو ان « الاخ » منا لابد ان يأثم عدة آثام مختلفة فى اية مناسبة .. وكانت كلها ذات طابع مفرط فى الغرابة ، وكلها خطايا عجيبة لم تخطر لى على بال قط من قبل !

اواه ! .. ما اشد الكلال الذى حل بى ! .. فكم تلويت ، وتثاءبت ، وهومت ، ثم انتعشت ! .. وكم قرصت نفسى ، ونخست جلدى ، وفركت عينى ، وكم نهضت ثم جلست ، وكم وكزت جوزيف بمرفقى ليخبرنى بما اذا كان القس المحترم سوف يفرغ من عظته قط ! .. ولكن كان قد قضى على بان اسمعها كلها .. واخيرا بلغ « اول الواحد والسبعين الاولى » !

.. وعند هذه المصيبة الداهمة ، هبط على الوحى فجأة وشعرت بدافع يحركنى للقيام واتهام جابس بارتكاب الخطيئة التى لا يحتاج المؤمن معها إلى غفران .. فهتفت اقول :

ـ لقد احتملت يا سيدى ، وانا اجلس بين هذه الجدران الاربعة فى وضع واحد لا يتغير ، رؤوس مواضيع خطبتك الاربعمائة والتسعين ، وغفرتها لك ! .. كنت ، سبعين مرة فى سبع ، اختطف قبعتى واوشك على الانصراف .. ولكنك كنت ، سبعين مرة فى سبع ، ترغمنى ـ على نحو لا يصدقه العقل ـ على استعادة مقعدى .. والاربعمائة والتسعون الاولى هى اكثر مما نطيق .. ايها الاخوة الشهداء ، عليكم به ! .. جروه من منبره ، واسحقوه سحقا حتى تحولوه إلى ذرات ، وحتى لا يعود المكان الذى طالما عرفه من قبل يعرفه بعد ذلك ..

وتمهل جابس لحظة وهو يحدجنى فى رصانة وقد اتكأ على وسادته ، وما لبث ان صاح فجأة :

ـ انت الرجل المنشود ! .. لقد كنت ، سبعين مرة فى سبع ، تفغر فاك متثائبا ، فيتقلص وجهك .. ولكنى ظللت ، سبعين مرة فى سبع ، اراجع نفسى ، واتشاور مع روحى ! .. انظروا .. هذا ضعف بشرى ! .. وهو ايضا مما يمكن غفرانه ! .. لقد اتى اول الواحد والسبعين ، ايها الاخوة ، فهاكم نفذوا فيه العقاب المكتوب .. انه شرف لا يناله إلا القديسون !

وعند هذه العبارة الختامية ، اندفع الجمع كله محيطا بى فى كتلة واحدة ، وقد رفع كل منهم « عكاز الحاج » الذى يحمله .. وإذ كنت لا احمل سلاحا ارفعه دفاعا عن نفسى ، فقد بدات اناضل جوزيف ، الذى كان اقرب المهاجمين لى واشدهم ضراوة ، محاولا انتزاع عكازه .. وفى غمرة هذا الحشد الزاخر ، كانت الهراوات تتقارع معا ، وكانت اللطمات الموجهة إلى تهوى على رؤوس وجماجم اخرى ! .. وما لبثت الكنيسة كلها ان اصبحت تردد صدى رنين الطرقات والطرقات المضادة ، واصبحت يد كل رجل مرفوعة على جاره .. اما براندرهام ، الذى لم يرد البقاء عاطلا ، فقد تدفقت حميته فى وابل من الدقات العالية على الواح منبره ، كان لها دوى ورنين بحيث ادت فى النهاية ، لفرط ارتياحى الصامت ، إلى إيقاظى من النوم ! .. وماذا كان ذلك الشىء الذى اوحى بهذه الضجة الهائلة ؟ .. ما الذى لعب دور جابس فى ذلك الشغب؟ .. إنه لم يكن إلا غصنا من شجرة شربين ، كان يمس نافذتى كلما هبت الريح ، فتقرع ثماره الجافة زجاج النافذة .. ورحت اصغى لحظة ، بين الشك واليقين ، حتى تحققت من سبب انزعاجى ، فاستدرت فى الفراش واغفيت من جديد .. وعندئذ بدات احلم ثانية ، فكان حلما اشد سوءا من سابقه !

فى هذه المرة رايتنى أرقد فى خزانة البلوط ، واسمع فى وضوح زفيف الرياح وهطول الثلوج ، واسمع كذلك غصن الشربين اللعين وهو يعود إلى معاكساته الصوتية السابقة ، فكنت انسبها إلى مصدرها الحقيقى .. لكنه اضجرنى كثيرا

إلى حد جعلنى اصمم على إسكاته ما استطعت .. وخيل إلى اننى نهضت من رقادى ، وحاولت رفع مزلاج النافذة ، فوجدت الخطاف مثبتا فى الحلقة باللحام ـ وهى حالة لاحظتها فى يقظتى ونسيتها فى الحلم ! ـ فغمغمت محنقا : « لابد لى من إسكاته مع ذلك » .. ثم دفعت قبضة يدى فى النافذة دفعة قوية اخترقت الزجاج ، ومددت ذراعى إلى الخارج لامسك بالغصن اللجوج ، فاذا باصابعى تطبق ـ بدلا منه ـ على اصابع يد صغيرة باردة كالجليد ! .. واصابنى هذا الكابوس بفزع هائل غزير ، وحاولت ان اجذب يدى إلى داخل النافذة ، ولكن اليد الصغيرة تعلقت بها فى قوة ! وإذا بصوت يفيض بالحزن والالم يغمغم بما يشبه الانين ، قائلا : « دعنى ادخل .. دعنى ادخل » ، فسالت وانا لا اكف من النضال لتخليص يدى : « ومن انت ؟ » فاجاب الصوت فى نبرات متهدجة : « كاثرين لينتون » .. (لست ادرى لماذا فكرت فى اسم « لينتون » مع اننى قرات اسم « ايرنشو » اكثر من لينتون عشرين مرة ؟ !) . واستطرد الصوت الحزين يقول : « ها انذا اعود إلى منزلى ، وكنت قد ضللت طريقى بين البرارى والاحراش » ، وبينما كان يقول ذلك تبينت وجه طفلة صغيرة ، غير واضح المعالم تماما ، يطل على من خلال النافذة .. فامدنى الفزع المروع بقوة رهيبة ، فإننى عندما وجدت محاولاتى لدفع هذا المخلوق الفظيع بعيدا ، غير مجدية . جذبت معصمه نحو حافة الزجاج المحطم ورحت احكه ذهابا وجيئة حتى انبثق الدم منه وتدفق على الفراش .. وكان ما يزال ينوح : « دعنى ادخل » ، وهو يتشبث

بقبضته الباردة على أصابعى ، فكاد الفزع يؤدى بى إلى الجنون ، واخيرا قلت : « وكيف استطيع ؟.. حل عنى اولا إذا شئت ان ادعك تدخل ! » .. وعندئذ تراخت الأصابع النحيلة . فأسرعت بسحب يدى إلى الداخل خلال الثغرة ، واخذت اكوم الكتب فى صف هرمى امامها ، ثم سددت اذنى لأحول دون بلوغ هذه التوسلات الأليمة إلى مسامعى .. وخيل إلى اننى مكثت اسدهما زهاء ربع ساعة ، ومع ذلك ففى اللحظة التى رحت اصغى فيها ثانية ، عادت صيحات الأنين الأليمة تتردد من جديد ، فصحت قائلا : « اذهبى لحالك ، فلن ادعك تدخلين قط ، ولو ظللت تتوسلين عشرين عاما ! » .. فقال الصوت الحزين : « انها عشرون عاما ! .. عشرون عاما ! .. لقد لبثت ضالة شريدة عشرين عاما !.. » وفى الوقت نفسه بدأت اسمع صرير احتكاك خافت فى الخارج، واخذت كومة الكتب تترنح كأن يدا تدفعها .. فحاولت ان اقفز من الفراش ، لكننى عجزت عن تحريك جارحة فى جسدى ، فأطلقت صيحة مدوية ، وقد غمرنى فزع جنونى .. وسرعان ما تبينت ، فى خزى وارتباك ، اننى انما ارسلت صيحة حقيقية ، ليست من تصوير الخيال فى الحلم ، إذ سمعت وقع اقدام مسرعة تقترب من باب الحجرة ، وإذا بشخص يدفع الباب بيد قوية فيفتحه ، بينما اخذ بصيص خافت من الضوء يلوح خلال الفتحات المربعة بأعلى الخزانة . وجلست فى الفراش ، والرعدة ما تزال تسرى فى بدنى ، أجفف العرق المتصبب من جبينى .. وبدا التردد على الداخل ، وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة كأنما يحدث نفسه ، حتى قال

اخيرا فيما يشبه الهمس ، وفى لهجة من لا يتوقع ان يسمع جوابا : « هل من احد هنا ؟ » وقدرت ان من الخير ان اعترف بوجودى ، لأننى تبينت صوت هيثكليف ولهجته ، وخشيت ان يمضى فى تفتيش الحجرة لو لبثت صامتا .. وإذ استقر عزمى على ذلك ، استدرت وفتحت باب الخزانة المنزلق ..

ولن انسى ما حييت ما احدثته هذه الحركة من اثر !

وكان هيثكليف يقف بالقرب من المدخل ، يرتدى قميصه وسراويله ، ويحمل فى يده شمعة تتساقط قطراتها الذائبة على اصابعه ، وقد شحب وجهه حتى غدا فى لون الجدار الأبيض القائم خلفه ! .. وما ان انبعث صرير الخشب وانا افتح الباب ، حتى اجفل مرتاعا كأنما اصابته صدمة كهربائية، وطارت الشمعة من يده إلى مسافة بضعة اقدام ، فبلغ من شدة اضطرابه انه لم يستطع التقاطها إلا بصعوبة بالغة ..

وودت ان اجنبه هوان الظهور بمظهر الجبان الرعديد بعد ذلك ، فهتفت قائلا : « انه ليس إلا ضيفك ياسيدى ! .. ومن سوء الحظ اننى صرخت اثناء نومى بسبب كابوس مخيف اصابنى .. وانى آسف اذا كنت قد ازعجتك ! »

فوضع مضيفى الشمعة على احد المقاعد ، بعد ان تبين استحالة حملها فى يده ثابتة ، وبدأ يقول : « يا إلهى ! .. اخزاك الله يامستر لوكوود ! .. الا ليتك كنت فى .. »

وكان يغرس اظافره فى راحتيه ، ويشدد الضغط على اسنانه ليخفى رعدة فكيه ، وهو يستطرد قائلا :

– ومن الذى ارشدك إلى هذه الحجرة ؟ .. من هو ؟ ..

فقد استقر عزمى على طرده من البيت فى التو واللحظة !

فقفزت من الفراش إلى الأرض ، ورحت اجمع ثيابى فى عجلة واهم بارتدائها ، قائلا :

– إنها خادمتك زيللا .. ولن ابالى إذا طردتها يا مستر هيثكليف ، فإنها تستحق ذلك عن جدارة ! .. واحسبها ارادت الحصول على دليل جديد ـ على حسابى ـ بأن المكان تسكنه الأرواح الشريرة .. حسنا ! .. انه يموج بالاشباح والعفاريت فعلا ! .. وقد احسنت صنعا باغلاقك هذه الحجرة ومنعك احدا من دخولها ، لإن احدا لن يحمد لك ان تاخذه سنة من النوم فى وكر الشياطين هذا !

فقال هيثكليف : « ما الذى تعنيه ؟ .. وما هذا الذى تفعله ؟ .. الا عد إلى فراشك وانم ليلتك مادمت هنا .. ولكن بحق السماء لا تكرر هذه الضجة الفظيعة ، فما من شىء يمكن أن يبررها إلا ان يكون هناك من حاول ذبحك ! »

– لو ان تلك الشيطانة الصغيرة استطاعت الدخول من النافذة لخنقتنى على الأرجح ! .. ولكن ليس فى نيتى ان احتمل المزيد من قسوة اسلافك الكرام الميامين مرة اخرى . الم يكن المحترم جابس براندرهام من اخوالك ؟ .. وتلك الشيطانة الصغيرة ، « كاثرين لينتون » ـ او « ايرنشو » ؛ او كيفما كان اسمها ـ لا ريب انها كانت ذات روح خبيثة متقلبة . لقد اخبرتنى انها ظلت تذرع الأرض طوال هذه

الأعوام العشرين ، ولعمرى إنه لجزاء حق على خطاياها المهينة، ما فى ذلك شك او ريب !

وما كدت انطلق بهذه الكلمات حتى ذكرت اقتران اسم هيثكليف باسم كاثرين فى الكتاب الذى كان قد تسرب من ذاكرتى حتى عاد إليها ثانية على هذا النحو .. واحسست بالخجل والخزى لقلة تبصرى ، ولكنى ، دون أن اظهر شيئا من الشعور بجرمى ، اسرعت اتابع القول : « الحقيقة ياسيدى هى اننى قضيت الشطر الأول من الليل فى .. »

وعند هذا الحد توقفت ثانية ، فقد كنت على وشك أن اقول : « فى تصفح هذه الكتب القديمة » ، وبذلك كنت افشى علمى بمحتوياتها من الكتابة المطبوعة والمخطوطة .. فتراجعت ومضيت اقول : « .. فى هجاء الإسم المنقوش على حافة النافذة ، مرة بعد مرة ، وهى كما ترى مهمة رتيبة قصدت منها جلب النوم إلى جفونى ، كعد الأرقام او .. »

.. وإذا بهيثكليف يقاطعنى فى صوت كقصف الرعد ، وقد تملكته سورة غضب ضارية : « ماذا يمكن أن يكون قصدك من مخاطبتى على هذا النحو ؟ .. كيف ؟ .. كيف تبلغ بك الجراة إلى هذا الحد ، وتحت سقف بيتى ؟ .. يا الهى ! .. لابد انه مجنون إذ يقول ذلك ! »

وراح يقرع جبهته فى غضب مروع .. اما انا فقد حرت بين استنكار لهجته ، او متابعة تفسيرى لما حدث .. ولكنه كان يبدو من شدة التأثر وعمقه ، بحيث اشفقت عليه

واستطردت فى الحديث عن احلامى ، مؤكدا اننى لم اسمع قط باسم « كاثرين لينتون » من قبل ، ولكن إدمانى قراءته مرة بعد مرة طبع فى ذهنى اثرا لم يلبث ان تجسد على هيئة شخص عند ما لم تعد لى اية سيطرة على خيالى ..

وكان هيثكليف ، اثناء حديثى ، يتقهقر خطوة بعد اخرى إلى ما وراء الفراش ، ما لبث اخيرا ان جلس على الارض حتى كاد الفراش يحجبه عن انظارى .. وادركت من انفاسه اللاهثة المتقطعة انه يناضل نضالا شاقا فى سبيل التغلب على تأثره العنيف المفرط ، وإذ كنت لا احب ان اظهر له اننى قد لحظت نضاله هذا ، فقد رحت اتابع ارتداء ملابسى ، محدثا جلبة مقصودة ، ثم نظرت فى ساعتى ، وناجيت نفسى عن طول الليل ، قائلا :

– ماذا ؟ .. الساعة لم تبلغ الثالثة بعد ؟ .. لقد كدت اقسم انها تجاوزت السادسة ! .. إن الوقت فى ركود هنا ، ولا بد اننا اوينا إلى فراشنا حقا فى الثامنة !

فاجابنى مضيفى ، وهو يكتم انينه ، ويكفكف عبرة ترقرقت فى عينيه ، كما وضح لى من حركة ذراعه التى رايت ظلها على الجدار : « بل دائما ناوى إلى الفراش شتاء فى التاسعة ، ونستيقظ فى الرابعة » .

ثم اضاف بعد لحظة : « يمكنك ان تذهب إلى حجرتى يامستر لوكوود .. فنزولك الآن فى هذا الوقت المبكر سوف يحدث ارتباكا فى المنزل ، كما ان صرختك الصبيانية قد ذهبت بالنوم من عينى إلى الشيطان ! »

– ومن عينى ايضا .. ولكن سوف اتمشى فى الفناء حتى يطلع النهار ثم انصرف لشأنى .. ولا حاجة بك لان تخشى تكرار تطفلى عليك بالزيارة ، فقد شفيت تماما الآن من داء نشدان المتعة بصحبة الناس ، سواء فى الريف او المدن .. فالعاقل إنما ينبغى له ان يجد فى نفسه صحبة كافية !

فغمغم هيثكليف : « انها صحبة ممتعة ! .. والآن ، خذ الشمعة واذهب حيثما تشاء ، سوف الحق بك بعد قليل .. ولكن عليك ان تتجنب الفناء لان الكلاب مطلقة السراح فيه ، وحجرة الجلوس لأن (جونو) تقوم بالحراسة هناك .. ويمكنك ان تقصر طوافك بين السلالم والممرات .. ولكن اذهب عنى الآن ، وسوف انزل بعد دقيقتين .. » .

فاطعته ، لمجرد رغبتى فى مغادرة هذه الحجرة .. ولكنى إذ وقفت حائرا لا ادرى إلى اين تقودنى تلك الممرات الضيقة، شهدت – برغم انفى – منظرا اشبه بتمثيلية عن الخرافات والخزعبلات يقوم بها مضيفى ، ويناقض – على نحو عجيب – ما يبدو عليه من عقل واتزان .. فقد مضى نحو الفراش ، وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيها ، وهو ينفجر فى نوبة من النشيج والبكاء المتصل ، كانما افلت منه زمام سيطرته على مشاعره ، ويقول فى عويل : « ادخلى ! .. ادخلى ! .. تعالى ياكاثى .. آه ! . تعالى مرة اخرى ! . اواه ! .. يا حبيبة القلب .. اصغى إلى هذه المرة يا كاثرين اخيرا ! » .

وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيهـا ، وهو ينفجر فى نوبة من النشيج والبكاء المتصـل ..

غير ان الشبح اظهر تلك النزوة المألوفة لدى الأشباح ، فلم يبد اية إشارة تنم عن وجوده .. وهكذا الأشباح إذا دعيت لم تلب ! .. ولكن الثلج والرياح كانت قد اقتحمت النافذة وراحت تزمجر فى انحاء الحجرة ، وإذ بلغت مكانى اطفأت لهب شمعتى ..

وكان فى ذلك الفيض من اللوعة والأسى ، الذى صاحب هذيانه ، ما ينم عما يلاقيه من عذاب فظيع ، بحيث اخذتنى الشفقة عليه ورثيت لحاله ، واغضيت عن جنونه ، فبادرت إلى الانسحاب وقد تملكنى الأسف إذ انصت له ، واستبد بى الضيق إذ قصصت عليه ذلك الكابوس المضحك ، بعد أن شهدت ما سببه له من حزن بالغ ، وإن كان سبب ذلك مما يدق على فهمى .. وهبطت الدرج فى حذر إلى الطابق الأسفل ، حتى استقر بى المقام فى المطبخ الخلفى ، واستطعت ان اشعل شمعتى ثانية من لهب نار خافتة كومت جذواتها فى المدفأة .. ولم يكن فى المكان حس او حركة إلا قطة رمادية اللون مخططة الفراء ، نهضت فى تراخ من مجثمها بجوار المدفأة ، وحيتنى بمواء يفيض بالتذمر والسخط !

وكان امام الموقد دكتان خشبيتان ، على شكل قوسين ، يكادان يحيطان به ، فاستلقيت على احداهما ، بينما ارتقت القطة (جريمالكين) الدكة الاخرى .. وكنا كلانا نهوم من النعاس قبل أن يغزو احد مكان خلوتنا هذه ، ثم إذا بجوزيف يهبط علينا فوق سلم خشبى كان يختفى فى السقف خلال باب مسحور ، احسب انه يؤدى إلى مخزنه العلوى ، فالقى

نظرة منكرة على اللهب الضئيل الذى كان يتراقص بين قضبان الموقد بعد أن حركت جذوات الفحم ، ثم أزاح القطة عن مرقدها المرتفع بحركة من يده ، واحتل مكانها ، وبدأ يحشو بالطباق غليونه القصير ، الذى لا يعدو الثلاث بوصات طولا . . وكان من الواضح أن وجودى فى خلوته المقدسة كان يعد ضربا من القحة المخجلة التى تجاوزت الحد بحيث لا يجدى معها احتجاج أو اعتراض . . ومن ثم فقد وضع أنبوبة الغليون بين شفتيه دون أن ينطق بكلمة ، وشبك ذراعيه فوق صدره . وراح ينفث الدخان فى قوة . . فتركته يستمتع بلذته دون أن أعكر عليه صفوه ، حتى إذا ما فرغ من امتصاص آخر حلقات الدخان ، وأطلق من صدره تنهدة عميقة ، نهض من مجلسه وغادر المكان فى رصانة ووقار مثلما جاء . .

وما لبثت أن ولجت المطبخ خطوات أخرى أكثر خفة ومرونة ، ففتحت فمى لأقول : « صباح الخير » ، ولكنى أطبقته ثانية دون أن أنطق بهذه التحية ، فقد كان هيرتون أيرنشو يتمتم «بصلواته» فى غمغمة خافتة ، وفى سلسلة من اللعنات يوجهها لكل شىء يلمسه ، بينما كان ينقب فى أحد الأركان عن معول أو مجرفة ليزيح بهما الجليد أو ليشق طريقا خلاله ، بعد أن ألقى على الأريكة نظرة خاطفة ، وهو يبسط منخريه ، دون أن يفكر فى تبادل التحية معى أو مع القطة ! . . وحدست ، من هذه الاستعدادات التى يقوم بها ، أن الخروج أصبح مباحا ، فتركت مقعدى الصلب ، وهممت بأن أتبعه إلى الخارج . . ولكنه لحظ حركتى هذه ، فأشار بطرف

معوله نحو باب داخلى ، مبينا لى فى تمتمة غير مفهومة أن ذلك هو المكان الذى ينبغى أن أذهب إليه إن أردت تغيير موضعى .

وجدت الباب يؤدى إلى حجرة الجلوس ـ أو «البيت» كما يسمونها ـ حيث كانت نساء الدار قد استيقظن فعلا وانصرفن إلى شئونهن . . كانت « زيللا » تستحث الشرر المتطاير من لهب الموقد على دخول المدخنة ، بواسطة منفاخ كبير الحجم ، بينما ركعت مسز هيثكليف بجوار المدفأة ، وهى تقرأ فى كتاب على وهج النار ، وترفع يدها أمام عينيها لتتقى حرارة الموقد . وكانت تبدو مستغرقة فى القراءة ، لا تنقطع عنها إلا لتؤنب الخادمة عندما يتطاير الشرر ناحيتها ، أو لتدفع عنها ، بين آن وآخر ، أحد الكلاب الذى كان يمد أنفه إلى الأمام ليتشمم وجهها . ودهشت إذ رأيت هيثكليف أيضا هناك . كان يقف بجوار النار ، وظهره إلى ناحيتى ، وهو يختتم مشهدا عاصفا مع « زيللا » المسكينة التى كانت بين الحين والآخر تتوقف عن عملها لترفع طرف مريلتها وتكتم بها أنينا مؤلما . .

وفى اللحظة التى ولجت فيها باب القاعة كان يتحول نحو زوجة ابنه ، وينفجر صائحا فيها ، مستخدما صفة لا يمكن إثباتها كتابة :

ـ وأنت . . أنت أيتها الـ . . الحقيرة ! . . ها أنت ذى تعودين إلى كسلك وخمولك ثانية . . إن الباقين يخدموننى نظير لقمتهم ، أما أنت فتعيشين على صدقتى وإحسانى ! . . دعى هذه النفايات التى فى يدك ، وابحثى عن عمل تؤدينه . . سوف

تدفعين لى غاليا ثمن ابتلائى بوباء وجودك امام ناظرى دائما .. هل تسمعين ايتها الفاجرة اللعينة ؟

فاطبقت السيدة الشابة كتابها ورمت به فوق احد المقاعد ، وقالت :

ـ سوف ادع النفايات التى فى يدى ، لان فى وسعك ان ترغمنى على ذلك لو رفضت .. ولكنى لن اعمل شيئا ، مهما اطلقت لسانك بالسباب والشتائم ، إلا مايروق لى ان افعله !

فرفع هيثكليف يده ، بينما وثبت السيدة إلى مسافة تامن فيها تلك اليد التى يبدو من الواضح انها ذاقت وطأتها من قبل .. وإذ كنت لا احب ان استقبل بمشهد عراك كالذى ينشب بين القطط والكلاب ، فقد تقدمت إلى الامام بغتة ، كاننى متلهف إلى مشاركتهم دفء النار ، وكاننى خالى الذهن عن اى شىء من هذا الشجار الذى قطعته عليهم . والحق ان كلا منهما كان من الكياسة بحيث ارجا إظهار المزيد من هذه الخصومة ، ووضع هيثكليف قبضتيه فى جيوبه ، ليكون بمنجاة عن الإغراء باستخدامهما ، اما مسز هيثكليف فقد زوت شفتها ، ومشت إلى مقعد بعيد حيث وفت بوعدها الا تفعل شيئا بأن جلست ساكنة كالتمثال خلال بقية الفترة التى مكثتها بينهم . ولم تكن فترة طويلة ، فقد رفضت مشاركتهم فى طعام الإفطار وانتهزت فرصة بزوغ اول شعاع من الفجر للفرار إلى الهواء الطلق الذى وجدته وقتئذ صافيا ، ساكنا ، شديد البرودة كالثلج ..

وهتف بى مضيفى يستوقفنى قبل ان ابلغ نهاية الحديقة ، ثم عرض على ان يرافقنى خلال البرارى والمستنقعات .. وحسنا فعل ! .. فإن سفح التل من الناحية الاخرى كان اشبه ببحر عجاج من الجليد الابيض .. وكانت النتوءات والفجوات لاتكشف عما يقابلها من مرتفعات او منخفضات فى الارض .. اما الكثير من الحفر فقد امتلأت إلى حافتها ، على حين اختفت سلاسل باكملها من الاكمات والروابى ـ مما تلفظه المحاجر ـ من الصورة التى ارتسمت فى ذهنى اثناء مسيرى بالامس . وكنت قد لاحظت على جانب من الطريق صفا من الحجارة القائمة ، تفصل بين الواحد والآخر ست ياردات او سبع ، يمتد على طول البرارى القفرة ، وقد اقيمت تلك الحجارة وطليت بالجير لتكون مرشدا للمارة فى الظلام ، او عندما ينهمر الثلج كما حدث بالامس فيطمس معالم المستنقعات العميقة على كلا الجانبين فلاتبين من الطريق الصلدة .. ولكن ، فيما عدا نتوء قذر يبدو للاعين هنا وهناك ، فقد اكتفت قوائم الحجارة حتى لكأنها تلاشت من الوجود !

وكان رفيقى كثيرا ما يجد من الضرورى أن يحذرنى ويطلب منى ان احول إلى اليمين او إلى اليسار ، بينما كان يخيل إلى اننى اتبع المنعرجات الصحيحة للطريق . ولم نتبادل إلا القليل من الحديث حتى توقف عند مدخل حديقة (ثراشكروس) ، قائلا إننى لن اكون عرضة للخطا بعد ذلك .. وكان وداعنا قاصرا على انحناءة سريعة ، بما لبثنا ان افترقنا بعدها . وتابعت مسيرى معتمدا على معلوماتى

الشخصية ، إذ كان كوخ الحارس مهجورا لم يجد من يسكنه بعد . وكانت المسافة من البوابة حتى « الجرانج » لا تعدو ميلين ، ولكنى اعتقد اننى جعلتها اربعة اميال بما حدث لى من التيه بين الاشجار ومن الغوص حتى رقبتى فى حفائر الثلج ! — وهى حالة لا يقدرها إلا اولئك الذين خبروها فعلا ! — ومهما يكن من امر ، وكيفما كان تجوالى فى الحدائق ، فقد كانت الساعة تدق الثانية عشرة عندما كنت الج باب المنزل ، ومعنى ذلك اننى قطعت فى كل ساعة ميلا واحدا من المسافة العادية بين منزلى ومرتفعات ويذرنج ..

واندفعت مدبرة منزلى وتوابعها لتحيتنى وهن يهتفن فى ضجة عالية انهن قد قطعن الأمل نهائيا فى عودتى سليما . كان كل إنسان يظننى قد هلكت فى الليلة الماضية ، وكانوا فى حيرة من طريقة البحث عن جثمانى ! .. فطلبت إلى الجميع ان يركنوا إلى الهدوء والسكون بعد ان راونى ارجع سالما ، ثم مضيت اجر قدمى المتثاقلتين إلى الطابق العلوى ، وقد سرت البرودة فى جسدى حتى شغاف قلبى ؛ فاصابته بالخدر .. وبعد ان استبدلت بملابسى ثيابا جافة ، ورحت اذرع الأرض ذهابا وجيئة نحو ثلاثين او اربعين دقيقة استجلابا للدفء ، مضيت إلى حجرة المكتب خائر القوى كأننى قطيطة صغيرة .. بل لقد كنت من الضعف والخور بحيث لم اشعر بمتعة النار المتأججة فى الموقد ، ولا بالقهوة الساخنة ، التى ينبعث البخار منها ، والتى اعدتها لى الخادم لاستعيد بها قواى الضائعة ..

***

الفصل الرابع

الا ما اعجب تقلباتنا مع الاهواء ، كأننا ديك « دوارة الريح » المختال ! .. فانا .. انا الذى كنت عاقدا العزم على الاحتفاظ بنفسى بمناى عن اية صلة اجتماعية ، والذى حمدت حسن طالعى إذ هدانى إلى النزول ببقعة تكاد مثل هذه الصلة فيها ان تكون مستحيلة عمليا .. انا ، ذلك التعس الضعيف الارادة ، قد اضطررت فى النهاية إلى الاستسلام والقاء السلاح ، بعد ان ظللت حتى الغسق اصارع الوحدة والسأم ، فاتخذت من الرغبة فى الاستفسار عن بعض الشئون الخاصة باحتياجات المنزل ، ذريعة لارغب إلى « مسز دين » — عندما احضرت لى العشاء — بان تجلس معى ، ريثما اتناول طعامى ، راجيا فى قرارة نفسى ان تكون ثرثارة عريقة ، فإما ان ينشطنى حديثها او يسلمنى إلى النعاس ..

بدأت اقول لها :

— لقد عشت هنا زمنا طويلا .. الم تقولى انك فى خدمة السيد منذ ستة عشر عاما ؟

— بل ثمانية عشر ياسيدى .. فقد حضرت عندما تزوجت سيدتى ، لاقوم على خدمتها ورعاية شئونها .. وعندما قضت نحبها ، احتفظ بى السيد لاكون مدبرة منزله ..

فغمغمت قائلا « ذلك حق .. »

وتلت ذلك فترة من الصمت — حتى لقد خشيت الا تكون

ثرثارة كما رجوت ـ فيما عدا الحديث عن شئونها الخاصة التى لا تكاد تهمنى فى كثير او قليل .. ومهما يكن من أمر فانها بعد ان اخلدت إلى التفكير برهة ، وقد وضعت قبضتيها على ركبتيها ، وخيمت على محياها المتورد سحابة من التأمل وإمعان الفكر ، انبعثت تقول :

ـ آه ! .. شد ما تبدلت الاحوال منذ ذلك الحين !

ـ نعم .. واحسبك شهدت الكثير من التغيرات ؟

ـ اجل .. ومن المتاعب كذلك ..

فقلت لنفسى : « اه ! .. سوف انحو بالحديث ناحية مالك الدار واسرته ، فهو خير موضوع نبدأ به .. ثم اننى اود ان اعرف تاريخ تلك الفتاة الارملة الحسناء ، وهل هى من اهل الإقليم ام انها ، كما هو الأرجح ، غريبة عنه ، حتى ان ذلك « الوطنى » العبوس لا يعترف بقرابتها له .. »

وإذ عزمت على ذلك ، سألت مسز دين لماذا اجر هيثكليف (ثراشكروس جرانج) ، مفضلا ان يعيش فى مركز ومسكن يقلان عنه شأنا ؟! .. وختمت السؤال بقولى :

ـ ام انه ليس من الثراء بحيث يستطيع الاحتفاظ بالقصر فى مستوى رفيع ؟

فقالت :

ـ الثراء ياسيدى ؟ .. ان احدا لا يعرف كم لديه من المال الذى يزداد سنة بعد اخرى !.. نعم .. نعم .. أنه من الثراء بما يكفيه للإقامة فى دار خير من هذه بكثير ، ولكنه

شحيح بخيل ، ويده مغلولة إلى عنقه .. ولو فكر مرة فى ان ينقل عشه إلى الجرانج ، فإنه ما ان يسمع عن مستأجر طيب حتى لا يطيق ان تفوته فرصة إقتناء بضع مئات اخرى .. وإنى لاعجب كيف يستبد الجشع بالناس إلى هذا الحد عندما يكونون وحيدين فى هذه الدنيا !

ـ يبدو انه كان له ولد ؟

ـ نعم ، كان له ولد ومات ..

ـ وهذه السيدة الشابة ، مسز هيثكليف ، اهى ارملة ذلك الابن ؟

ـ نعم ..

ـ من اين ترينها قدمت اصلا ؟

ـ لماذا يا سيدى ؟ .. انها ابنة سيدى السابق ، رحمه الله .. وكان اسمها وهى عذراء « كاترين لينتون » . إننى انا التى غذوتها وربيتها ، تلك الصغيرة المسكينة .. كم اود لو ينتقل مستر هيثكليف إلى هنا ، حتى يجتمع شملنا ثانية.

فهتفت فى دهشة : « ماذا ؟ .. كاترين لينتون ؟ »

ولكنى ماكدت افكر لحظة حتى ادركت انها لا يمكن ان تكون « كاترين ذات الشبح » التى ظهرت لى .. فاردفت قائلا :

ـ إذن فإن شاغل هذه الدار قبلى كان اسمه لينتون ؟

ـ لقد كان كذلك ..

ـ ومن هو ايرنشو .. هيرتون ايرنشو الذى يعيش مع مستر هيثكليف ؟ هل هما قريبان ؟

ـ كلا ، فهو ابن اخ مسز لينتون الراحلة ، والدة «كاثرين» ..

ـ هو ابن خال السيدة الشابة إذن ؟

ـ نعم .. كما كان زوجها ابن عمتها .. فقد تزوج هيثكليف شقيقة مستر لينتون ..

ـ لقد رايت اسم «ايرنشو» منقوشا فوق الباب الامامى لمرتفعات ويذرنج ، فهل هى اسرة قديمة ؟

ـ وعريقة جدا ياسيدى .. وهيرتون هو آخر سلالتها كما ان عزيزتنا « مس كاثى » ـ « كاثرين » ـ آخر سلالة اسرة لينتون .. ولكن هل ذهبت إلى مرتفعات ويذرنج ياسيدى ؟ .. إننى اسالك المغفرة لتطفلى ، ولكنى وددت ان اعرف كيف حالها !

ـ مسز هيثكليف ؟ .. إنها تبدو فى خير صحة ، كما انها رائعة الحسن .. ومع ذلك فإنى احسبها غير سعيدة تماما !

ـ آه ! .. لهف قلبى عليها ! .. ان ذلك لا يدهشنى .. ولكن كيف كان مبلغ ارتياحك إلى السيد ؟

ـ انه شخص أدنى إلى الغلظة والخشونة يا مسز دين .. اليس هذا خلقه ؟

ـ إنه خشن كحد المنشار ، وصلب كالصخر الصلد .. وكلما اقللت من التداخل معه كلما كان ذلك خيرا لك واجدى ..

ـ لابد ان تكون الحياة قد تداولته بين سرائها وضرائها حتى غدا بهذه الغلظة والفظاظة .. هل تعرفين شيئا عن تاريخ حياته ؟

ـ إنها كحياة الطائر الفضولى ياسيدى ! .. وإنى اعرف كل شىء عنه ما خلا اين ولد ، ومن كان ابواه ، وكيف حصل على المال بادىء ذى بدء .. اما هيرتون فقد خرج صفر اليدين كالعصفور الذى نتف ريشه ! .. ان الفتى المنكود هو الوحيد، فى هذه المنطقة كلها ، الذى لا يعرف كيف كان ضحية الغش والخداع !

ـ حسنا يامسز دين .. انك تسدين إلى معروفا لو حدثتنى بطرف من انباء جيرانى ، فإنى اشعر باننى لن انال الراحة التى انشدها لو اويت الآن إلى الفراش . لذلك ارجو ان تجلسى معى ساعة فنتحدث معا ..

ـ آه ! . بالتاكيد ياسيدى ! .. سوف احضر معدات الحياكة ثم اجلس معك ما طاب لك ان تستبقينى .. ولكنك اصبت ببرد ، فقد رايتك ترتعش ، ولابد لك من عصيدة ساخنة لتخرج البرد من بدنك !

وهرولت المراة الطيبة خارجة من الحجرة ، فاقتربت بمقعدى من النار ، وقد احسست براسى ينبض بالحرارة المرتفعة ، على حين كانت القشعريرة لا تكف عن جسدى لحظة .. وفضلا عن ذلك ، كنت شديد الانفعال ، إلى درجة السخف ، وقد ازداد التوتر فى اعصابى وفكرى .. وقد سبب لى ذلك ان شعرت ، لا بالتعب والإعياء ، بل بالخوف (وما يزال ذلك شانى حتى الآن) من العواقب الخطيرة التى سوف تنجم عن احداث اليوم والأمس .. وما لبثت مسز دين ان رجعت بعد قليل ، تحمل إناء ينبعث منه البخار ، وسبتا

لادوات الحياكة ، فوضعت الأول على الرف المجاور للمدفأة ، ثم قربت مقعدها ، وقد بدت عليها الغبطة بان وجدتنى محبا للرفقة والعشرة !

وبدأت تقول ، دون ان تنتظر دعوة جديدة للحديث :

« قبل ان احضر لأقيم هنا ، كنت اقيم بصفة دائمة فى مرتفعات ويذرنج ، إذ كانت امى مربية مستر « هندلى ايرنشو » ، وهو والد « هيرتون » ، واعتدت ان امضى الوقت فى اللعب مع الأطفال ، كما كنت اقوم بقضاء بعض الحاجات ايضا ، واساعد فى تذرية (الدريس) ، واحوم حول المزرعة متأهبة لأداء ما يمكن ان يكلفنى به اى شخص هناك ..

« وفى صباح يوم من ايام الصيف الجميلة – واذكر ان ذلك كان فى بداية موسم الحصاد – نزل مستر ايرنشو الكبير ، جد هيرتون ، مرتديا ثياب السفر ، وبعد ان القى إلى جوزيف بأوامره عما ينبغى عمله خلال ذلك اليوم ، تحول نحو هندلى وكاثى(١) ، ونحوى – إذ كنت اجلس معهما واشاركهما طعام الإفطار – وقال مخاطبا ولده : « والآن ايها الرجل الصغير ، إننى راحل إلى ليفربول اليوم ، فما الذى تريد ان احضره لك معى ؟ فى وسعك ان تختار ما تريد ، ولكن ليكن شيئا صغير الحجم لأننى ساذهب واعود سيرا على الأقدام ، والمسافة

(١) كاثى او كاترين « ايرنشو شقيقة هندلى ، هى غير كاثى او كاترين « لينتون » التى سبق الحديث عنها ، (وستظهر صلة القرابة بينهما فيما بعد) .

ستون ميلا ذهابا ومثلها فى الإياب ، وهى كما ترى شقة طويلة ! » .. فطلب هندلى كمنجة ، وعندئذ تحول نحو مس كاثى ، ولم تكن وقتئذ قد جاوزت السادسة من العمر وإن كان فى استطاعتها ان تمتطى صهوة اى جواد فى الحظيرة ، فاختارت ان تكون هديتها سوطا .. ولم ينسنى ، فقد كان طيب القلب عطوفا ولو انه كان يعمد إلى القسوة والصرامة احيانا ، فوعدنى بأن يحضر لى ملء جيبه من التفاح والكمثرى .. وبعدئذ قبل طفليه ، وودعنا جميعا ، ثم انطلق فى رحلته ..

وقد بدت ايام غيابه الثلاثة دهرا طويلا لنا جميعا ، وكانت كاثى الصغيرة لا تفتأ تسأل عن موعد عودته .. وكانت مسز ايرنشو تتوقع حضوره فى موعد العشاء من مساء اليوم الثالث ، فراحت تؤجل تناول الطعام ساعة بعد اخرى ، دون ان يظهر ما يدل على مقدمه .. واخيرا ادرك الطفلين الإعياء من كثرة ما ذهبا إلى البوابة ليطلا على الطريق .. ثم اطبق الظلام واحتلك الليل وأرادت امهما أن تضعهما فى الفراش ولكنهما توسلا إليها فى انى ان تدعهما ينتظران والدهما .. واخيرا ، فى الساعة الحادية عشرة تماما ، إذا بمزلاج الباب (السقاطة) يرفع فى هدوء ، وإذا بالسيد يدخل فيلقى بنفسه على احد المقاعد ، وهو يضحك ويتأوه فى وقت معا ، ويأمر الجميع بان يبتعدوا عنه ، لأنه يكاد يقع صريعا من التعب ، ثم يقسم بأنه لن يمشى مثل هذه المسافة مرة اخرى ولو اوتى تيجان الممالك الثلاث ..

وأردف قائلا : « ولقد كنت فى نهايتها أجرى حتى كدت أهلك . . . »

وتمهل لحظة ثم فتح معطفه الفضفاض الذى كان يضم طرفيه بين ذراعيه ، واستطرد يقول :

– انظرى هنا يا زوجتى ! . . إننى لم أغلب على أمرى من شىء فى حياتى كهذه المرة . . ولكن يجب أن تنظر إليه كهبة من الله ، وإن كان لونه القاتم يجعله أشبه بعطية من الشيطان ! . .

وتزاحمنا جميعا حوله ، أما أنا فقد تلصصت من فوق رأس مس كاثى لأرى غلاما قذرا أسود الشعر يرتدى أسمالا مهلهلة، وفى سن تسمح له بالمشى والكلام ، بل الواقع أن وجهه كان يبدو أكبر سنا من مس كاثى ، ومع ذلك فعندما وقف على قدميه ، راح يحملق بأنظاره حواليه وينطلق فى رطانة لم يستطع أحدنا أن يفهم شيئا منها . . وقد تملكنى الذعر . بينما كادت مسز ايرنشو تطوح به خارج الباب ، وهى تثور فى وجه زوجها لتسأله كيف استساغ أن يجلب إلى المنزل هذا الجرو الغجرى ، على حين أن لهما طفلين يقومان بإطعامهما والعناية بهما ؟ . . ثم ما الذى ينوى أن يفعله بهذا «الشىء» ؟ وهل أصابه الجنون حتى يحضره ؟ . . وقد حاول السيد أن يشرح لها الأمر ، لكنه كان شديد الإعياء حقا ، يكاد التعب يورده حتفه ، وكل الذى استطعت أن أتبينه ، خلال صياحها وتعنيفها له ، ماذكره عن رؤيته لهذا « الشىء » فى شوارع ليفربول شريدا يكاد يهلك جوعا ، وهو كالأبكم لا يستطيع أن

يرشده إلى داره أو أهله ، فحمله وراح يسأل عن أهله ، ولكن أحدا فى المدينة لم يعرف من أين أتى ، ومن صاحبه . . وإذ كان وقته ونقوده محدودين ، فقد فضل أن يعود به إلى داره بدلا من البقاء وإنفاق المزيد من النقود فى غير طائل هناك ، لأنه كان قد قرر ألا يتركه حيث وجده . . وحسنا ! . لقد كان ختام هذا المشهد أن هدأت سيدتى وسكنت حدة غضبها وتذمرها ، وأن طلب إلى مستر ايرنشو أن آخذ الغلام فأغسل بدنه وألبسه ثيابا نظيفة ، وأدعه ينام مع الطفلين . .

وكان هندلى وكاثى قد اكتفيا بالنظر والإصغاء ، حتى عاد السلام بين الزوجين ، وعندئذ بدأ كلاهما يفتشان جيوب أبيهما بحثا عن الهدايا التى وعدهما بها . . وكان هندلى صبيا فى الرابعة عشرة ، ولكنه عندما أخرج من المعطف العظيم ذلك الشىء الذى كان يدعى « كمنجة » قبل أن يصبح حطاما ، أجهش بالبكاء فى صوت عال . . أما كاثى فعندما علمت أن السيد قد فقد سوطها أثناء عنايته بالغلام الغريب ، فقد عبرت عن شعورها بأن ابتسمت ، ثم بصقت على الغلام الصغير ، فاستحقت أن تنال ، جزاء ما تجشمت من عناد ، لطمة عنيفة من والدها ، لتتعلم كيف يكون مسلكها أكثر رقة وأدبا فى المستقبل ! . . وقد أصر الطفلان على رفض السماح للقيط بالنوم معهما فى الفراش ، أو حتى فى حجرتهما . . ولم أكن أكثر منهما سماحة ، فوضعت الطفل على (بسطة) السلم ، مؤملة أن أجده فى الصباح وقد اختفى من الدار . . وشاءت الصدفة ، أو لعل صوت مستر ايرنشو قد اجتذبه ،

فإذا به يزحف حتى باب حجرة السيد ، فوجده راقدا أمام الباب عندما غادر حجرته فى الصباح ... وقام السيد بالتحقيق فى كيفية وجوده هناك ، فاضطررت إلى الاعتراف ، وكان جزاء خسفى وقسوتى أن طردت من المنزل ! ..

وكانت هذه بداية العهد بدخول هيثكليف فى نطاق الأسرة ..

فلما عدت ثانية بعد أيام قلائل (إذ أنى لم أعتبر طردى نهائيا) وجدت أنهم قد عمدوه باسم « هيثكليف » ، وهو إسم ابن لمستر إيرنشو مات طفلا ، وأصبح هذا الاسم بمثابة إسم ولقب له منذ ذلك الحين ... كما وجدت أنه ومس كاثى قد أصبحا صديقين حميمين ... أما هندلى فكان يبغضه ، وإذا شئت الحق فإننى كنت أكرهه كذلك ، وهكذا تعاونا معا على إيذائه والإيقاع به على نحو مزر .. لأننى لم أكن من التعقل بحيث أدرك ما أقترفه من ظلم ، كما أن السيدة لم تقف يوما فى صفه ، أو تنطق بكلمة لإنصافه ، عندما كانت تراه موضع الإساءة ...

أما هو فكان طفلا صبورا دائم التجهم ، ولعل سوء المعاملة قد جعله أشد صلابة ، فإنه كان يحتمل لطمات هندلى دون أن يطرف عينا أو يذرف دمعة ، كما أن قرصاتى لم تكن تحرك فيه أكثر من شهقة عميقة وهو يحملق بعينيه كأنه هو الذى أصاب نفسه مصادفة دون أن يكون لأحد ذنب فيما أصابه ! وكان هذا الاحتمال سبب ثورة مستر إيرنشو الكبير عندما

اكتشف اضطهاد ابنه للغلام اليتيم المسكين ، كما كان يدعوه ... وكان قد اشتد تعلقه بهيثكليف إلى حد غريب ، وأصبح يصدق كل ما يقوله (وهو من هذه الناحية لم يكن يقول إلا القليل كما كان يلتزم الصدق عادة) ويدلله أكثر مما يدلل كاثى التى كانت شقية عنيدة لا تستحق التدليل ! ..

وهكذا كان هيثكليف منذ البداية ينمى المشاعر الشريرة فى المنزل ، حتى إذا ما قضت مسز إيرنشو نحبها ، وكان ذلك بعد أقل من عامين من مقدمه ، كان السيد الشاب هندلى قد تعلم أن يعتبر أباه طاغية لا صديقا ، وأن يعد هيثكليف مغتصبا لعواطف أبيه ، ولامتيازاته الخاصة .. وكان يزداد مرارة كلما أمعن التفكير فى هذه الإساءات ، وكنت أماثله وأعطف على مشاعره ... فلما مرض الأطفال بالحصبة ، وكان على أن أرعاهم ، وأن آخذ على عاتقى للتو مسئولية العناية بهم وتمريضهم باعتبارى المرأة الوحيدة بالمنزل ، تغيرت آرائى ... وكان هيثكليف مريضا إلى حد خطير ، وبينما كان يرقد فى أسوأ حالاته كان يود دائما أن أظل بجوار وسادته .. وأحسبه قد شعر بأننى فعلت الكثير من أجله ، ولم يكن من الفطنة بحيث يحدس أننى ما فعلت ذلك إلا مضطرة .. ومهما يكن من أمر ، فلا بد لى من القول بأنه كان أهدأ طفل نهضت بالعناية به ممرضة قط .. وكان الفرق بينه وبين الطفلين الآخرين هو الذى أرغمنى على أن أغدو أقل تحيزا ..

فقد ضايقتنى كاثى وأخوها إلى حد مروع ، بينما كان هو كالحمل لا يشكو ولا يتوجع ، وإن كانت صلابته ــ لا رقته ــ هى التى جعلته أقل إثارة للمتاعب . . .

ونجا هيثكليف من الخطر واجتاز المحنة بسلام ، فأكد الطبيب أن الفضل فى ذلك يرجع لى إلى حد كبير ، وامتدحنى لعنايتى به . . وكنت مخمورا مزهوة بهذا الثناء ، ورقت مشاعرى نحو ذلك المخلوق الذى نلت الثناء بسببه ، وهكذا فقد هندلى آخر حليف له . . . ومع ذلك فإنى لم أكن مشغوفة بهيثكليف ، وكنت كثيرا ما تأخذنى الدهشة مما كان سيدى يراه فى ذلك الغلام العبوس المتجهم حتى يعجب به إلى هذا الحد ، مع أنه لم يبد قط ، فيما أذكر ، أية إشارة تنم عن عرفان الجميل والحمد لقاء هذا الرفق والعطف! . . ولم يكن وقحا أو سفيها مع المحسن إليه ، بل كان فقط مجردا من الشعور والإحساس بإحسانه إليه ، مع أنه كان يعرف تماما المنزلة التى يحتلها فى قلبه ، ويعلم أنه لو أراد شيئا فما عليه إلا أن يتكلم حتى ينحنى المنزل بكل من فيه أمام رغباته . . . وأذكر ــ على سبيل المثال ــ أن مستر إيرنشو اشترى مهرين من سوق الأبرشية ذات مرة ، وأعطى كلا من الغلامين واحدا فأخذ هيثكليف أجمل المهرين ، إلا أنه ما لبث أن أصيب بالعرج . . وما كاد يكتشف ذلك حتى قال لهندلى :

ــ يجب أن تبادلنى مهرك بمهرى ، فلست أحبه . . ولئن لم تفعل فسوف أخبر أباك بضربات العصى الثلاث التى ضربتنيها هذا الأسبوع ، وأريه ذراعى التى ما تزال زرقاء داكنة حتى الكتف . . .

فأخرج له هندلى لسانه ، وصفعه على أذنيه . . فقفز هيثكليف إلى شرفة الحظيرة (بعد أن كانا بداخلها) ولكنه أصر على تنفيذ رغبته ، وقال لهندلى : « خير لك أن تفعل ذلك فى الحال ، قبل أن تفعله برغم أنفك . . . فلو أننى تحدثت عن هذه الضربات ، لردت إليك ثانية ، مع فوائدها ! . . » فصاح به هندلى : « امش من هنا يا كلب . . » وهو يهدده بثقل حديدى يستعمل فى وزن البطاطس والدريس ، ولكن الآخر وقف فى مكانه ساكنا ، واكتفى بأن قال : « اقذفه . . وعندئذ سوف أخبره كيف كنت تتباهى بأنك ستطردنى من الدار بمجرد وفاته ، وسترى إذا لم يطردك أنت توا » . . . فقذفه هندلى بالثقل الحديدى وأصابه فى صدره فسقط على الأرض ، ولكنه ما لبث أن نهض على الفور وهو يترنح ، وقد شحب وجهه وتقطعت أنفاسه . . ولولا أننى منعته لذهب إلى السيد للتو ، ولنال ثأره كاملا ، تاركا حالته تؤيد دعواه ، متهما هندلى بأنه السبب فيما حدث . .

وعندئذ قال إيرنشو الصغير :

ــ خذ مهرى إذن ، أيها النورى ! . . ولكنى أرجو أن يدق عنقك ! . . خذه أيها الفضولى الدنىء ، ولتحل عليك اللعنة !

فقذفه هندلى بالثقل الحديدى وأصابه فى صدره فسقط على الأرض ، لكنه ما لبث أن نهض على الفور ..

.. اذهب نجرد أبى من كل ما يملكه ، بملقك ومداهنتك ، ولكن أره بعد ذلك ما أنت عليه حقا ، يا سليل الأبالسة ! .. خذ هذا المهر ، ولكنى أرجو أن يركلك فيحطم رأسك وينثر مخك !

وكان هيثكليف قد مضى ليفك زمام الدابة ، وينقلها إلى المربط الخاص به .. وكان يمر خلفها عندما ختم هندلى كلامه بركلة قوية وجهها إليه من بين سيقان المهر ، ثم انطلق يعدو هاربا دون أن يتمهل ريثما يطمئن إلى استجابة دعواته .. ولقد استبدت بى الدهشة إذ رأيت الغلام يستجمع قواه فى هدوء ورباطة جأش منقطعة النظير ، ويمضى فى تنفيذ غرضه ، فيستبدل السروج وباقى معدات المهر ، حتى إذا ما أتم كل شىء ، جلس فوق حزمة من الدريس ليتغلب على الألم الذى سببته له تلك الركلة العنيفة ، قبل أن يدخل المنزل ... وقد أقنعته ، دون جهد أو عناء ، بأن يدع لى مهمة الزعم بأن إصابته كانت بسبب المهر الجديد .. فما كان يبالى بما يقال عن هذا الموضوع ما دام قد نال بغيته ... وكان فى الحق قلما يتذمر أو يشكو من هذه التوافه حتى لقد ظننته ـ حقا ـ متسامحا غير حقود ، ولكننى كنت مخدوعة تماما ـ على ما سوف تسمع منى !

***

الفصل الخامس

اخذت صحة مستر ايرنشو تسوء وتذوى على مر الزمن .. وبعد ان كان يفيض بالصحة والنشاط ، فارقته قوته فجاة ، والجاه المرض إلى ملازمة مقعده بجوار المدفأة ، كما غدا سريع الهياج والإثارة .. كان يغضب للاشيء ، وتسبب له اقل شبهة من الاستهانة بسلطته وجبروته ، نوبات عنيفة من الثورة الجامحة .. وكان ذلك يشاهد بصفة خاصة عندما يحاول احد أن يسيطر على غلامه الاثير ، او يعامله بشيء من الغطرسة .. وكان يحرص فى دقة شديدة على الا تقال للفتى كلمة تجرح شعوره ، وقد دخل فى روعه ان الجميع يبغضون هيثكليف ويتوقون إلى الإساءة إليه بسبب حبه له وحدبه عليه .. ولقد اضر ذلك بالفتى واساء عاقبته ، إذ كان اكثرنا عطفا عليه لا يود إغضاب السيد ، فعمدنا إلى مداهنته وارضاء رغباته المتحيزة له ، وكانت هذه المداهنة غذاء دسما لغرور الفتى وسوء خلقه ... ولكن مسلكنا هذا كان ضروريا إلى حد ما .. فقد حدث مرتين او ثلاثا ان اظهر هندلى زرايته بالغلام واستهانته به على مرأى ومسمع من ابيه فكان ذلك يثير ثائرة العجوز ، ويمسك بعصاه ليضربه ، ثم يرتجف حنقا وغيظا عندما كان يفلت منه ...

واخيرا نصح قسيسنا (فقد كان لنا فى ذلك العهد قسيس يكسب لقمته من تعليم ابناء لينتون وابناء ايرنشو ، ومن زراعة قطعة الأرض التى يملكها بنفسه) بإرسال ايرنشو

الشاب إلى المدرسة الثانوية ، فوافق مستر ايرنشو على ذلك فى تثاقل وتردد ، حيث قال : « ان هندلى لن يصلح لشيء ، ولن يفلح فى شيء قط أينما ذهب .. »

ولشد ما كنت ارجو ان يسود السلام ربوعنا بعد ذلك .. فقد كان يؤلمنى ان ارى السيد مسلوب الراحة منغص العيش من جراء عمله الخيرى ، ويخيل إلى ان ضيق صدره الناجم عن السن والمرض إنما ينبعث من هذه الخلافات العائلية التى تحوطه ، وكأنما اراد ذلك فكان له ما اراده .. ولكن الحقيقة ياسيدى ، كما تعلم ، ان ذلك كان ناجما عن اضمحلاله الجسمانى المتزايد ...

وبرغم ذلك كله ، كان يمكن ان يمضى عيشنا هينا محتملا ، لولا شخصان اثنان ، هما مس كاثى ، وجوزيف الخادم ، واحسبك قد رايته هناك .. فقد كان ـ وما يزال على الارجح ـ من غلاة المتنطعين فى الدين ومن اشدهم تزمتا وغرورا .. اولئك الذين ينقبون فى الإنجيل (ويمشطونه) ليتخلصوا لانفسهم ما به من وعود ورحمات ، ويهيلون على جيرانهم ما يحويه من وعيد ولعنات ! .. وكان ببراعته فى إلقاء المواعظ والخطب الدينية يسعى إلى بسط سلطانه على مستر ايرنشو ، وكلما ازداد السيد ضعفا وخورا كلما ازداد هو قوة ونفوذا عليه .. وكان يعمد ، فى غير شفقة او رحمة ، إلى بث القلق فى نفسه من ناحية همومه الروحية ، وإلى الإيحاء إليه بوجوب اخذ ابنائه بالشدة والصرامة ! .. كان يشجعه على اعتبار هندلى شخصا ساقطا لا أمل فيه .. كما

www.liilas.com/vb3

كان ، ليلة بعد ليلة ، ينسج شبكة من القصص حول هيثكليف وكاترين ، ولكنه كان يعنى دائما بتملق ايرنشو واستغلال ضعفه بالقاء اللوم كله على كاهل الاخيرة !

ومن المحقق ان الفتاة كانت غريبة الاطوار على نحو لم ار عليه طفلة قط من قبل ، وكانت تخرجنا جميعا عن طورنا ، وتمزق اهداب الصبر التى نستمسك بها اكثر من خمسين مرة كل يوم .. فمنذ الساعة التى تنزل فيها إلى الطابق الأسفل حتى ساعة ذهابها إلى الفراش ، لم نكن نحس لحظة بالامن والسلامة من (شقاوتها) ... كانت خفتها ومرحها دائما فى ذروة ارتفاعهما ، وكان لسانها دائما فى ذروة نشاطه واندفاعه : فى الغناء ، والضحك ، وإيذاء كل امرىء لا يريد أن يجاريها فى ذلك ! .. كانت نبتة وحشية غير صالحة ! .. ولكن كانت لها اجمل عينين واحلى إبتسامة وارشق خطى فى الابروشية كلها .. وبرغم كل شىء فاحسبها لم تكن تضمر لاحد شرا ، لانها إذا حدث مرة ان دفعتك إلى البكاء عن عمد ، فهى قلما تفارقك او تدعك وشانك حتى ترغمك على الهدوء مرضاة لها وإراحة لضميرها !.. وكانت مولعة اشد الولع بهيثكليف ، فكان اعظم عقاب يمكن ان توقعه بها هو ان تفرق بينها وبينه ، ومع ذلك كان ما تلقاه من التقريع والتانيب بسببه اكثر مما يلقاه اى منا .. وكانت إذا ما لعبت معنا ، تذوب حبا فى القيام بدور السيدة الصغيرة ، فتستخدم يديها فى حرية وتصدر الأوامر إلى زملائها فى اللعب .. وكانت تفعل

ذلك معى ، ولكنى ما كنت لاحتمل الإيذاء وتلقى الاوامر ، فافهمتها ذلك صراحة ..

وكان مستر أيرنشو وقتئذ لا يطيق المزاح من اطفاله ، فقد كان دائما صارما وصيئا معهم ، وكانت كاترين من جانبها لا تدرى لماذا غدا والدها اشد مشاكسة واقل صبرا فى مرضه عما كان وهو فى عنفوان صحته ... وكانت تأنيباته اللاذعة القارصة توقظ فيها رغبة خبيثة فى اثارته .. ولم تكن تبلغ من السعادة غايتها إلا عندما نشترك جميعا فى تقريعها فتتحدانا كلنا بنظراتها الجريئة ، وكلماتها السليطة المتدفقة من بديهة حاضرة ، فتحيل لعنات جوزيف الدينية إلى مهزلة مضحكة ، وتغيظنى وتعاندنى ، وتفعل اشد ما كان ابوها يمقته ويبغضه ، وهو إظهار كيف تحدث قحتها المفتعلة ـ التى كان يظنها اصيلة حقيقية ـ من الاثر القوى على هيثكليف اكثر مما تحدثه رقته هو معه وحدبه عليه ، وكيف ينفذ الغلام اوامرها ايا كانت ، بينما لا ينفذ من اوامره هو إلا ما يروقه ويلائم ميوله ... وكانت بعد ان تسلك اثناء النهار اسوا مسلك تستطيعه ، تاتى احيانا إلى ابيها فى المساء تلاطفه وتلاعبه ، لتصلح ما افسدته ، وعندئذ يقول لها الشيخ : « كلا يا كاتى .. إننى لا استطيع ان احبك .. فانت اسوا من اخيك ... إذهبى ياطفلتى فاتلى صلواتك وادعى الله ان يغفر لك ... واحسب اننى وامك يجب ان نتحسر ونأسف على ان انجبناك وربيناك » ... فكان ذلك يجعلها تبكى وتنتحب فى بادىء الامر ، وما لبث ان زادها الصد المستمر صلابة وقسوة ،

فكانت تضحك ساخرة عندما أطلب إليها أن تقول إنها آسفة على ما تأتيه من أخطاء وإنها ترجو الصفح عنها ومسامحتها . . .

* * *

وأخيرا حانت الساعة التي أنهت متاعب مستر أيرنشو على الأرض ، فلفظ أنفاسه الأخيرة في هدوء وسكينة ، مساء يوم من أيام شهر أكتوبر ، بينما كان يجلس في مقعده بجوار المدفأة .. وكان الجو عاصفا وحشيا ، وإن لم يكن باردا ، والرياح تزمجر حول المنزل فيدوي زئيرها في المدخنة ، بينما كنا مجتمعين جميعا . . . كنت منهمكة في حبك الصوف (التريكو) وقد انتحيت ناحية بعيدا عن الموقد ، وكان جوزيف يطالع في الإنجيل بالقرب من المائدة (فقد كان الخدم وقتئذ يجلسون عادة في البيت (حجرة الجلوس) بعد انتهاء عملهم) وكانت مس كاثي مريضة في ذلك اليوم ، مما جعلها ساكنة هادئة وهي تجلس مستندة إلى ركبة أبيها ، بينما استلقى هيثكليف على الأرض واضعا رأسه في حجرها . . .

وما زلت أذكر كيف راح السيد ـ قبل أن تأخذه سنة من النعاس ـ يربت على شعرها الجميل ، إذ كان يسره كثيرا أن يراها عاقلة لطيفة ـ وقلما كانت كذلك ! ـ ويقول : « لماذا لا تكونين دائما فتاة طيبة يا كاثي ؟ . . » وكيف رفعت وجهها نحوه وانطلقت تضحك وهي تجيبه : « ولماذا لا تكون دائما رجلا طيبا يا أبتاه ؟! . . » ولكنها ما كادت تراه وقد

انتابه الضيق ثانية ، حتى قبلت يده وظلت ممسكة بها وهي تقول إنها سوف تغني له حتى ينام . . . وقد بدأت تغني في صوت شديد الخفوت ، حتى تراخت أصابعه وأفلتت من يدها ، وانحنى رأسه فوق صدره . . . فأشرت إليها أن تصمت ، وأن تكف عن الحركة خشية أن توقظه ، كما لبثنا جميعا ساكتين صامتين كالجرذان ، حتى انقضى نصف ساعة ، كان يمكن أن يزيد ، لولا أن جوزيف نهض من مجلسه بعد أن أتم قراءة الفصل الذي كان يطالعه في الإنجيل ، وقال انه سوف يوقظ السيد ليتلو صلواته ويأوي إلى فراشه .. وتقدم جوزيف إلى الأمام وناداه باسمه ، ثم لمس كتفه في رفق ، ولكنه لم يتحرك ، فتناول شمعة وقربها إليه وأخذ يتأمله ، فأدركت للتو عندما نحى الضوء بعيدا ، أن هناك شيئا غير عادي قد حدث ، وأمسكت بالطفلين من ذراعيهما وهمست لهما بأن : « يذهبا معا إلى الطابق العلوي ، ولا يحدثا جلبة كبيرة ـ وأن في وسعهما تلاوة الصلوات وحدهما ذلك المساء ـ فإن جوزيف لديه عمل آخر سوف يقوم به » .. ولكن كاثرين قالت :

ـ سوف ألقي على أبي تحية المساء أولا . .

وأسرعت تطوق عنقه بذراعيها قبل أن تتمكن من الحيلولة بينها وبينه .. ولكن الصغيرة المسكينة تبينت للتو خسارتها الفادحة ، فصرخت : « آه ! .. انه ميت ! .. لقد مات

يا هيثكليف ! .. » وراح الاثنان يبكيان فى نحيب يقطع نياط القلوب ..

وشاركتهما الولولة والبكاء فى عويل مرير ، غير ان جوزيف سألنا عما نقصده من الزئير على هذا النحو فوق قديس رفع إلى السماء ! .. ثم طلب منى ان ارتدى معطفى واسرع إلى (جيمرتون) لاحضر الطبيب والقس ، فلم استطع ان احدس الفائدة من حضور اى منهما وقتئذ ... ومهما يكن من امر فقد مضيت وسط الرياح والأمطار ، فلما رجعت كان معى احدهما ، وهو الطبيب .. اما الآخر فقد قال إنه سوف يحضر فى الصباح ... وتركت لجوزيف مهمة إيضاح الأمر للطبيب واسرعت اعدو نحو حجرة الطفلين ، فوجدت بابها مواربا ، والفيتهما مستيقظين لم ياويا إلى الفراش بعد ، برغم ان الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ، ولكنهما كانا اشد سكينة ، وفى غير حاجة إلى ان اسرى عنهما .. كان الصغيران البريئان يروح كل منهما عن الآخر بكلام وافكار افضل كثيرا مما كان يمكن ان اقوله لهما ، وما من قس فى العالم كان يمكنه البتة ان يصور السماء والجنة باجمل مما كانا يصورانهما به فى حديثهما البرىء .. وبينما كنت اصغى اليهما باكية ، لم املك إلا ان اتمنى لو اننا كنا جميعا هناك سالمين معا ..

* * *

الفصل السادس

عاد مستر هندلى ليحضر الجنازة ، ولكن الشىء الذى اثار عجبنا ودهشتنا ، وجعل الجيران يلغطون بالأحاديث يمنة ويسرة ، وهو انه لم يحضر وحده ، وإنما اتى معه بزوجته ... اما من تكون ، واين ولدت ، فإنه لم يخبرنا بذلك قط ... ولعلها كانت عاطلا عن مال او اسم رفيع يشفعان لها ، وإلا لما كتم عن ابيه امر زواجه منها ..

ولم تكن هى بالتى تحدث فى المنزل اضطرابا كبيرا بسبب وجودها فيه .. وكان كل شىء تقع عليه انظارها منذ اجتازت عتبة الدار ، يبدو كأنما يثير اعجابها وسرورها ، وكذلك الشأن فى كل حدث يجرى حولها ، فيما عدا معدات الجنازة والدفن ووجود المعزين المرتدين ثياب الحزن .. وقد حسبتها شبه بلهاء بسبب مسلكها الذى اتخذته بينما كانت هذه الاستعدادات تمضى فى طريقها ، إذ هرعت إلى حجرتها وجعلتنى امضى إليها معها ـ بينما كان ينبغى ان اتولى إلباس الطفلين ثيابهما ـ ثم جلست ترتعد فرقا وهى تهصر اصابعها المتشابكة ، وتتابع سؤالى مرة بعد مرة : « الم تذهبوا بعد ؟ » .. وبدات تصف لى ، فى انفعال وعصبية ، الأثر الذى يحدثه فى نفسها مرأى السواد ، وما لبثت ان انتفضت وارتجفت ثم انخرطت فى بكاء اليم ... فلما سألتها عما اصابها ، اجابت بأنها لا تدرى ، غير انها تحس بخوف مروع من ان تموت .. وخلتها لا تريد تعرضا للموت عنى ، فمع انها

نحيلة نوعا ، إلا انها كانت فى مقتبل الشباب ، نضرة المحيا ، تتألق عيناها كانهما قطعتان من الماس . . . بيد اننى لاحظت حقا ، ان ارتقاءها الدرج قد جعل انفاسها تتتابع فى سرعة لاهثة ، وان اقل جلبة مفاجئة تبعث الرعدة فى بدنها كله ، وانها كانت تسعل احيانا سعالا اليما . . ولكنى لم اكن ادرى شيئا عما تنذر به هذه الاعراض ، ولم اشعر بدافع إلى الرثاء لحالها ، فاننا عادة لا نألف الغرباء هنا يا مستر لوكوود ، ما لم يأنسوا إلينا اولا . .

وكان ايرنشو الشاب قد تغير كثيرا فى السنوات الثلاث التى استغرقتها غيبته . . كان قد ازداد نحولا ، كما ازداد لونه شحوبا ، غدا يتكلم ويرتدى ثيابه على نحو يختلف عما كان عليه من قبل . . بل انه فى يوم عودته بالذات ، امرنى وجوزيف بان نجعل إقامتنا ـ من الآن فصاعدا ـ فى المطبخ الخلفى وترك (البيت) . . . والواقع انه كان يود اتخاذ حجرة صغيرة خالية كحجرة جلوس له ولزوجته . فيفرش ارضها بالسجاد ، ويكسو جدرانها بالورق ، ولكن زوجته اعربت عن سرورها البالغ بالبلاط الناصع البياض ، والموقد الضخم المتوهج ، وصحاف القصدير الواسعة ، وخزانة الخزف ، ووجار الكلب ، وسعة المكان الذى اعتادا ان يجلسا فيه بما يسمح لها بالتجوال فى انحائه ، بحيث وجد هندلى من غير الضرورى لراحتها ان يتخذ تلك الحجرة ، وهكذا عدل عن فكرته . .

كذلك اعربت الزوجة عن غبطتها إذ وجدت لزوجها اختا بين معارفها الجدد ، فراحت ـ فى بادىء الامر ـ تثرثر مع

كاثرين ، وتقبلها ، وتطوف معها هنا وهناك ، وتمنحها الكثير من الهدايا ، ولكن هذا الود ما لبث ان خارت قواه وشيكا . . وعندما غدت كثيرة التقطيب سريعة الغضب ، غدا هندلى طاغية جبارا . . وكانت بضع كلمات قليلة منها ـ توحى بكراهيتها لهيثكليف ـ كافية لان توقظ فى هندلى حقده القديم نحو الصبى ، فنحاه عن رفقتهم إلى رفقة الخدم ، وحرمه من الدروس التى كان يتلقاها على القس ، وامر على ان يعمل ، بدلا من ذلك ، فى خارج الدار ، مرغما إياه على اداء اشق الاعمال فى الحقل ، شأنه فى ذلك شأن غيره من عمال الزراعة . .

واحتمل هيثكليف هذا الهوان فى صبر وجلد فى بادىء الامر ، لان كاثى كانت تلقنه ما تتعلمه من دروس ، وتشاركه فى اللعب او العمل فى الحقول . . وكانا كلاهما ينذران بأنهما سيشبان طليقين ضاربين كالمتوحشين . . فإن السيد الشاب ما كان يبالى البتة اى مسلك يسلكان ، او شىء يفعلان ، طالما كانا بعيدين عن طريقه وعن ناظريه . . بل انه ما كان ليعنى بالتحقيق من ذهابهما إلى الكنيسة فى ايام الآحاد ، لولا ان جوزيف والقس كانا يعنفانه على تراخيه كلما تغيب الفتى والفتاة عن القداس ، فكان ذلك يذكره بان يأمر بجلد هيثكليف بالسياط ، وحرمان كاثى من الغذاء او العشاء . . . وكانت متعتهما الكبرى ان يخرجا إلى الاحراش منذ الصباح فيمرحا ويرتعا طوال اليوم ، واصبح ما يحل بهما من عقاب بعد ذلك ، مجرد شىء يضحكان منه ويسخران . . كان بوسع

القس أن يفرض على كاثى قدر ما يشاء من الفصول لحفظها عن ظهر قلب ، وكان بوسع جوزيف أن يظل يضرب هيثكليف حتى تدمى ذراعه ، ولكنهما سرعان ما ينسيان كل شيء في اللحظة التي يجتمعان فيها معا ، أو على الأقل في اللحظة التي يدبران فيها خطة خبيثة للانتقام ! .. وكم من مرة بكيت فيها إشفاقا على مصيرهما ، وأنا أرقبهما وهما يزدادان طيشا يوما بعد يوم ، دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة أو مقطع من كلمة ، خشية أن أفقد ذلك النزر اليسير من السلطة الذي كنت ما أزال أحتفظ به على الصغيرين اللذين حرما الأصدقاء ...

وقد حدث في مساء يوم من أيام الآحاد أن أقصى الصغيران من حجرة الجلوس ، لضجة أحدثاها أو ما أشبه ذلك من التوافه ، فلما ذهبت لأدعوهما لتناول العشاء . بحثت عنهما في كل مكان فلم أجدهما .. ورحنا نفتش المنزل من عاليه إلى أسفله ، وكذلك الفناء والحظائر . ولكنهما كانا مختفيين تماما .. فثار هندلي أخيرا ، وأمرنا بأن توصد الأبواب وتحكم رتاجها وأقسم ألا يفتح لهما أحد أو يدعهما يدخلان الدار في تلك الليلة ..

وذهب أهل الدار جميعا إلى مضاجعهم . إلا أنا فقد كنت من القلق واللهفة بحيث استحال على الرقاد . ومن ثم فتحت نافذتي ومددت رأسي خارجها أرهف السمع لكل حركة ، على الرغم من المطر المنهمر ، وقد عزمت على إدخالهما إذا عادا ، غير مكترثة لأمر السيد بتحريم المنزل عليهما في تلك الليلة ...

وما مضت هنيهة حتى ميزت بين إيقاع المطر ، وقع خطوات قادمة من أول الطريق ، ولمحت بصيص ضوء يلتمع عند البوابة .. فبادرت بإلقاء وشاح فوق رأسي ، وسارعت لأفتح لهما الباب قبل أن يوقظا مستر إيرنشو إن هما طرقاه .. ولكنني وجدت هيثكليف وحده . فارتعت إذ رأيته بمفرده ، وهتفت به قائلة في عجلة !

ـ أين مس كاثرين ؟ .. أرجو ألا يكون قد أصابها شيء؟..
فأجابني : « إنها في ثرشكروس جرانج .. وكان يمكن أن أكون هناك بالمثل لولا أنهم لم تكن لديهم فضلة من الذوق والأدب بحيث يدعونني للبقاء ! » .. فقلت له : « حسنا ، سوف تلقى جزاءك .. ولعمري لن تقنع قط حتى تطرد من هنا ، ويرمى بك لتدبر شئونك بنفسك .. ثم ما الذي دفعكما إلى التجوال حتى ثرشكروس جرانج بحق السماء ؟ » .. فأجابني : « دعيني ريثما أنزع ثيابي المبللة يا نللي ، وسوف أخبرك بكل شيء عن ذلك » .. وطلبت إليه أن يحذر من إيقاظ السيد ، وفيما كان يخلع ثيابه ، بينما وقفت أنتظر حتى أطفيء الشمعة ، استطرد يقول :

ـ لقد فررنا ، كاثي وأنا ، من حجرة الغسيل لنقوم بجولة في الخلاء نستمتع فيها بحريتنا ، فلما لمحنا أضواء «الجرانج» من بعد ، خطر لنا أن نذهب للتو فنرى إن كان لينتون الصغير وشقيقته يقضيان أمسيات أيام الآحاد واقفين في الأركان يرتعدان من البرد ، بينما يجلس والدهما ووالدتهما ينعمان بالطعام والشراب والغناء والضحك والدفء المنبعث من نار

الموقد المتأججة .. هل تظنينهما يفعلان ذلك يانللى ؟ .. ام تريتهما يقرآن العظات ويدرسان اللاهوت على يد خادم عجوز يرغمهما على حفظ اعمدة برمتها من الاسماء المعقدة التى ذكرت بالتوراة إذا هما لم يحسنا الإجابة على اسئلته ؟ ..

فاجبته : « إنهما لا يفعلان ذلك على الارجح ، فلا ريب انهما طفلان طيبان لا يستحقان المعاملة التى تلقيانها جزاء سلوككما السيىء ! . » فابتدرنى مجيبا : « دعى عنك هذا النفاق يانللى .. فانت تهذين .. حسنا .. لقد انطلقنا نعدو من قمة المرتفعات حتى الحديقة ، دون توقف ، وقد غلبت كاترين تماما فى هذا السباق لانها كانت حافية القدمين ـ وعليك أن تبحثى غدا عن حذائيها وسط مستنقعات الاوحال ! ـ ثم تسللنا خلال ثغرة فى السياج ، وتلمسنا طريقنا فى الممر المرتفع حتى وقفنا اخيرا فوق أصيص زهر تحت نافذة حجرة الجلوس ، وهى التى كان يتسرب خلالها الضوء الذى رايناه ، إذ كانت مصاريعها الخشبية غير موصدة وستائرها منفرجة .. وكان فى وسع كل منا أن ينظر إلى داخل الحجرة إذا وقفنا فوق الاصيص وتعلقنا بافريز النافذة .. وما الذى رايناه ؟ .. لقد صافحت عيوننا منظرا خلابا ! .. كان المكان رائع الجمال تغطى ارضه طنافس قرمزية اللون ، ولكنو مقاعده وموائده مفارش من اللون نفسه ، والسقف ناصع البياض مموه الحواشى بالذهب ، تتدلى منه ثريا من قطع البللور الشبيهة بقطرات الدموع ، وقد علقت إلى السقف بسلاسل من الفضة وتألقت باضواء شموع دقيقة رقيقة .. ولم يكن مستر ومسز

لينتون الكبيران هناك ، وإنما اختص بالحجرة كلها ادجار وشقيقته .. افلا يخلق بهما ان يكونا سعيدين هانئين ؟ .. انا لو كنا فى مكانهما لحسبنا نفسينا فى الفردوس ! .. والآن ، هل يمكنك أن تحدسى ما كان « طفلاك الطيبان » يفعلان ؟ .. كانت ايزابيلا ـ واحسبها فى الحادية عشرة وتصغر كاثى بعام واحد ـ مستلقية على الارض فى الطرف القصى من الحجرة وهى تصيح وتصرخ كانما اجتمعت عليها الساحرات يغرسن فى لحمها ابرا محماة فى النار ! .. اما ادجار فكان يقف بجوار الموقد ، وهو ينتحب فى سكون ، بينما قبع فى وسط المائدة جرو صغير يهز ذراعه وينبح نباحا خافتا ، وفهمنا من الاتهامات التى كانا يتبادلانها انهما كادا يشطرانه بينهما وهما يتجاذبانه .. يالهما من اخرقين ! .. ابهذه الوسيلة يلهوان ويلعبان ؟ .. أن يتشاجرا متنازعين على ايهما يمسك هذه الكومة من الشعر الدافىء ، ثم ياخذ كل منهما فى البكاء لان كلا منهما ، بعد أن ناضل رفيقه على اقتنائها ، يابى أن ياخذها ! .. لقد امعنا فى الضحك ساخرين من هذين الابلهين اللذين افسدهما التدليل ، وامتلأت نفسانا ازدراء لهما واحتقارا لصغارهما .. بربك يا نللى هل ضبطتنى يوما راغبا فى شىء تريده كاثى ؟ .. او هل وجدتنا منفردين يوما ننشد اللهو والمرح فى الصراخ والعويل ، والتدحرج على الأرض ، تفصلنا الحجرة باسرها ؟ .. إننى لا ارضى قط ـ ولو عشت الف حياة ـ بأن استبدل بحالتى هنا ، حياة ادجار لنتون فى ثرشكروس جرانج ، حتى ولو اختصصت بميزة القدرة على

إلقاء جوزيف من أعلى قمة فيه ، أو طلاء واجهة البيت بدم هندلى !.. » .

فقاطعته قائلة : « صه !.. صه !.. ثم إنك لم تخبرنى بعد يا هيثكليف كيف خلفت كاثى وراءك !.. » .

فاستطرد يقول :

– قلت لك إننا ضحكنا ساخرين ، وعندئذ سمعنا الطفلان فاندفعا نحو الباب فى وقت معا كأنهما قذيفتان من السهام .. وخيم الصمت لحظة ، ثم انبعثت صيحة تهتف : « آه .. ماما .. ماما .. آه .. بابا .. تعاليا هنا » .. والواقع أن كليهما كانا يعويان بكلمات من هذا النوع ، فأخذنا نحدث ضوضاء مخيفة لنزيد من رعبهما ، ولكننا ما لبثنا أن تركنا إفريز النافذة ، وهوينا إلى الأرض ، إذ كان أحد سكان الدار يرفع المزاليج من خلف الباب ، فشعرنا بأن من الخير لنا أن نعمد إلى الفرار .. وكنت أمسك بيد كاثى ، وأستحثها على الإسراع ، عندما وجدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة واحدة ، ثم تهمس لى قائلة : « اجر يا هيثكليف .. أسرع .. لقد أطلقوا البولدوج فى أثرنا وها هو يمسك بى !.. » وكان الشيطان يمسك بعقبها يا نللى ، فكنت أسمع زمجرته المروعة ... أما هى فلم تصرخ قط .. كلا .. وإنها لخليقة بأن تأنف من الصراخ لو حملتها بقرة ثائرة وسلكتها فى قرنيها !.. ومع ذلك كنت أنا الذى صحت وعولت .. وتدفقت من فمى اللعنات التى تكفى لتدمير أى شيطان خبيث !.. وتناولت حجرا ودفعته بين فكى الكلب ، ثم حاولت بكل قواى أن

وكنت أمسك بيد كاثى ، وأستحثها على الإسراع ، عندما وجدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة واحدة ..

احشره فى حلقه .. واخيرا اقبل بهيم من الخدم يحمل مصباحا ، وهو يهتف بالوحش : « شدد القبض يا سكلكر .. شدد قبضتك !.. » ولكنه ما ان راى فريسة سكلكر حتى بدل من لهجته ، ثم امسك بعنق الكلب حتى خلصها من بين فكيه ، فتدلى لسانه الضخم القانى زهاء نصف قدم خارج فمه وقد فاضت شفتاه باللعاب الدامى .. ورفع الرجل كاثى من الأرض ، وكانت قد اغمى عليها ، لا من الخوف ــ يقينا ــ وإنما من الألم .. وحملها إلى الداخل ، فتبعته دون أن اكف من إطلاق الفاظ السباب واللعنات والوعيد بالانتقام .. وهتف لنتون من الداخل : « ما نوع الفريسة يا روبرت ؟ » فاجابه : « لقد امسك سكلكر بفتاة صغيرة يا سيدى » ثم اردف وهو يتشبث بكتفى : «وهنا ايضا غلام يلوح فى وجهه الشر ، ويبدو ان اللصوص كانوا يريدون إدخالهما من النافذة ليفتحا الأبواب للعصابة بعد أن ينام اهل الدار جميعا ، حتى يتاح لهم بذلك ان يفتكوا بنا فى يسر بغير عناء .. امسك لسانك ايها اللص ذو الفم الدنس ، واعلم انك سوف تشنق جزاء فعلتك هذه .. وانت يا سيدى مستر لنتون ، لا تدع مسدسك يغيب عنك قط ! » .. فقال العجوز المأفون : « كلا .. كلا يا روبرت .. لقد علم الأوغاد ان الأمس كان يوم تحصيل الإيجارات ، وحسبوا انهم سوف ينالوننى فى براعة .. ادخل ، فسوف اهيىء لهم استقبالا رائعا .. وانت يا جون ، ثبت السلاسل فى مكانها .. ضعى للكلب بعض الماء يا جينى !.. آه !..

ايجترئون على قاض فى عرينه المنيع ، وفى يوم احد ايضا ؟.. إلى اى حد سيمضون فى تحديهم وفجورهم ؟.. آه !.. انظرى هنا ياعزيزتى مارى .. لاتخشى شيئا فإنه ليس إلا غلاما صغيرا، وان كان الشر مرتسما على وجهه فى جلاء ! .. اليس من الرحمة بالمجتمع أن يشنق للتو واللحظة ، قبل ان تظهر طبيعته فى اعماله الشريرة ، كما تظهر فى محياه ؟ .. » ثم جذبنى تحت الشموع ليتفرس فى وجهى ، على حين وضعت مسز لنتون عويناتها فوق انفها وما لبثت ان رفعت ذراعيها فى هلع شديد .. اما الصغيران فقد ازدادا التصاقا بأمهما فى جبن واضح ، وتمتمت ايزابيل بلثغتها القبيحة : « ياله من (شىء) رهيب ! .. اسجنه فى القبو يا ابتاه ، فإنه يشبه تماما ابن قارئة البخت الذى سرق دجاجتى البرية الاليفة .. اليس كذلك يا ادجار ؟ »

وبينما كانوا يتفحصوننى ويتفرسون فى وجهى ، افاقت كاثى من غشيتها .. وسمعت العبارة الأخيرة ، فانبعثت تضحك بملء فيها ، وعندئذ حملق ادجار لنتون فيها بنظرات متسائلة ، استجمع على اثرها من وشائج فطنته ما يكفى لان يعرفها .. فهم يروننا فى الكنيسة ، كما تعلمين ، وإن كنا قلما نقابلهم فى اى مكان آخر .. وما لبث ان همس لوالدته قائلا : « هذه مس ايرنشو .. انظرى كيف عقرها سكلكر ، وكيف تدمى قدمها ! »

فصاحت السيدة : « مس ايرنشو ؟ .. هراء ! .. مس

ايرنشو ترتاد الريف فى رفقة ولد من الغجر ؟ .. ومع ذلك .. يا إلهى !.. إن الغلام يرتدى ثياب الحداد ـ انه كذلك حقا ـ ولقد كان من المحتمل ان تفقد قدمها إلى الأبد ! »

فهتف مستر لنتون متعجبا وهو ينقل انظاره منى إلى كاترين :

ـ ياله من استهتار إجرامى من جانب شقيقتها ! .. لقد فهمت من حديث شيدلر (كان هذا اسم القس يا سيدى) انه يدعها تنشأ وتنمو فى الوثنية المطلقة .. ولكن من هذا ؟ .. ومن اين التقطت هذا الرفيق ؟ .. اوه ! .. اوه ! .. ارى انه ليس سوى ذلك الغلام الغريب الذى اقتناه المرحوم جارى الراحل اثناء رحلته إلى ليفربول ، ولا ريب انه شرير صغير القت به البحار من الهند او امريكا او اسبانيا ..

فقالت السيدة الكهلة : « مهما يكن من امر فإنه غلام شرير ، ولا يليق البتة ببيت محترم .. هل لاحظت الفاظه ولهجته بالفتون؟ .. شد ما يضايقنى ان يضطر طفلاى إلى سماعها .. ».

فعاودت السباب واللعنات من جديد ـ وبالله لا تغضبى ياللى ! ـ وهكذا صدر الأمر إلى روبرت بان يخرجنى من البيت .. ورفضت الذهاب ما لم تصحبنى كالى ، ولكنه جرنى جرا إلى الحديقة ، ودفع المصباح فى يدى ، قائلا إن مستر ايرنشو سوف يحاط علما بمسلكى ، ثم امرنى بان

امضى فى طريقى قدما ، وسرعان ما اوصد الباب فى وجهى ... وكانت الستائر ما تزال منفرجة عند احد اركان النافذة ، فعدت إلى موقفى مسترقا النظر من جديد ، وفى نيتى ، إذا رايت كاثرين راغبة فى العودة معى ، ان احطم الواح الزجاج الكبيرة إلى ملايين الشظايا ، او يسمحوا لها بالخروج .. ولكنها كانت تجلس فوق الأريكة فى هدوء وطمأنينة ، بينما كانت مسز لينتون تنزع عنها معطف الغسالة الأغبر الذى كنا قد استعرناه لرحلتنا هذه ، وهى تهز راسها وتبدو كأنما تعاتبها على مسلكها ... لقد كانت سيدة صغيرة ، وكانوا ، من ثم ، يفرقون فى المعاملة بينها وبينى .. واحضرت الخادم وعاء به ماء دافىء ، وراحت تغسل قدميها ، على حين وقف مستر لينتون يعد لها شرابا ساخنا ، هو مزيج من الليموناده والنبيذ ، واتت ايزابيلا بطبق ملىء بالكعك افرغته فى حجرها ، بينما وقف ادجار على مبعدة يحدق النظر إليها فاغر الفم مبهوتا ! .. وما لبثوا ان راحوا يجففون شعرها الجميل ويمشطونه ، واتوها بخف كبير الحجم ، ثم قادوها إلى المدفأة ... فخلفتها وهى اوفر ما تكون مرحا وغبطة ، تقتسم طعامها مع الكلب الصغير ومع (سكلكر) الذى كانت تقرص انفه وهو يمضغ الطعام ، وتشعل وميضا من الحيوية فى عيون آل لينتون الزرقاء الجوفاء ؛ وميضا ينعكس من جمالها الساحر ووجهها الصبيح ... ورايتهم جميعا وقد ملأهم الإعجاب والذهول ، إذ كانت اعظم منهم سموا فلا يتطاولون

إلى منزلتها ، بل أنها لا ترفع من أى إنسان آخر على وجــه الأرض .. أليست كذلك يا نللى ؟! » .

فأجبت وأنا أدثره بالأغطية وأطفىء الشمعة : « لســوف تجلب هذه المسألة من العواقب أكثر مما تقدره وتحسبه .. فأنت شخص لا يرجى صلاحك ياهيثكليف ، وسوف يذهب مستر هندلى فى عقابك إلى أقصى الحدود .. وسوف ترى إذا كان لا يفعل ! .. » ولقد تحققت نبوءتى إلى أبعد مما قدرت وأردت .. فإن تلك المغامرة التعســة أثارت ثائرة ايرنشو ، وزاد الطين بلة مقدم مستر لينتون فى الغداة لإصلاح الأمر ، فإذا به يلقى على السيد الشاب محاضرة طويلة عن الطريق التى يسلكها فى قيادة أسرته ورعاية شئونها ، بحيث جن جنون هندلى وراح يتلفت حواليه فى لهفــة .. ولكن هيثكليف ـ هذه المرة ـ لم يجلد أو يعاقب ، وإنما قيل له انه إذا وجه إلى مس كاترين كلمة واحدة فسوف يطرد من المنزل فورا ! .. كما أخذت مسز ايرنشو على عاتقها ان تحول دون اتصال هيثكليف بشقيقة زوجها بعد عودتها ، على أن تستخدم الحيلة والدهاء فى ذلك ، لا العنف والقسر اللذين كانا خليقين بأن يجعلا مهمتها شاقة بل مستحيلة ..

* * *

الفصل السابع

مكثت كاتى فى « ثرشكروس جرانج » خمسة أسابيع ، حتى حل عيد الميلاد .. وفى خلال تلك المدة كان عقبها قد شفى تماما ، وتحسنت أخلاقها وسلوكها كثيرا ... وقد قامت السيدة مرارا بزيارتها فى هذه الأثناء ، حيث بدأت خطتها فى إصلاح الفتاة ، بمحاولة رفع روحها المعنوية ، وزيادة شعورها باعتبارها ، وذلك بإهدائها الثياب الفاخرة ، وتملقها ، الأمر الذى تقبلته الفتاة عن طيب خاطر ... وهكذا فإننا بدلا من أن نرى فتاة وحشية نافرة عارية الرأس تقفز إلى داخل المنزل وتندفع إلى كل منا لتهصره بين ذراعيها حتى تتقطع منا الأنفاس ، إذا بنا نرى التى تهبط ، من فوق ظهر مهر أسود جميل ، آنسة رفيعة القدر تتدلى غدائرها الكستنائية من تحت قبعة من الفراء المزين بالريش ، وترتدى معطفا طويلا من القماش الفاخر راحت تجمع أطرافه بكلتا يديها حتى تستطيع السير فى يسر .. ورفعها هندلى من فوق ظهر الجواد بين ذراعيه ، وهو يهتف جذلا : « ما هذا يا كاتى ؟ .. انك رائعة الجمال ... لقد كدت لا أعرفك ، فإنك تبدين الآن مثال السيدة الرفيعة .. ان ايزابلا لينتون لا تقاس بها شيئا ، أليس كذلك يا فرانسيس ؟ .. » فأجابت زوجته : « ان ايزابلا ليست على شىء من جمالها ومزاياها .. ولكنها يجب أن تتعقل فلا تعود إلى وحشيتها هنا ... ساعدى مس كاترين فى خلع ثيابها يا أيلين ! .. آه ! .. انتظرى ياعزيزتى حتى لا تفسد غدائرك ، ودعينى أخلع قبعتك بنفسى ... »

وتزعت المعطف ، فتألق تحته ثوب نفيس من الحرير اللامع المتعدد الألوان ، وسراويل بيضاء ، وحذاء يخطف بريقه الأبصار ! .. وبينما تألقت عيناها سرورا عندما تدافعت الكلاب حولها مرحبة بها ، فإنها لم تجرؤ على مداعبتها حتى لا تلعقها فتفسد ثوبها وزينتها .. بل إنها قبلتني في رفق ، وعن بعد ، إذ كان ثوبي ملوثا بدقيق كعكة عيد الميلاد التي كنت أقوم بصنعها ، فلم تر من الملائم أن تضمني إلى صدرها ! .. وما لبثت أن تلفتت باحثة عن هيثكليف ، وهي اللحظة التي كان مستر إيرنشو وزوجته يرقبانها في لهفة وقلق ، إذ يريان أن لقاءهما سوف يمكنهما من الحكم ، إلى حد ما ، على احتمالات الأمل في نجاح خطتهما في التفريق بين الصديقين!

وظل هيثكليف مختفيا عن الأنظار في بادىء الأمر .. وإذا كان ، قبل غيبة كاترين الطويلة ، قليل الاهتمام بنظافته ، ولا يجد من يعنى به ، فقد غدا ، منذ الحين ، أسوأ من ذلك عشر مرات ... ولم يجد أحد ممن في الدار في نفسه نازعة من نوازع الشفقة به حتى ينبهه إلى قذارته ، سواي .. فكنت آمره بغسل وجهه ولو مرة كل أسبوع ، إذ أن الصبيان في سنه قلما يجدون بهجة في لقاء الماء والصابون .. لذلك فإنه ، بغض النظر عن ثيابه التي صحبته في الخدمة في الوحل والتراب ثلاثة شهور دون أن يستبدلها ، وعن شعره الملبد الذي لم يمشطه طوال تلك المدة ، فقد كان وجهه ويداه تخفيها الأقذار إلى حد مروع .. ولعله توارى خلف أحد الحواجز ، عندما رأى آنسة وضاءة الطلعة ، بهية المظهر ،

تدخل المنزل بدلا من تلك الفتاة المشعثة الشبيهة به ، كما كان يتوقع .. وأخيرا قالت وهي تنزع قفازيها وتكشف عن أنامل أبيض لونها ورقت بشرتها من قلة استعمالها ومن مكثها داخل الدار طويلا : « أليس هيثكليف هنا ؟ »

وعندئذ صاح مستر هندلي ، منتشيا بما أصاب الفتى من سوء الحال وخيبة الأمل ، مستمتعا بأن يراه مضطرا إلى الظهور بهذا المظهر المزري الخسيس : « يمكنك أن تتقدم يا هيثكليف .. يمكنك أن تأتي لترحب بمس كاثي كباقي الخدم ! .. » .

وما أن لمحت كاثي صديقها في مخبئه ، حتى اندفعت نحوه مسرعة ، كأنها خفقة من جناح طائر ، لتحتضنه وتعانقه ، وأمطرت وجهه بسبع قبلات أو ثمان في أقل من ثانية واحدة ، ولكنها ما لبثت أن توقفت بغتة ، وتراجعت إلى الوراء ، ثم انفجرت ضاحكة وهي تقول : « عجبا ! .. ما أشد سواد طلعتك وتقطيب أساريرك ! .. ثم .. لماذا تبدو متجهما مضحكا ؟ .. ولكن لعل ذلك بسبب تعودي على رؤية إدجار وإيزابيلا لينتون .. حسنا يا هيثكليف ، هل نسيتني ؟ » .

وكان لها العذر في إلقاء هذا السؤال عليه ، لأن الخزي والكبرياء ألقيا على محياه جهامة وعبوسا فوق جهامته وعبوسه المألوفين ، وسمراه في مكانه بلا حراك .. وعندئذ قال مستر إيرنشو في تنازل :

ـ صافحها يا هيثكليف ! .. إننا نسمح بذلك هذه المرة !

فأجاب الغلام وقد استطاع النطق أخيرا : « لن أفعل .. ولن أقف لأكون أضحوكة لها .. فهذا أمر لا أستطيع احتماله ! » .

وهم بالفرار من وسط الحلقة ، لولا أن مس كاثى أمسكت به ثانية وقالت : « لم أكن أقصد أن أضحك منك ، وإن كنت لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك .. ألا صافحنى يا هيثكليف على الأقل ! .. ما الذى يثيرك هكذا ؟ .. إن الأمر لا يعدو أنى استغربت منظرك العجيب . ولو أنك تغسل وجهك وتمشط شعرك لأصبح كل شىء على ما يرام ، فالحق أنك شديد القذارة ! » .

وراحت تحدق النظر فى إمعان إلى أصابعه القذرة الكابية التى كانت تمسك بها بين يديها ، وتقلب البصر بينها وبين ثوبها النظيف ــ كأنها تخشى أن يناله شىء من القذارة من ملامسته لثياب هيثكليف ــ وكان يتبع نظراتها فى فهم وإدراك ، فإذا به ينتزع يده من يدها فى عنف وقوة ، ويقول :

ــ لم تكن بك حاجة لأن تلمسينى .. سوف أكون قذرا بالقدر الذى يروق لى .. فأنا أحب القذارة وسأظل قذرا !

ثم اندفع خارجا من الحجرة فى انفعال شديد ، وسط قهقهة السيدة والسيد ، وقلق كاثرين وانزعاجها البالغ ، فلم يكن فى استطاعتها أن تفهم كيف تثير ملاحظتها البسيطة هذا المظهر الواضح من سوء الخلق !

وبعد أن قمت بدور الوصيفة للقادمة الجديدة ، ووضعت

الكعك فى الفرن ، وأوقدت مدفأتى المطبخ وحجرة الجلوس نيرانا حامية تشيع فيهما الدفء والبهجة ، بما يليق وعشية عيد الميلاد ، اتخذت لنفسى مجلسا ورحت أسلى نفسى بالترنم بأناشيد العيد ، وحدى ، ضاربة صفحا عن تأكيد جوزيف بأنه يعتبر الأنغام المرحة التى آثرت الترنم بها أقرب إلى الأغانى الخليعة !! وكان قد اعتكف فى حجرته ليؤدى صلاته الخاصة ، بينما كان مستر ومسز إيرنشو يثيران اهتمام الآنسة بتلك التوافه الخلابة المختلفة التى أحضراها كى تقدمها هدية للشقيقين الصغيرين ادجار وإيزابيلا لينتون ، عرفانا منها بحسن صنيعهما معها .. فقد وجهت إليهما الدعوة لقضاء اليوم التالى فى (مرتفعات ويذرنج) ، وقبلت الدعوة من جانبهما بشرط واحد ، إذ رجت مسز لينتون أن يظل طفلاها الحبيبان بمنأى تماما عن ذلك « الولد الشرير البذىء اللسان ! » .

وإزاء هذه الظروف ، مكثت جالسة وحدى ، أشم تلك الرائحة الدسمة المنبعثة من الفطائر الناضجة فى الفرن ، وأتأمل فى إعجاب أوانى المطبخ اللامعة ، وساعة الحائط المجلوة وقد أحاطت بها أوراق شجرة عيد الميلاد ، والأقداح الفضية المصفوفة فوق صفحة كبيرة ، انتظارا لملئها بالجعة الساخنة وقت العشاء ، ثم فوق كل شىء ، ذلك البلاط اللامع المصقول الذى يعزى صفاؤه ونقاؤه إلى عنايتى بصقله ومسحه ! .. وكنت فى قرارتى أصفق استحسانا لكل شىء يقع عليه بصرى ، تذكرت كيف اعتاد إيرنشو العجوز أن يأتى بعد أن يتم إعداد

كل شيء وترتيبه ، فيدعوني بـ « البنت المياصة » !.. ثم بدس في يدي « شلنا » ، كمنحة عيد الميلاد .. واستطرد بي التفكير من ذلك إلى ولعه الشديد بهيثكليف ، وفزعه مما قد يلقاه من إهمال بعد أن يطويه الموت .. وقادني هذا التفكير ، بطبيعة الحال ، إلى التأمل فيما بلغته حال الفتى المسكين من السوء الآن ، وعندئذ غيرت رأيي فتحولت من الترنم بالغناء إلى البكاء والنواح !.. ولكن سرعان ما خطر لي أن الأجدى والأصوب هو محاولة إصلاح بعض ما أصابه من مظالم بدلا من ذرف الدموع عليها ، وهكذا نهضت ومضيت إلى الفناء في طلبه ، ولم يكن بعيدا ، إذ وجدته في الاسطبل يطعم الدواب ويمسح على جلد المهر الجديد اللامع المصقول ، فقلت له :

ـ أسرع يا هيثكليف ، فإن المطبخ شديد الإغراء ، وجوزيف في الطابق العلوي .. أسرع ودعني ألبسك وأهندمك قبل أن تأتي مس كاثي ، حتى تستطيعا الجلوس معا برهة منفردين بجوار المدفأة ، وتتحدثا حديثا طويلا إلى أن يحين موعد النوم ..

فاستمر يقوم بعمله دون أن يحول رأسه نحوي البتة .. فاستطردت أتابع القول :

ـ هيا .. ألست قادما معي ؟.. إن لدي كعكة صغيرة لكل منكما تكفي لإشباعكما .. هيا ، فإن لبسك وتهيئتك تحتاج إلى نصف ساعة على الأقل ..

وانتظرت خمس دقائق ، فلما لم ألق منه ردا ، سواء بكلمة أو إيماءة ، تركته ومضيت لشأني .. وتناولت كاثرين

عشاءها مع أخيها وزوجته ، على حين اقتسمت وجوزيف عشاء كئيبا كانت مشهياته التعنيف والتبكيت من جانب ، والمكر والتخابث من الجانب الآخر !.. بينما بقيت فطيرة هيثكليف وقطعة الجبن المعدة له موضوعتين على المائدة طوال الليل كأنما أعدتا لعشاء العفاريت !.. فقد تعمد أن يمضي في العمل حتى الساعة التاسعة ، حيث انصرف إلى حجرته قدما ، دون أن تنفرج شفتاه بكلمة أو همسة ، مصرا على الاعتكاف والعزلة .. أما كاثي فقد سهرت طويلا تلك الليلة إذ كانت لديها دنيا بأسرها من الأشياء التي تود أن تأمر بإعدادها لاستقبال أصدقائها الجدد في الغداة .. وقد حضرت إلى المطبخ مرة لتتحدث إلى صاحبها القديم ، فمكثت برهة ريثما سألتني عما دهاه ، ثم انصرفت لشأنها ..

واستيقظ هيثكليف مبكرا في الصباح ، وإذ كان اليوم عطلة العيد ، فقد حمل همومه وعبوسه إلى البراري ، ولم يظهر ثانية إلا بعد أن كانت الأسرة قد ذهبت إلى الكنيسة .. ويبدو أن الصوم وإمعان الفكر قد خففا من غلوائه ورداه إلى حالة معنوية أفضل ، إذ ظل يحوم حولي برهة ، وما لبث أن استجمع شجاعته فقال لي بغتة :

ـ اجعلي مني شخصا حسن المظهر يا نللي ، فقد عزمت على أن أكون غلاما طيبا !

فقلت : « ليت ذلك كان من زمن يا هيثكليف !.. لقد آلمت كاثرين وأحزنتها حتى لأجرؤ على القول بأنها أسفت لعودتها إلى المنزل !.. ويبدو أنك تغار منها لأنها تلقى من الرعاية والاهتمام أكثر مما تلقاه أنت » .

وكانت فكرة « غيرته » من كاثرين غير ذات معنى لديه ، فلم يفهمها .. اما فكرة « إيلامه » لها فقد فهمها واضحة جلية ، إذ سألنى وقد لاح عليه الاهتمام البالغ : « هل قالت إنها حزنت وتألمت ؟ » .

ـ لقد بكت هذا الصباح عندما اخبرتها انك خرجت ثانية ..

ـ حسنا ، لقد بكيت انا ليلة امس ، وكان لدى من اسباب البكاء وبواعثه اكثر مما لديها ..

ـ نعم .. وكنت من التعقل بحيث ذهبت إلى الفراش بقلب ملىء بالكبرياء ، ومعدة خاوية من الطعام !.. إن ذوى الكبرياء يخلقون لانفسهم الاحزان والهموم دائما .. ولكن إذا كنت حقا نادما على حمقك وتسرعك ، فيجب أن تسألها الصفح عندما تعود من الخارج .. يجب ان تصعد إليها وتعرض عليها ان تقبلها ، وتقول لها .. حسنا .. انك تعرف خيرا منى ما ينبغى أن تقوله .. ولكن عليك ان تفعل ذلك من كل قلبك ، لا كما لو كنت تعتقد انها قد تحولت إلى إنسانة غريبة عنك لمجرد انها ترتدى ثوبا فاخرا .. ومع انى الآن مشغولة بإعداد الطعام ، إلا انى سوف اختلس بعض الوقت لاعنى بزينتك بحيث يبدو ادجار لينتون إلى جانبك اشبه بدمية صغيرة ، وانه لكذلك حقا !.. إنك اصغر منه سنا ، ومع ذلك اؤكد لك انك اطول منه قامة وتفوقه مرتين فى عرض منكبيك .. إن فى وسعك ان تصرعه فى لمحة كومضة البرق .. الا تشعر انك قادر على ذلك ؟

فأشرق وجه هيثكليف لحظة ، ثم ما لبث أن غاضت إشراقته وتنهد قائلا :

ـ ولكن يا نللى ، لو أننى صرعته عشرين مرة ، لما قلل ذلك من وسامته او زادنى جمالا !.. وشد ما اتمنى ان يكون لى شعر اشقر وبشرة ناصعة البياض وثياب شبيهة بثيابه ، وعيشة تماثل عيشته ، وفرصة لان اكون ثريا مثلما سيكون .

فأضفت لأكمل له الصورة :

ـ وأن تظل تصيح : « ماما .. ماما .. » كلما روعك شيء ، وترتعد فزعا إذا لوح صبى ريفى بقبضة يده فى وجهك ، وتظل قعيد الدار كلما سقط رذاذ من المطر !.. اواه ياهيثكليف! .. إنك تبدى روحا خائرة وهمة فاترة !.. تعال معى إلى المرآة وسوف اجعلك ترى ما ينبغى ان تتمناه .. هل تلاحظ هذين الخطين العميقين بين عينيك ، وهذين الحاجبين الكثيفين اللذين يغوصان فى الوسط بدلا من أن يرتفعا مقوسين ؟.. ثم هذين الشيطانين الخبيثين الغائرين فى محجريهما عميقا ، واللذين لا يفتحان نوافذهما قط فى صراحة وشجاعة ، وإنما يكمنان تحتها ويشعان بريقا خاطفا كأنهما من جواسيس الشيطان ؟ .. عليك ان ترغب حقا وتعرف كيف تلين هذه الغضون والتجاعيد التى تنم عن الشراسة والمشاكسة ، وكيف ترفع اجفانك فى صراحة ، وتحيل الشيطانين الخبيثين إلى ملاكين بريئين ممتلئين ثقة ، لا يرتابان ولا يشكان فى شيء ، ولا يريان إلا أصدقاء ، حيثما لا يكونان واثقين من انهم اعداء ! .. ولا تحمل اساريرك ذلك الطابع الغريب الذى يعلو اسارير

كلب زنيم يعرف انه يستحق الركلات التى ينالها . ومع ذلك يبغض العالم كله مع الشخص الذى يركله ، من اجل ما يلحق به من اذى والم ..

فاجابنى :

– اى إننى – ف كلمات اخرى – يجب ان ارغب حقا ف ان تكون لى عينا ادجار لينتون الزرقاوان الواسعتان ، وجبهته المستوية الملساء ؟ .. حسنا .. إننى ارغب ف ذلك حقا . ولكن ذلك وحده لا يساعدنى على ان انال رغبتى ..

فتابعت حديثى قائلة :

– ان القلب الطيب سوف يجعل لك وجها جميلا يا بنى ولو كنت زنجيا صميما .. اما القلب الشرير فانه يحيل الوجوه الجميلة إلى ما هو اسوأ من القبح والدمامة .. والآن وقد فرغنا من الاغتسال ، وتمشيط الشعر ، ومن العبوس والتجهم ايضا ، فانظر وقل لى الست ترى نفسك اقرب إلى الوسامة وصباحة الوجه ؟ .. اما انا فاراك كذلك حقا .. فانت الآن اليق بان تكون اميرا متنكرا ! .. ومن يدرى ، لعل اباك كان امبراطور الصين ، وامك كانت ملكة هندية ، وكلاهما قادر على ان يشترى ، بدخل اسبوع واحد ، مرتفعات ويذرنج وثرشكروس جرانج معا ؟ .. ولعل بعض البحارة الشريرين قد اختطفوك واحضروك إلى انجلترا ؟ .. ولو اننى كنت ف مكانك لاظهرت فكرة عالية عن طيب منبتى ورفعة اصلى . ولمنحنى التفكير فيما كنت عليه ، الشجاعة والكرامة لاحتمال مظالم فلاح صغير لا يطاولنى !

ولبثت اتحدث إلى هيثكليف على هذا النحو حتى لانت اساريره وتلاشى عبوسه وتجهمه ، وبدا يلوح بهى الطلعة مشرق المحيا ، عندما قطع حديثنا فجأة صوت قعقعة تنبعث من الطريق وتدخل إلى الفناء .. واسرعنا معا ، هو إلى النافذة ، وانا إلى الباب ، ف الوقت المناسب كى نرى ادجار لينتون وشقيقته يهبطان من عربة الاسرة ، وقد اخفت المعاطف والفراء معالمهما ، بينما كان آل ايرنشو يترجلون عن جيادهم التى كانوا يمتطونها غالبا عندما يذهبون إلى الكنيسة ف الشتاء .. وامسكت كاترين بيدى الصغيرين وقادتهما إلى المنزل ، ثم اجلستهما امام نار المدفأة ، التى سرعان ما اشاعت الحمرة ف وجهيهما الشاحبين ..

وحثثت رفيقى على ان يسرع الآن ويكشف لهم عن دماثة خلقه وروحه الودية ، إلا ان سوء الحظ اراد انه ف اللحظة التى كان فيها هيثكليف يفتح الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس من ناحية ، كان هندلى يفتحه من الناحية الاخرى ، فتقابلا وجها لوجه .. وكانما حنق السيد إذ رآه نظيفا مرحا ، او اراد ان يفى بوعده لمسز لينتون ، فاذا به يدفعه إلى الوراء دفعة عنيفة مفاجئة ، ويصيح بجوزيف ف سخط : « ابعد هذا الشخص عن الحجرة .. احبسه ف المخزن العلوى حتى نفرغ من الغداء ، فسوف يعبث باصابعه القذرة ف الفطائر والحلوى ، ويسرق الفاكهة ، لو ترك وحده معها لحظة واحدة »

فلم اتمالك نفسى من القول ف انفعال :

ــ لا يا سيدي .. انه لن يمس شيئا .. فما هو بالذي يفعل ذلك .. ثم إنني احسبه خليقا بأن ينال نصيبه من فطائر العيد وحلواه ، شأننا جميعا ..

فصاح هندلي :

ــ بل سوف ينال نصيبه من يدي لو امسكت به في هذا الطابق حتى المساء .. امش ايها المتشرد .. اغرب عن وجهي .. ماذا ؟ .. ما شاء الله .. ما هذه القذارة التي تحاول ان تظهر بها ؟ .. اصبر حتى امسك بهذه الغدائر الانيقة ، لترى كيف اجذبك منها حتى أزيدها طولا ..

فقال السيد لينتون وهو يسترق النظر من فتحة الباب :

ــ إنها طويلة بما فيه الكفاية ، وإني لاعجب كيف لا تصيبه بوخز في رأسه .. إنها تتدلى فوق عينيه اشبه بناصية (قصة) الجحش ..

ولقد اجترأ على إبداء هذه الملاحظة دون اي قصد للإهانة او السباب ، ولكن طبيعة هيثكليف الحادة لم تكن مستعدة لاحتمال مظاهر القحة من شخص يبدو انه كان يبغضه ــ حتى في ذلك الحين ــ كمنافس له ، فأمسك بآنية مليئة بصلصة التفاح الساخنة (وهي اول شيء صادفته يده) وقذف بها ادجار فسالت على وجهه وعنقه ، وسرعان ما بدا يعول وينتحب على نحو جعل كاثرين وايزابيلا تخفان سريعا إلى المكان لتريا ماذا دهاه .. وفي الوقت نفسه جذب مستر ايرنشو المعتدي في عنف وحمله إلى حجرته .. ولا ريب انه قد قدم له علاجا

عنيفا ليهدىء من سورة الانفعال التي اصابته ، لانه عندما ظهر ثانية كان متورد الوجه لاهث الانفاس .. اما انا فقد احضرت منشفة الصحون ورحت افرك بها انف ادجار لينتون وفمه ، في غل وغيظ ، مؤكدة ان ذلك سوف يشفيه تماما من التدخل فيما لا يعنيه .. واخذت شقيقته تنوح طالبة العودة إلى منزلها ، بينما وقفت كاثرين واجمة وقد تورد وجهها خجلا وحنقا .. وما لبثت ان راحت تؤنب السيد لينتون قائلة :

ــ ما كان ينبغي ان تكلمه .. لقد كان في حالة معنوية سيئة ، وهاأنت ذا قد افسدت زيارتك .. وسوف يجلد .. وأنا اكره ان اراه يجلد .. ولن استطيع ان اتناول غدائي .. لماذا تحرشت به يا ادجار ؟

فغمغم الفتى وهو يجهش بالبكاء ، ويفر من يدى ليتم ما بقي من تنظيف وجهه وثيابه بمنديله الرقيق :

ــ إنني لم اخاطبه .. فقد وعدت ماما بالا اوجه إليه كلمة واحدة ، ولم افعل ..

فاجابت كاثرين في ازدراء :

ــ حسنا .. كف عن البكاء إذن فإن احدا لم يفتك بك !.. ولا تثر المزيد من الشر فان اخي قادم .. صه يا ايزابيلا !.. هل نالك احد بالأذى انت الاخرى ؟

واندفع هندلي إلى داخل الحجرة صائحا :

ــ هيا بالاطفال .. هيا إلى مقاعدكم حول المائدة .. لقد اثار هذا الغلام الوحشي الدماء في عروقي .. اما انت يا سيد ادجار

فعليك فى المرة القادمة أن تأخذ حقك بيدك ، فان ذلك يثير شهيتك للطعام !

واستعادت الجماعة الصغيرة هدوءها وسكينتها لدى مرأى الوليمة الفاخرة التى أعدت لهم ، والتى كان عبير الطعام يفوح منها فيسيل من شذاه لعابهم ، وقد استبد بهم الجوع بعد ركوبهم فى الهواء الطلق ، ونسوا أحزانهم فى سرعة ويسر ، خصوصا وأن أحدا منهم لم يحل به أذى حقيقى .. وكان مستر ايرنشو يقطع اللحم ويملأ به الأطباق فى سخاء ، بينما كانت السيدة تشيع فيهم البهجة والمرح بأحاديثها الطلية المسلية .. وكنت أقف خلف مقعدها لألبى أوامرها ، وتم تألمت إذ رأيت كاترين تبدأ فى تقطيع صدر أوزة أمامها ، وقد لاح عليها عدم الاكتراث وخلت عيناها من أى أثر للدموع . فقلت لنفسى : « يا لها من صبية مجردة من الشعور ، تطرد من فكرها متاعب رفيق صباها فى خفة ونزق .. إننى ما حسبتها قط على هذه الأثرة والأنانية » .. ولكنى رأيتها تهم برفع اللقمة إلى شفتيها ، ثم تعيدها إلى الطبق ثانية ، وقد اندفعت الدماء إلى وجنتيها اللتين سرعان ما بللتهما الدموع .. وتركت الشوكة تسقط من يدها إلى الأرض ، ثم أسرعت تنحنى لالتقاطها ، وهى ترمى إلى إخفاء انفعالها تحت مفرش المائدة .. ولم يطل تلقيبى لها « بالفتاة المجردة عن الشعور » ، إذ أدركت أنها تقاسى العذاب طوال اليوم ، وتجهد فى خلق الفرصة للاختلاء بنفسها أو زيارة هيثكليف الذى كان السيد قد سجنه ، كما اكتشفت عندما حاولت أن أدخل إليه شيئا من الزاد خلسة ..

واقيمت لنا حفلة راقصة فى المساء ، فرجت كاترين أن يخلى سبيل هيثكليف ، إذ كانت ايزابيلا لينتون فى حاجة إلى زميل يراقصها ، ولكن توسلاتها كانت عبثا ، وصدر لى الأمر بأن أسد النقص وأشغل هذا الفراغ .. ونسينا كآبتنا وحزننا فى غمرة المرح والانبساط اللذين أحاطا بحفلة الرقص ، وزاد من سرورنا مقدم فرقة « جيمرتون » الموسيقية التى تضم خمسة وعشرين من أساطين الموسيقى يعزفون على الآلات النحاسية والوترية المختلفة ما بين بوق ومزمار وناى وكمان كبيرة ذات أنغام عميقة حزينة فضلا عن المغنين والمنشدين .. وقد اعتادت هذه الفرقة أن تجوب أنحاء المقاطعة وتحل بجميع البيوت العريقة المحترمة ، وتنال منها الهبات السخية فى عيد الميلاد من كل عام . فكنا نعتبر حفلاتها من المباهج الفائقة التى تعلق بالذاكرة طويلا .. وبعد أن فرغت الفرقة من أناشيد عيد الميلاد المعتادة ، طلبت إليها أن تشنف أسماعنا بالأغانى الخفيفة والقطع الموسيقية المرحية التى يشترك فى غنائها الكثيرون كل بدوره .. وقد كانت مسز ايرنشو مشغوفة بالموسيقى ، وهكذا قدمت لنا الفرقة منها الكثير ..

وكانت كاترين تحبها كذلك ، ولكنها قالت إن وقعها فى الأذن إنما يحلو ويطرب إذا ما استمعت إليها من بعد ، من فوق قمة الدرج مثلا ! .. وما لبثت أن تسللت فى الظلام وارتقت السلم مسرعة ، فتبعتها خلسة .. وأغلق القوم باب حجرة الجلوس دون أن ينتبهوا لغيابنا ، لكثرة الحاضرين .. ولم تقف كاترين عند قمة الدرج وإنما مضت تتسلق السلم

الخشبى المغلق ، إلى العلية التى كان هيثكليف سجينا فيها ، حيث راحت تناديه بصوت خافت .. وظل برهة لا يجيب النداء فى عناد واصرار ، ولكن عزيمتها لم تهن ، وثابرت على ندائه حتى اغرته أخيرا بأن يجاذبها الحديث من خلال الجدار الخشبى.. اما انا فقد انفطر قلبى ، وآثرت ان ادع الصغيرين المسكينين وحدهما يتبادلان أشجانهما دون ان أعكر صفو خلوتهما ، حتى إذا ما قدرت أن الغناء أوشك على الانتهاء ، وان العازفين سيستريحون ريثما يتناولون المرطبات ، تسلقت السلم بدورى لأحذرهما .. وبدلا من ان اجد كاثرين خارج العلية ، سمعت صوتها من داخلها ! .. فقد دخلت إحدى العليات الأخرى ، وتسلقت الكوة الصغيرة بأعلاها كالقردة الصغيرة ، ثم زحفت فوق السطح حتى كوة محبس هيثكليف حيث انضمت إليه .. وذقت الأمرين حتى استملتها ورضيت بالخروج ثانية من الطريق التى سلكتها فى ذهابها ، ولكن هيثكليف كان معها هذه المرة ، حيث اصرت على ان تجعلنى آخذه إلى المطبخ ، خصوصا وان جوزيف كان قد انصرف إلى دار بعض الجيرة فرارا من أصوات « مزامير الشيطان » كما كان يحلو له أن يسمى موسيقانا .. وقلت لهيثكليف إننى لا أرضى بحال من الأحوال عن الاعيبهما هذه وليس فى نيتى ان اشجع مسلكهما ، غير انه طالما ان السجين لم يذق شيئا البتة منذ غداء الامس ، فاننى سوف أغضى هذه المرة عن خداعه لمستر هندلى وخرقه لأوامره .. ونزل معى إلى المطبخ حيث وضعت له مقعدا صغيرا امام الموقد ، واحضرت له كمية وفيرة من أطايب الطعام والحلوى .. ولكنه كان خائر النفس سقيما،

فلم يذق إلا القليل ، وذهبت محاولاتى لترغيبه فى الطعام أدراج الرياح .. كان يجلس متكئا بمرفقيه فوق ركبتيه ، محتضنا وجهه بين راحتيه ، ممعنا فى التفكير ، فلما سألته عن موضوع أفكاره العميقة قال فى رصانة :

– إننى احاول أن ادبر الطريقة التى أسدد بها لهندلى دينا .. ولست ابالى إلى متى يطول انتظارى حتى ابلغ هذه الغاية: بقدر ما يهمنى أن أصل إليها فى النهاية .. وكل ما أرجوه ألا يسبقنى الموت إليه قبل أن أناله ..

فهتفت واجفة :

– يا للعار يا هيثكليف ! .. إن الله وحده هو الذى يتولى عقاب الأشرار ، أما نحن فعلينا أن نعرف كيف نصفح ونتسامح ..

– كلا .. إن الله لن يطيب نفسا بهذا الانتقام مثلما تطيب نفسى انا عندما احققه ! .. وليتنى اعرف فقط السبيل إلى ذلك .. دعينى وحدى وسوف أدبر الأمر حتما ، فاننى كلما فكرت فيه كلما تلاشى شعورى بالألم ..

❋ ❋ ❋

ولكنى نسيت يا مستر لوكوود ان هذه القصص لا يمكن أن تسليك ، وكم يؤسفنى أننى انسقت فى الثرثرة إلى هذا الحد ، وها هو ذا حساؤك قد برد ، وهاأنت ذا تهوم من النعاس وتنشد الفراش .. كان يمكننى ان اروى لك قصة هيثكليف – أو ما يهمك سماعه منها – فى ست كلمات فحسب ..

وذهبت محاولاتى لترغيبه فى الطعام ادراج الرياح .. كان يجلس متكئا بمرفقيه فوق ركبتيه ، محتضنا وجهه بين راحتيه ..

ونهضت مدبرة المنزل وهى تقطع حديثها على هذا النحو ، وهمت بان تنحى معدات الحياكة التى كانت تتسلى بها ، ولكننى الفيت نفسى غير قادر على الحراك من مكانى بجوار المدفاة ، كما كنت بعيدا كل البعد عن التهويم والنعاس ، فصحت بها قائلا :

ـ مكانك يا مسز دين ! .. اجلسى مكانك نصف ساعة اخرى فقد احسنت واصبت برواية القصة بهذه الاناة ، فهى الطريقة التى احبها ، وينبغى ان تتميها بالأسلوب نفسه ، لاننى اجد اهتماما بكل شخصية ذكرتها فى روايتك ..

ـ ولكن الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة ياسيدى ..

ـ لا باس ، فلست معتادا النوم فى الساعات الأولى من الليل .. والواحدة او الثانية ساعة مبكرة بالنسبة لشخص يظل نائما حتى العاشرة من الصباح ..

ـ ما ينبغى لك ان تنام حتى العاشرة ، فان بهجة الصباح وروعته تكون قد ولت قبل هذه الساعة بزمن طويل .. والشخص الذى لا يكون قد اتم نصف عمل يومه فى الساعة العاشرة ، يكون عرضة لان يترك النصف الآخر نائما بغير اداء ..

ـ فليكن يا مسز دين ، ولكن عودى إلى مقعدك ! .. لاننى انوى ان اطيل الليل حتى بعد ظهر الغد ! .. فانا احس بان البرد الذى اصابنى سوف يقعدنى مدة طويلة على الأقل ..

ـ ارجو الا يكون الامر كذلك يا سيدى .. حسنا .. اسمح لى إذن بان امر مر الكرام على ثلاث سنوات او نحوها ، ففى خلال تلك الفترة كانت مسز ايرنشو ..

ـ كلا .. كلا .. لن اسمح لك بشىء من هذا .. الم تعهدى تلك الحالة العقلية التى تكونين فيها إذا ما جلست وحدك ، وكانت الهرة تلعق صغارها على البساط امامك ، فتستغرقين فى مراقبة هذه العملية استغراقا كاملا بحيث يثيرك ويغضبك ان تغفل الهرة لعق أذن واحدة من آذان الصغار ؟

ـ لعمرى إنها لحالة عقلية شديدة البلادة والكسل !

ـ بل هى على العكس حالة نشيطة مرهقة .. إنها حالتى الآن ، ولذلك اود ان تستمرى فى سرد القصة بكل تفاصيلها الدقيقة .. وارى ان الناس فى هذه المناطق يمتازون على ساكنى المدن بتلك الاهمية التى يمتاز بها العنكبوت فى زنزانة سجين على العنكبوت فى كوخ ماهول ، فى نظر ساكنى المكانين المختلفين .. ومع ذلك فهذه الاهمية ، وذلك الاهتمام العميق لا يرجعان برمتهما إلى مركز المشاهد او حالته فحسب .. فالواقع انهم هنا يعيشون اكثر جدية وصرامة واكثر انطواء على انفسهم ، واقل اهتماما بالامور السطحية ، او التبديل والتغيير ، او الأشياء الخارجية المرحة التافهة .. إننى اتصور الآن ان حبا يدوم مدى الحياة امر يمكن وقوعه هنا ، انا الذى كنت دائما اكفر ، من يقين ، بان اى حب يمكن ان يطول مداه

عاما واحدا ! .. وان احدى الحالتين تشبه وضع رجل جائع امام مائدة عليها طبق واحد فريد ، فيركز فيه شهيته ولا يتركه حتى يلعقه ، والحالة الاخرى أن تضعى الرجل امام مائدة حفلت بأطايب الطعام من أيدى الطهاة الفرنسيين ، فيجد فى جملتها متعة بالغة ولكن كل طبق منها لا يعدو ان يكون مجرد ذرة فى تقديره وذاكرته ..

فقالت مسز دين وهى تبدو محيرة من حديثى :

ـ اوه ! .. إننا هنا كسائر الناس فى اى مكان آخر ، إذا ما عرفتنا على حقيقتنا !

فاجبتها :

ـ معذرة .. فانت نفسك يا صديقتى الطيبة شاهد صارخ ضد تأكيدك هذا .. إنك ـ فيما عدا بعض المظاهر الريفية القليلة الاهمية ـ لست على شىء من مظاهر الخلق والسلوك التى اعتدت ان اعدها خاصة بطبقتك .. وإننى موقن انك فكرت كثيرا وتعمقت فى التفكير اكثر مما يفكر عامة الخدم .. واحسب انك إنما تعهدت ملكة التفكير بالعناية والرعاية ، لانعدام الظروف التى تهىء لك انفاق حياتك فى التوافه السخيفة !

فضحكت مسز دين وقالت :

ـ لاشك اننى اعد نفسى إنسانة من الطراز المستقيم العاقل ،

ولكن ذلك لا يرجع تماما إلى حياتى بين التلال والقفار ، ورؤيتى مجموعة واحدة من الوجوه او ادائى مجموعة رتيبة من الاعمال ، من عام إلى عام .. كلا .. وإنما نشأت تحت وطأة نظام صارم حاد علمنى الحكمة والتعقل . كما اننى قرات اكثر مما يمكن ان تتصور يا مستر لوكوود .. وما من كتاب يمكن ان تفتحه فى هذه المكتبة إلا قراته واستوعبته وخرجت منه بفائدة ما ، إلا ان يكون هذا الصف من الكتب اليونانية واللاتينية او ذلك الصف من الكتب الفرنسية ، وهذه وتلك استطيع التمييز بينها .. إن ذلك هو كل مايمكن ان تتوقعه من ابنة رجل فقير !

وتنهدت مسز دين ، ثم استطردت تقول :

ــ ومهما يكن من أمر ، فيجدر بى ان اتابع رواية القصة ، إذا لم يكن ثمة بد من روايتها بهذه الإفاضة التى تريدها .. وبدلا من ان اثب فوق ثلاثة اعوام ، فسوف اقنع بالمرور حتى الصيف التالى ، صيف عام ١٧٧٨ اى ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاما خلت ..

* * *

الفصل الثامن

فى صباح يوم جميل من شهر يونية من ذلك العام ، ولد اول طفل تعهدته بالتربية ، وآخر سلالة اسرة ايرنشو القديمة العريقة ..

كنا يومئذ مشغولين بجمع الدريس فى حقل بعيد عندما جاءت الفتاة التى تحمل إلينا طعام الإفطار مبكرة عن موعدها بساعة ، وهى تجرى خلال الحقول وتهتف باسمى منادية ، حتى إذا ما اقتربت منا صاحت لاهثة :

ــ ياله من غلام عظيم ! .. إنه اجمل طفل تنسم الحياة على الإطلاق .. ولكن الطبيب يقول إن السيدة سوف تموت، فقد نهش السل صدرها هذه الشهور الأخيرة .. سمعتهيقول ذلك لمستر هندلى ، وانه ما من شىء يمكن ان يحتفظ عليها حياتها الآن ، وسوف تقضى نحبها قبل الشتاء .. لابد من حضورك الآن إلى البيت يانللى ، فانت التى ستتولين إرضاعه وتربيته ، وتغذيته باللبن والسكر والعناية بشانه ليلا ونهارا ! .. ليتنى كنت مكانك ، فسوف يكون امره إليك وحدك عندما تذهب السيدة إلى خالقها !

فقلت وانا ارمى جرافة الدريس من يدى واضع قبعتى فوق راسى :

ــ ولكن هل هى مريضة إلى هذا الحد ؟

ــ احسبها كذلك ، برغم ما يبدو عليها من شجاعة .. فهى

تتكلم كأنما تظن انها ستعيش حتى تراه رجلا .. بل لقد فقدت صوابها من الفرح ونشوة الإبتهاج .. ولها الحق ، فما رأيت طفلا بهذا الجمال !. ولو انى كنت مكانها ، فانى واثقة باننى ماكنت لاموت !.. فسوف تتحسن صحتى لمجرد رؤيتى له ، برغم انف الدكتور كينيث !.. لقد جننت به عند ما رأيته .. وقد حملت السيدة اوشر إلى السيد فى حجرة الجلوس ذلك الملاك الصغير فاشرق وجهه ، ولكن ذلك الطبيب العجوز تقدم إليه وقال فى صوت اشبه بنعيب الغراب : « من رحمة الله يا ايرنشو ان زوجتك قد عاشت حتى تترك لك مثل هذا الغلام .. فعندما قدمت إلى هنا احسست عن يقين باننا لن نحتفظ بها طويلا .. ومن واجبى ان اخبرك الآن بأن الشتاء القادم قد يجهز عليها ، ولكن لاتزع ولا تدع القلق يستبد بك ، فلا حيلة لنا فى دفع المقدور .. وفضلا عن ذلك فقد كان يجب عليك ان تحسن الاختيار وتتزوج من فتاة غير هذه الفتاة المنهوكة ! »

فسألتها : وبماذا اجاب السيد ؟

ــ احسبه اخذ يسب ويلعن ؛ فلم اكن القى إليه بالا .. كنت اجاهد فى سبيل رؤية الغلام ..

ثم انطلقت من جديد تهذى باوصافه ومحاسنه .. وإذ كنت لا اقل عنها حماسا وشوقا فقد اسرعت إلى البيت فى لهفة ، لامتع ناظرى بمرآه بدورى ، ولو اننى كنت حزينة من اجل هندلى .. فقد كان المسكين يقسم قلبه بين صنمين اثنين ولا مكان فيه لغيرهما : زوجته ، ثم شخصه !.. كان

مشغوفا بالاثنين ، يقدس احدهما ويعبد الآخر ، ولم اكن لاتصور كيف يمكن ان يحتمل هذه الخسارة ..

فلما بلغنا « مرتفعات ويذرنج » ، وجدته واقفا عند الباب الخارجى ، فسألته بينما كنت اهم باجتياز الباب : « كيف حال الغلام ؟ »

فقال وقد علت وجهه ابتسامة وضاءة : « كأنما يهم بالجرى فى المنزل يانللى ! » .. فتجاسرت وسألته : « والسيدة ؟ .. علمت ان الطبيب يقول إنها .... »

فقاطعنى وقد تورد وجهه :

ــ لعنة الله على الطبيب !.. إن فرانسيس فى خير حال ، وسوف تكون فى اوج صحتها فى الاسبوع القادم .. هل تصعدين إليها ؟.. حسنا .. ارجو ان تخبريها باننى سوف اذهب إليها إذا ما وعدت بعدم الكلام .. لقد تركتها لانها لا تريد ان تمسك لسانها ، فى حين انها يجب ان تكف عن الكلام كلية .. قولى لها إن مستر كينيث يصر على وجوب التزامها السكون .. وقد ابلغت هذه الرسالة إلى مسز ايرنشو ، وكانت تبدو فى حالة معنوية طيبة ، فاجابتنى فى مرح :

ــ إننى ما كدت انطق بكلمة واحدة حتى انطلق إلى الخارج وهو يصيح .. وقد فعل ذلك مرتين يانيللى .. حسنا .. قولى له إننى اعد بعدم الكلام ، ولكن هذا الوعد لا يقيدنى بالا اضحك منه ساخرة !

بالشابة المسكينة !.. لقد ظلت إلى ماقبل موتها باسبوع

وهذا القلب المرح لا يخونها ولا يتخلى عنها .. وكان زوجها يصر فى عناد ، لا بل فى شراسة ، على التأكيد بأن صحتها تطرد فى التحسن يوما بعد آخر .. وعندما أنذره كينيث بأن عقاقيره لن تجدى نفعا فى هذه المرحلة من المرض ، وأنه لا حاجة به لأن يكبده المزيد من النفقات للعناية بها وعلاجها ، أجابه غاضبا :

ـ أعلم أنه لا حاجة بك إلى ذلك حقا ، فهى بخير ولا تحتاج لشىء من علاجك .. إنها لم تمرض بالسل البتة .. لقد كان ما بها حمى عادية ، وقد زالت الآن .. فنبضها بطىء كنبضى ، ووجناتها باردة كوجنتى !

ولقد قال لزوجته هذه القصة نفسها ، وكان يبدو عليها أنها تصدقه .. ولكن حدث أن كانت تستند إلى كتفه ذات ليلة ، تقول إنها تجد نفسها قادرة على مغادرة الفراش فى الغد . عندما ألمت بها فجأة نوبة من السعال ـ نوبة بسيطة فى الواقع ـ فرفعها بين ذراعيه ، وعندئذ وضعت يديها حول عنقه ، وتبدلت أساريرها ، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة ..

وهكذا صار أمر الطفل «هيرتون» بين يدى كما قدرت الخادم الصغيرة يوم ولادته .. وكان مستر إيرنشو لا ينفك راضيا مادام يراه فى صحة جيدة ، ولا يسمع له بكاء أو صراخا . وهذا كل ما كان يهمه من أمره .. أما هو فقد تملكه اليأس والقنوط ، وكان حزنه من ذلك النوع الدفين الذى لا يعرف المظاهر الصاخبة .. فما سمعه أحد قط ينشج ببكاء أو يتمتم بصلاة ، وإنما كان دائم السخط والسباب ، ويصب اللعنات

على السماء والناس على السواء ، ويستسلم إلى الخمر والتبذل على نحو مدمر .. ولم يستطع الخدم احتمال طغيانه وسوء خلقه طويلا ، فلم يبق فى خدمته سوى جوزيف وسواى .. فلم يطاوعنى قلبى على التخلى عن مهمتى ، كما أننى ـ كما تعلم ـ كنت أخته فى الرضاع ، وفى وسعى أن أغفر له مسلكه أكثر مما يفعل شخص غريب آخر .. وأما جوزيف فقد بقى ليبسط نفوذه وغطرسته على المستأجرين والعمال ، ولأن رسالته فى الحياة ، كما يعتقد ، هى أن يوجد حيث تكثر الشرور والمنكرات فيقومها بلسانه اللاذع ..

وكان المسلك السىء السيد ورفقاء السوء الذين يصاحبهم ، أسوأ مثال لكاترين وهيثكليف .. كما أن معاملته للأخير كانت خليقة بأن تجعل من القديس شيطانا .. وفى الواقع أن الصبى كان يبدو فى تلك الحقبة كأنما تملكته روح شيطانية شريرة .. وكان شديد الغبطة بأن يشهد انحدار هندلى إلى أحط الدرك ، ولكنه كان بدوره يزداد يوما بعد يوم فى الشراسة والوحشية ..ولن أستطيع أن أصف لك نصف ما كان عليه ذلك البيت الجهنمى الذى كنا نعيش فيه وتنشد .. حتى لقد عزف القس عن زيارتنا أخيرا وقاطعنا كل شخص محترم من جيراننا ، اللهم إلا إذا كانت زيارات ادجار لينتون لمس كاثى هى الاستثناء الوحيد من ذلك .. وكانت وهى فى الخامسة عشرة ملكة القاطعة بلا منازع أو منافس .. ولكنها انقلبت إلى مخلوقة متعجرفة عنيدة صلبة الرأى .. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إننى لم أعد أحبها بعد أن مرت بمرحلة الطفولة ، فكنت

لا أفتأ أغيظها بمحاولة الغض من شأنها وتحطيم غرورها .. ومع ذلك لم تحقد علي أو تكرهني ، إذ كانت على ثبات عجيب في ودها القديم .. وحتى هيثكليف ظل محتفظا بمكانته المرموقة في عاطفتها دون أن يطرأ عليها تبديل أو تغيير ، بحيث وجد لينتون الشاب من العسير — رغم سمو مركزه — أن يكون له أثر عميق في نفسها مثلما كان لهيثكليف . لقد كان مستر لينتون مخدومي السابق ، وها هي ذي صورته معلقة فوق المدفأة .. وكانت عادة معلقة على أحد جانبيها ، بينما كانت صورة زوجته على الجانب الآخر .. ولكن صورتها رفعت من مكانها ، ولولا ذلك لرأيت شيئا مما كانت عليه .. فهل بوسعك أن تستشف شيئا من صورة مستر لينتون ؟

ورفعت مسز دين الشمعة إلى أعلى ، فتبينت وجها لين الأسارير يشبه إلى حد غريب تلك السيدة الشابة التي رأيتها في (المرتفعات) ، ولكنه أكثر منها استغراقا في التفكير وفي التعبير .. كانت صورة جميلة حقا .. وكانت الغدائر الشقراء الطويلة تتموج فوق الصدغين ، كما كانت العينان واسعتين تبدو فيهما الرزانة والجد .. أما الجسم فكان في مجمله رشيقا جميلا .. ولم أعجب كيف استطاعت كاثرين إيرنشو أن تنسى صديقها القديم في سبيل مثل هذا الشخص ، ولكني عجبت أكثر كيف استطاع أن يحب كاثرين إيرنشو كما أتصورها ، إذا كانت عقليته تتفق مع ما يبدو من صورته ..

وقلت لمديرة المنزل : « إنها صورة جميلة حقا .. أكان هو في الحقيقة يشبه صورته هذه ؟ » .. فأجابت :

— نعم .. ولكنه كان يبدو خيرا منها إذا ما كان مسرورا .. إنها تحمل طابعه المألوف العادي ، وقد كان بصفة عامة تنقصه الحيوية ..

واستأنفت مسز دين حديثها فقالت :

— وقد احتفظت كاثرين بصداقتها لآل لينتون منذ أن أقامت بينهم تلك الأسابيع الخمسة .. وقد كانت لا تميل إلى إظهار ذلك الجانب من سوء خلقها وهي في صحبتهم ، وكانت من اللباقة بحيث تخجل من إظهار خشونتها في ذلك الوسط الذي تلمس فيه البشاشة والخلق المهذب دواما ، فقد استطاعت — دون قصد أو عمد — أن تخدع السيد والسيدة العجوزين ، بلطفها المتكلف في براعة ، وأن تنال إعجاب ايزابيلا ، وتأسر قلب شقيقها وروحه .. وكان بلوغها ذلك كله قد تملق غرورها منذ البداية ، لأنها كانت مليئة بالمطامع ، وقادها إلى سلوك مسلك مزدوج دون أن تقصد تماما خداع أحد .. كانت حيث تسمع هيثكليف ينعت بمثل هذه الأوصاف « ذلك الخبيث المنحط الصغير » ، أو « إنه أسوأ من الحيوان المتوحش » ، تعنى بألا تفعل مثله أو تظهر بمظهره !.. أما في البيت فقد كانت قليلة الميل إلى الأدب والتهذيب ، لعلمها أنهما لن يجلبا لها سوى السخرية والضحك ، ومن العبث أن تقيد نفسها بطبيعة متكلفة غير حقيقية لن تنال عليها مدحا أو ثناء ..

وكان مستر ادجار قلما يستجمع شجاعته ليزور « مرتفعات ويذرنج » علنا .. فقد كان يفزع من سمعة هندلي السيئة ،

وينفر من الالتقاء به .. ومع ذلك فقد كان يلقى منا جميعا اقصى ما نستطيع إظهاره من ضروب الحفاوة وحسن المقابلة ، بل إن السيد نفسه كان يتجنب الإساءة إليه ، لعلمه بالباعث على زياراته تلك ، وكان إذا شعر بأن حالته لا تساعده على الظهور بمظهر الرقة واللين ، اعتزل الشابين واختفى من انظارهما .. بل احسب ان كاثرين نفسها كانت لا ترتاح كثيرا إلى ظهور ادجار لينتون فى (المرتفعات) ، بحكم انها لم تكن على شيء من الدهاء او المكر ، او تصنع الدلال الذى كان ابعد شيء عن طبيعتها ، ومن ثم كانت تتحاشى التقاء صديقيها معا بكل الوسائل .. لانه إذا ابدى هيثكليف احتقاره لليتنون فى مواجهته ، فإنها لا تستطيع ان توافقه تماما ، كما كانت تفعل فى غيبته . وعندما يظهر لنتون اشمئزازه ونفوره من هيثكليف فإنها لا تجرؤ على تجاهل مشاعره ، كانما ازدراء رفيق صباها امر قليل الاهمية فى نظرها . وهكذا اتيحت لى الفرصة مرارا لاضحك من حيرتها ومن متاعبها الدفينة ، التى كانت تجهد فى إخفائها عنى حتى لا اسخر منها .. وقد يبدو من ذلك ان لى طبيعة شريرة ، ولكنها كانت من الكبرياء والعجرفة بحيث غدا من المحال ان يشفق المرء على آلامها ومتاعبها ، ما لم يضطرها الإذلال إلى ان تطامن من غلوائها ، ويدفعها إلى التواضع .. وقد اضطرت اخيرا إلى ان تلجا لى لتصارحنى بمتاعبها وتطلعنى على سرها ، إذ لم يكن ثمة إنسان آخر سواى تجد فيه الناصح والمعين ..

حدث ذات يوم أن بارح مستر هندلى المنزل بعد الظهر ،

فإذا بهيثكليف يجد من الجراة ما يزعم معه انه منح نفسه إجازة من العمل لهذه المناسبة .. وكان فى ذلك الحين – فيما احسب – قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، ودون ان يكون دميم الخلقة او ناقص العقلية كان ، بتجهمه الدائم ، يشيع حوله شعورا بالنفور منه ، ويوحى بنفوره من الناس ، الامر الذى خلا منه مظهره الحالى .. ولعل اهم ما كان يحدوه إلى ذلك هو انه كان فى تلك الفترة من حياته قد اضاع ثمرة تعليمه المبكر ، إذ ان العمل الشاق المتواصل ، الذى يبدا من البكور ولا ينتهى إلا فى وقت متاخر ، قد قضى على اية رغبة كانت تتملكه نحو مواصلة تعليمه ، وقتل فيه اى ولع بالكتب او الدراسة .. وكان الشعور الذى لازمه فى طفولته ، بسموه ورفعة شانه ، والذى اشربه قطرة فقطرة من تدليل مستر ايرنشو الكبير له ، قد ذاب وتلاشى امام الواقع الاليم .. وكان قد ظل يناضل طويلا فى سبيل الاستمرار فى الدرس مع كاثرين سواء بسواء ، ولكنه ما لبث ان استسلم لعجزه فى حزن موجع ، وإن كان حزنا صامتا مكبوتا .. على ان استسلامه كان كاملا ، فلم يعد ثمة سبيل لإقناعه بان يخطو خطوة نحو الارتقاء – بينما كان يرى نفسه مسوقا – رغم انفه – إلى الانحدار دون مستواه السابق .. عندئذ اتخذ مظهره الشخصى من نضوبه العقلى رفيقا يزامله ويانس إليه ، فاصبحت مشيته بطيئة خاملة ، وغدا مظهره بشعا مقيتا . وازداد إغراقا فى تحفظه وتجهمه الطبيعيين حتى صارا غلوا سخيفا فى النفور من الناس وتنكب طريقهم !.. بل لقد كان

يجد متعة شيطانية فى إثارة اشمئزاز معارفه القلائل اكثر من استجلاب تقديرهم واحترامهم !

وكان هو وكاترين لا يزالان رفيقين متلازمين فى ساعات راحته واوقات عمله على السواء .. ولكنه كف عن إظهار ولعه بها بالكلمات ، بل غدا ينفر فى ريبة وغضب من ملاطفتها البريئة الصبيانية ، كأنما كان يحس بأن إغداق مثل هذه المظاهر العاطفية عليه لا يمكن ان يكون له جزاء يرجى او ثمرة تؤتى أكلها ..

وعندما اتى إلى حجرة الجلوس فى ذلك اليوم ليعلن عزمه على الراحة والانقطاع عن العمل ؛ كنت اعاون مس كاثى فى استكمال زينتها وتنظيم ثوبها .. فانها لم تقدر قط ان تقوم فى راسه فكرة الاخلاد إلى الكسل والبلادة ، وإذ خالت ان الدار سوف تخلو لها فقد عمدت إلى ابلاغ مستر ادجار ـ بوسيلة ما ـ بغياب اخيها ، وكانت وقتئذ تتاهب لاستقباله ..

فسألها هيثكليف :

ـ اتراك مشغولة هذا المساء يا كاثى ؟ .. او هل تنوين الخروج ؟

ـ كلا .. فالمطر ينهمر كما ترى ..

ـ ولماذا ترتدين هذا الثوب الحريرى إذن ؟ .. لعلك لا تنتظرين احدا ؟ .

فغمغمت الآنسة متلعثمة :

ـ لست ادرى شيئا عن مقدم احد .. ولكن كان ينبغى ان

تكون فى الحقل الآن يا هيثكليف ، فلم تمض إلا ساعة واحدة منذ الغداء ، وقد حسبتك خرجت لعملك ..

ـ إن هندلى قلما يريحنا من محضره اللعين ، ولذلك لن اعمل شيئا اليوم ، وسوف ابقى معك ..

فازداد ارتباكها ، وقالت :

ـ اوه ! .. ولكن جوزيف سوف يخبره ! .. فمن الخير إذن ان تذهب لعملك ! .

ـ جوزيف مشغول فى تسليم اشجار الخشب المقطوعة فى الناحية الأخرى من هضبة (بينستو) إلى المشترين ، وسوف يستغرق منه هذا العمل حتى هبوط الليل ، وبذلك لن يعرف قط ..

وإذ قال ذلك ، مضى فى تكاسل نحو المدفأة ، واتخذ مجلسه بجانبها .. ففكرت كاترين لحظة وقد قطبت حاجبيها ، ووجدت من الضرورى أن تمهد الطريق للزيارة المرتقبة ، فقالت بعد برهة من الصمت :

ـ لقد ذكرت ايزابيلا لينتون وشقيقها انهما قد يحضران بعد ظهر اليوم ، وإن كنت لا اتوقع حضورهما مع هذا المطر المنهمر .. ومع ذلك فقد يحضران ، وإذا حدث ذلك فانك تعرض نفسك للتأنيب بغير داع ..

فمضى فى إصراره ، قائلا :

ـ مرى «نيللى» ان تقول إنك مشغولة يا كاثى ، ولا تطرديني من المنزل من اجل هذين الصديقين السخيفين .. إننى اجد

تفنى احيانا على وشك ان اشكو من انهما .. ولكنى لن افعل ..

فصاحت كاترين وهى تحدق النظر إليه وقد بدا الانشغال فى محياها :

ــ انهما ماذا ؟

ثم استدارت نحوى فى حدة وسخط ، وقد طوحت براسيا بعيدا عن يدى :

ــ اواه يا نللى !.. لقد افسدت تموج غدائرى !.. كفى ذلك الآن ، ودعينى وشأنى .. ما الذى كنت على وشك ان تشكو منه يا هيثكليف ؟

ــ لا شىء .. ولكن انظرى إلى هذا التقويم المعلق على الجدار ..

واشار بإصبعه إلى تقويم معلق بالقرب من النافذة ، واستطرد يقول :

ــ انظرى .. لقد وضعت علامات على الأمسيات التى قضيتها مع آل لينتون ، وعلامات اخرى على تلك التى قضيتها معى .. هل ترين ؟.. اننى لم اترك يوما واحدا دون علامة !

فقالت كاثى فى نبرات مغيظة :

ــ نعم .. وذلك فى غاية الحمق !.. كاننى القى بالى لمثل هذه التوافه .. وما معنى ذلك بالله عليك ؟

ــ معناه اننى « انا » القى بالى إليها ..

فقالت وقد اخذت تزداد غضبا وانفعالا : « وهل ينبغى

ان اجلس معك دائما ؟.. اى خير اجده فى ذلك ؟.. وما هى تلك الأحاديث الطلية التى تطرقها ؟.. انك اشبه بالشخص الابكم او الطفل الغرير فى كل ما تقوله لتسليتى ، وفى كل ما تفعله ، على السواء .. » .

فقال هيثكليف وقد ازداد انفعالا : « ولكنك لم تخبرينى قط من قبل اننى قليل الكلام ، او ان صحبتى لك لا تروقك يا كاثى ! » .

فتمتمت قائلة : « إنها لا تعد صحبة على الإطلاق تلك التى لا يقول الناس فيها شيئا ويجهلون كل شىء .. » .

فاستوى رفيقها على قدميه ، ولكن الوقت لم يتسع له للتعبير عما يخالجه من مشاعر ، إذ سمعنا وقع حوافر الجواد فوق المدخل المرصوف ، وما لبث « لينتون » الشاب أن ولج الحجرة بعد أن طرق الباب فى رفق ، وقد اضاء وجهه بالسرور والغبطة لهذه الدعوة غير المرتقبة التى تلقاها .. وما من ريب فى أن كاترين قد تبينت الفرق بين صاحبيها ، عندما كان احدهما يلج الحجرة ، والآخر يفارقها !.. كان التناقض والتنافر بينهما اشبه بذلك الذى تحسه عندما تخلف ارضا كئيبة ، جبلية ، من اراضى مناجم الفحم السوداء ، إلى واد خصيب جميل .. كما أن صوته ، والطريقة التى يلقى بها التحية ، كانا لا يقلان تناقضا احدهما مع الآخر عن مظهره .. كانت له طريقة رقيقة ناعمة خافتة فى الكلام ، وكان ينطق بكلماته كما تفعل انت ، اى بطريقة اقل فظاظة واكثر لينا ورقة مما نتكلم نحن هنا !

وقال وهو يرمقنى من طرف خفى ، وقد جثوت على ركبتى وبدأت امسح الأطباق وانظم ادراج « البوفيه » : « ارجو الا اكون قد حضرت فى وقت مبكر اكثر مما ينبغى .. » .

فاجابت كاترين : « كلا البتة .. ما هـذا الذى تفعلينه هناك يا نللى ؟ » .

ـ إننى اقوم بعملى يا آنستى ..

(والواقع ان مستر هندلى كان قد امرنى بان اكون طرفا ثالثا فى اية زيارة يقوم بها مستر لينتون على غير انتظار ..)

فتقدمت حتى وقفت خلفى وهمست تقول لى فى غضب وحنق : « اذهبى .. خذى خرقك ومماسحك وامضى إلى الخارج ، فعندما يكون فى البيت زوار يجب ان يكف الخدم عن المسح والتنظيف فى الحجرة التى يجلسون فيها .. » .

فاجبتها بصوت عال : « إنها فرصة طيبة الآن وقد غاب السيد عن البيت ، ان اقوم بعملى ، فإنه يكره ان يرانى اعبث بهذه الأشياء فى حضوره .. ولا ريب ان مستر ادجار سوف يغفر لى ذلك .. » .

فصاحت الآنسة الشابة فى غطرسة وخيلاء ، دون ان تترك لضيفها فرصة للكلام .. وكانت قد تخلت عنها رصانتها واتزانها منذ ذلك الشجار الصغير مع هيثكليف : « ولكنى كذلك اكره ان تعبثى بهذه الأشياء فى حضورى .. » .

فكان جوابى المقتضب : «اننى آسفة لذلك يا مس كاترين !» ثم مضيت اواصل عملى فى اصرار ومثابرة .. وإذ خالت

ان ادجار لا يستطيع رؤيتها ، جذبت الممسحة من يدى فى عنف ، ثم قرصتنى فى ذراعى قرصـة طويلة وهى تلوى اصابعها لتزيد من وجيعتى وتروى غليلها من الانتقام منى .. وقد قلت اننى لم اكن احبها ، ومن ثم كنت اجد متعة بالغة فى قهر كبريائها وغرورها بين الحين والحين ، وكانت قرصتها قد اوجعتنى كثيرا ، وهكذا نهضت من حيث كنت اجثم فوق ركبتى ، وصرخت قائلة :

ـ ما هذا يا آنسة !.. لقد اتيت فعلة بالغة السوء .. فليس من حقك ان تقرصينى ، كما اننى لن احتمل منك هـذا ..

فصاحت فى وجهى : « إننى لم المسك ايتها المخلوقة الكاذبة ! » .

.. بينما كانت اصابعها تتحرق شوقا إلى إعادة الكرة من جديد ، وقد غدت اذناها قرمزيتين من فرط الغضب .. فما كانت قط تجد فى نفسها القوة على إخفاء انفعالها ، وكانت فى مثل هذه الحالات تبدو متوردة الوجه والعنق كأن موقدا يشتعل تحت جلدها ..

وكشفت عن ساعدى لتشهد البقعة الزرقاء على كذبها وصدقى .. فضربت الأرض بقدمها وترنحت لحظة ، وما لبثت ان تغلبت روحها الشريرة على ترددها فرفعت يدها وهوت على وجهى بلطمة شديدة مؤلمة ملأت عينى بالدموع ..

فتدخل ادجار ، وقد عظمت دهشته وفجيعته بهـذه

السقطة المزدوجة التى تردت فيها معبودته : الكذب واستعمال العنف ، وصاح بها :

ـ كاترين !.. حبيبتى كاترين !

ولكنها كانت فى شغل عنه .. فإن هيرتون الصغير ـ الذى كان يتبعنى أينما ذهبت ، والذى كان يجلس على الأرض بالقرب منى ـ ما كاد يرى الدموع فى عينى حتى أخذ يبكى وينشج بالشكوى من « العمة كاتى الشريرة » ، التى تحولت إليه لتصب جام غضبها على رأسه ، فأمسكت بكتفيه وراحت تهزه فى عنف بالغ حتى غاضت الدماء من وجه الطفل المنكود وغدا باهتا كالشمع !.. وعندئذ اندفع ادجار دون تفكير ، وأمسك بكلتا يديها ليخلص الصبى منهما ، فإذا بهما تحرر أحديهما فى سرعة خاطفة ، وإذا بالفتى المشدوه يحس بهذه اليد فوق صدغه بطريقة لا يمكن أن تحدث عفوا .. فتراجع إلى الوراء فى فزع وذعر .. وكنت قد حملت هيرتون بين ذراعى ، ومضيت به نحو المطبخ ، تاركة الباب مفتوحا ، إذ استبد بى الفضول لمعرفة الطريقة التى سيسوى بها هذا الخلاف بينهما ، فرأيت الضيف المهان يمضى إلى حيث كان يضع قبعته ، وكان وجهه شديد الشحوب وشفته ترتجف غضبا وتأثرا .. فقلت لنفسى وكأنى أتحدث إليه : « حسنا تفعل .. وما عليك إلا أن تقتنع بهذا النذير وتهرب بجلدك !.. فمن رحمة الله أن أطلعك على حقيقة خلقها وطباعها ! » .

ولكن كاترين سبقته إلى الباب قائلة : « إلى أين تذهب ؟ »

فتحول ناحية ، وهو يحاول المرور ، ولكنها عادت تصيح فى عزم قوى :

فأمسكت بكتفيه وراحت تهزه فى عنف بالغ حتى غاضت الدماء من وجه الطفل المنكود ..

– لا يجب أن ترحل الآن ..

فأجاب فى صوت خفيض :

– بل يجب أن أرحل ، وسأفعل !

فمضت فى إصرارها ، وهى تمسك بمقبض الباب : « كلا .. ليس الآن يا ادجار لينتون !.. اجلس ، فما ينبغى لك أن تتركنى فى هذه الحالة .. فسوف أشقى بها طول ليلتى ، ولست أريد أن أشقى بسببك ! » .

فقال لينتون : « وهل يوسعنى أن أبقى بعد أن صفعتنى ؟ »

فلم تبس كاثرين بكلمة ، بينما استطرد الفتى يقول : « لقد جعلتنى أخافك وأخجل منك .. ولن أحضر إلى هنا بعد الآن ! » .

فبدأت عيناها تنديان ، وأجفانها تضطرب .. على حين تابع ادجار كلامه : « .. ثم إنك كذبت عن عمد ! » .

فهتفت تقول : « كلا .. لم أكذب عن عمد ، بل ولم أفعل شيئا عن عمد .. حسنا .. إذهب إذا كان يروقك أن تفعل ! .. اذهب ودعنى أبكى حتى يسقمنى البكاء .. » .

وهوت على ركبتيها بجانب المقعد ، ومضت تبكى بكاء حارا متواصلا . وأصر ادجار على عزمه ، ولكن لم يطل إصراره إلا ريثما بلغ الفناء ، حيث بدا يتلكأ مترددا ، فعزمت على أن أشجعه وصحت به من الداخل :

– إن الآنسة شديدة العناد يا سيدى ، وهى أسوأ من طفل مشاكس أفسده التدليل .. فمن الخير أن تمضى إلى دارك ، وإلا فإنها سوف تمرض حقا لتجلب لنا الهم والنكد ..

ولكن الفتى الرقيق اللين كان يسترق النظر من خلال النافذة ، وقد بدا عليه التردد والإحجام ، وبدت عزيمته على الرحيل أشبه بعزيمة هرة على أن تترك جرذا يحتضر ، أو عصفورا أكلت نصفه !.. فأدركت فى قرارة نفسى أنه مقضى عليه بالهلاك ، وأن لا سبيل إلى إنقاذه من القدر الذى يلقى بنفسه بين فكيه .. وهكذا كان .. فما لبث أن تحول بغتة وأسرع إلى حجرة الجلوس ثانية وهو يغلق الباب خلفه ..

فلما ذهبت بعد برهة لأخبرهما بأن ايرنشو فى طريق العودة إلى الدار وقد أطارت الخمر لبه ، وإنه على استعداد لهدم البيت فوق رؤوسنا ، (وهو يغدو دائما فى هذه الحالة العقلية إذا أفرط فى الشراب) إذا بى أجد أن الشجار لم يزدهما إلا وفاقا وقربا ، وأنه قد حطم أسوار الحياء والخجل التى تحوط الشباب الهيابين ، ومكنهما من خلع قناع الصداقة المجردة ، والكشف عما تحته من الحب الذى نشب فى قلبيهما ..

ودفعت أنباء وصول مستر هندلى إلى الدار ، ادجار إلى الإسراع نحو جواده ، ومس كاثرين إلى حجرتها .. أما أنا فقد ذهبت لأخفى هيرتون الصغير ، ولأنزع الطلقات من بندقية السيد ، التى كان مولعا بالعبث بها فى هياجه الجنونى ، مهددا حياة كل من يثيره ، أو يثير انتباهه إليه أكثر مما ينبغى .. وكنت قد دبرت نزع هذه القذائف حتى يقل خطره إذا ما بلغ به الحال إلى حد إطلاق البندقية !

* * *

الفصل التاسع

اندفع هندلى إلى الداخل وهو يصيح بسباب يندى له الجبين ، فلمحنى بينما كنت اقوم باخفاء ولده فى دولاب المطبخ .. وكان هيرتون يحس بفزع مروع من لقاء ابيه والتعرض لولعه الوحشى او هياجه الجنونى على السواء !.. فهو فى الأولى عرضة لأن يظل يقبله ويحتضنه حتى يشرف على الموت ، وفى الثانية عرضة لأن يلقى به إلى النار او يحطم راسه على الجدار .. وهكذا كان الطفل المسكين يظل ساكتا بلا حراك حيثما اردت ان اخفيه عن الانظار ..

وصاح هندلى وهو يجذبنى من جلد قفاى كما يفعل بالكلاب .

ـ هاأنذا قد وجدته اخيرا !.. واقسم بالسماء والجحيم لكم اتفقتم فيما بينكم على قتل هذا الغلام ، وها قد عرفت الآن لماذا تخفونه عن انظارى دائما .. ولكنى بعون الشيطان سوف اجعلك تبتلعين سكين اللحم الكبيرة يا نللى !.. ولا حاجة بك إلى الضحك ، فقد زرعت الآن «كينيث» وراسه إلى أسفل ، فى مستنقع « الحصان الأسود » .. وقتل اثنين كقتل واحد سواء بسواء .. كما ان بى رغبة ملحة فى ان اقتل بعضا منكم ، ولن يهدأ لى قرار حتى افعل !

فاجبته فى هدوء : « ولكنى لا احب مذاق هذه السكين يا مستر هندلى ، إذ كنا نقطع بها الرنجة المجففة .. والافضل ـ إذا شئت ـ ان تطلق على النار .. » .

ـ الافضل ان تنصب عليك اللعنات !.. ولكنك سوف تبتلعين السكين ، فما من قانون فى انجلترا يحول بين الرجل وبين المحافظة على بيته نظيفا محترما .. ولكن منزلى اصبح كريها ممقوتا .. هيا افتحى فمك !

وكان يمسك بالسكين فى يده ، فدفع طرفها بين اسنانى .. ولكنى لم اكن قط اخشى هذيانه هذا ، فبصقت جانبا ورحت اؤكد له ان مذاقها فظيع وذلك لن استطيع ابتلاعها !

عندئذ تخلى عنى ، وهو يقول : « ارى ان هذا المسخ الصغير الشرير ليس هيرتون !.. وارجو المعذرة يا نل ، فلو انه كان هيرتون لاستحق ان يسلخ جلده حيا جزاء عدم إسراعه إلى الترحيب بى ، وصياحه كلما رآنى كاننى عفريت من الجان ! .. تعال هنا ايها الجرو الممسوخ !.. سوف اعلمك كيف تخدع ابا طيب القلب سليم النية !.. والآن يا نللى .. الا ترين ان الغلام سوف يغدو اجمل والطف إذا صلمت اذناه !.. إن ذلك يجعل الكلاب اشد ضراوة ، وانا احب ان اراه شيئا ضاريا .. آتينى بمقص !.. شيئا ضاريا ، وانيقا مشذبا !.. ثم إنها لعاطفة جهنمية وخيلاء شيطانية ان ندلل آذاننا ونكرمها !!.. فنحن حمير بما فيه الكفاية بدونها !.. صه يا غلام !.. صه .. حسنا إذن .. إنه طفلى الحبيب !.. صه !.. جفف عينيك من هذه الدموع اللعينة واضحك لى .. قبلنى !.. ماذا ؟!.. إنه لا يريد ان يقبلنى ؟ .. قبلنى يا هيرتون !.. لعنة الله عليك .. قبلنى إذن !..

يا إلهى !.. هل يمكن ان انجب مثل هذا الوحش !.. والله لاحطمن عنق هذا الجرو ما دمت حيا ! » .

وكان هيرتون المسكين يصرخ ويرفس بقدميه ، وهو بين ذراعى والده ، بكل ما فى بدنه الصغير من قوة ، ثم ازدادت صيحاته وتضاعفت عندما حمله وصعد به الدرج وقد رفعه فوق (الدرابزين) .. فصحت به انه سيخيف الغلام حتى لقد يصيبه الصرع ، واسرعت خلفه لانقذه من يديه . وما كدت ابلغ مكانه حتى مال هندلى إلى الامام فوق قضبان السياج ليصغى إلى خطوات انبعثت من الطابق الاسفل مقتربة من الدرج ، وقد نسى ما كان يحمله بين يديه ، وهو يسال هادرا : « من هناك ؟ » .. وانحنيت إلى الامام بدورى لاشير إلى هيثكليف ، الذى عرفت وقع قدميه ، الا يتقدم اكثر من ذلك .. وفى اللحظة التى فارقت عيناى فيها هيرتون ، قفز الغلام بغتة ، وتخلص من القبضة الرخوة التى كانت تمسك به فى غير عناية ، ثم سقط إلى اسفل ..

ولم يتسع لى الوقت لاحس هزة الهلع التى اعترتنى ، قبل ان ارى المنكود الصغير سليما معافى ؛ فقد وصل هيثكليف إلى اسفل الدرج فى اللحظة الفاصلة ، وبدافع طبيعى ، لاشعورى ، تلقى الغلام بين يديه ، ووضعه على الارض ، ثم رفع عينيه إلى اعلى ليرى من كان السبب فى الحادث .. ولو ان شخصا شحيحا تخلى من ورقة نصيب محظوظة فى سبيل خمسة شلنات ، ثم علم فى اليوم التالى انه خسر فى هذه الصفقة خمسة آلاف جنيه ، لما بدا وجهه اشد امتقاعا

وشحوبا مما بدا عليه وجه هيثكليف عندما راى مستر ايرنشو باعلى الدرج .. كان وجهه يعبر ، فى وضوح تقصر عنه الالفاظ ، عن اله البالغ إذ جعل من نفسه اداة إحباط انتقامه .. وبوسعى ان اقول إنه لو كان المكان اشد ظلمة ، لاصلح ما افسدته يداه ، ولحطم جمجمة هيرتون على الدرج !.. ولكننا كنا شهود خلاصه ونجاته ، وكنت قد نزلت واخذت ذخيرتى الثمينة بين احضانى ، ورحت اضمها إلى قلبى .. اما هندلى فقد كان اكثر تؤدة فى هبوطه ، وقد افاق من ثمله ، وبدا عليه الخجل والندم وهو يقول :

ـ إنها غلطتك يا نللى !.. كان يجب ان تبقيه بعيدا عن الانظار .. كان يجب ان تاخذيه منى .. هل اصابه اذى من سقوطه ؟

فصحت به غاضبة : « اذى ؟.. إذا كان لم يقتل ، فلانه غبى ابله !.. آه !.. شد ما اعجب كيف لا تقوم امه من قبرها لترى كيف تعامله !.. إنك اسوا من اى كافر ملحد إذ تعامل لحمك ودمك بهذه الطريقة ! » .

فحاول ان يقرب يده من الغلام الذى اطمان إلى وجودى معه فنفث فزعه المكبوت .. ولكن ما كاد ابوه يمسه باصبعه ، حتى انبعث يصيح صياحا عاليا ، ويتقلص جسمه كانما يوشك ان يصاب بنوبة حادة .. عندئذ استطردت اقول لهندلى :

ـ خير لك ان تدعه وشانه ، فإنه يكرهك .. بل إنهم جميعا يكرهونك .. وهذه هى الحقيقة المجردة .. إن لديك اسرة سعيدة ، ولكنك بلغت حالة بالغة السوء .

فضحك الرجل المتحرف وعاودته ضراوته ، وهو يقول :

– ولسوف تزداد سوءا يا نللى .. اما الآن فعليك ان تغربى عن وجهى به .. وانت يا هيثكليف ، امش من هنـا حالا ، وابتعد عن سمعى ومتناول يدى .. إننى لن اقتل احدا منكم الليلة ، إلا إذا راق لى ان اشعل النار فى المنزل كله ..

وبينما كان يقول ذلك ، تناول زجاجة من الخمـر القوية وبدا يصب منها فى قدحه ، وعندئذ رحت اتوســل إليـه قائلة :

– كلا يا مستر هندلى .. بالله لا تفعل ، وخذ مما وقـع نذيرا بسوء العاقبة .. الا اشفق على هذا الغلام التعس ، إذا كنت لا تأخذك الشفقة بنفسك ..

فاجابنى : « إن اى شخص سواى قد يكون خيرا له منى .. »
فقلت وانا احاول ان اخطف الزجاجة من يده :

– هلا اشفقت على روحك من عذاب الآخرة إذن ؟

– لا تنتظرى ذلك منى .. فإنى – على العكس – شد ما يسرنى ان ابعث بها إلى الهلاك ، عقابا لخالقها على ما اقترفت يداه !

وقهقه الكافر المجدف ضاحكا ، ثم رفع قدحه قائلا :

– وهذا نخب لعنتها القلبية !

ثم جرع الكأس دفعة واحدة ، وصاح بنا يأمرنا بالانصراف وهو يشفع امره بوابل من الفاظ السباب القبيحة المروعة التى لا يمكن للمرء ان يرددها او يذكرها ! .. فلما اغلق الباب ، انطلق هيثكليف يردد السباب واللعنات ، ثم قال :

– مما يؤسف له ان الشراب لن يقتله ! .. وهو يبذل غاية جهده فى سبيل هذه الغاية ، ولكن قوة بنيانه تتحداه وتخذله .. لقد قال مستر كينيث إنه يراهن على فرسه بأن هندلى ســوف يعيش اكثـر من اى رجل آخر فى هـذه الناحية من (جيمرتون) ، وسوف يذهب إلى قبره شيخا تثقله الاوزار والخطايا .. هذا ما لم يحل به احد تلك الاحداث السعيدة الخارجة عن المألوف !

ومضيت إلى المطبخ حيث جلست اهدهد حملى الصغير حتى ينام .. اما هيثكليف فقـد خلت انه مضى إلى مخـزن الحبوب فى الخـارج ، ولكنى تبينت بعـد ذلك انه لم يمض إلى ابعد من الناحية الاخرى للاريكة ذات الظهر المرتفع ، حيث القى بنفسه فوق مقعـد طويل بجوار الجـدار ، بعيدا عن النار ، حيث لبث ساكنا بغير حراك .. وكنت اهز هيرتون فوق ركبتى واترنم باغنية : اهدهده بها ، عندما اتت مس كاثى – التى كانت تصغى إلى الضجيج من حجـرتها – فاطلت براسها من الباب وهمست قائلة :

– هل انت وحدك يا نللى ؟

– نعم يا آنستى ..

فدخلت واقتربت من المدفأة وعندئذ رفعت انظارى إليها وقد خلت انها على وشك ان تقول شيئا ، فاذا بى اجدها وقد انعقدت فى محياها سحابة من الهم والقلق .. وكانت شفتاها منفرجتين ، كأنما كانت تهم بالكلام ، ولكنها تنفست فى قوة فاذا تنفسها اشبه بتنهد عميق بدلا من العبارة التى

كانت تنوى قولها .. وعدت إلى الترنم بأغنيتى ، دون أن ابالى بها ، فلم اكن نسيت بعد فعلتها الأخيرة معى .. فقاطعتنى قائلة :

ـ اين هيثكليف ؟

ـ إنه يقوم بعمله فى الحظيرة ..

فلم يعارضنى .. ولعله كان قد اخذته سنة من النوم .. وتلت ذلك فترة طويلة من الصمت لمحت فى خلالها قطرات من الدمع تنساب فوق وجنتى كاثى وتسقط على البلاط .. فتساءلت فى قرارة نفسى : اتراها آسفة نادمة على مسلكها الشائن ؟.. إن ذلك يعد تطورا جديدا فى طباعها !.. ولكن عليها أن تتحدث من تلقاء نفسها ، فلن امد لها يد المعونة !.. ولكن لا .. فهى لا تعنى اقل عناية باى شىء عدا ما يخصها ويهمها ، لفرط أنانيتها !.. واخيرا صاحت قائلة :

ـ أواه يا عزيزتى !.. إننى تعسة شقية !

فقلت فى غير اكتراث :

ـ واأسفاه !.. إن من الصعب مرضاتك يا فتاتى !.. افلا تستطيعين الشعور بالرضى والسعادة ، على كثرة اصدقائك وقلة همومك ؟

فركعت إلى جانبى ورفعت نحوى عينيها الساحرتين وفيهما تلك النظرة التى تذهب بغضب المرء حتى لو كان لديه كل الحق فى التمسك به ، ثم غمغمت تقول :

ـ نللى .. هل تكتمين لى سرا ؟

فقلت وقد لانت اساريرى : « اترينه يستحق الكتمان ؟ »

ـ نعم .. وهو يضايقنى كثيرا ، ولا بد لى من ان افرج عن صدرى بإفشائه لك .. لقد طلب إلى ادجار لينتون اليوم ان اتزوج منه .. وقد اعطيته جوابى .. ولكنى قبل ان اقول لك إن كان قبولا أم رفضا ، اود أن تخبرينى بما كان ينبغى ان يكون عليه ..

ـ وكيف يمكننى حقا ان اعرف يا مس كاثرين ؟.. ولكننا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المشهد الذى قمت بتمثيله فى حضوره بعد الظهر ، فمن الحكمة ان ترفضى طلبه .. لانه ما دام قد طلب يدك بعد ذلك المشهد ، فهو إما ان يكون شخصا اخرق لا امل فى شفائه ، أو غبيا ابله لا يقدر عواقب الامور !

فاستوت واقفة وهى تقول فى حنق :

ـ إذا مضيت فى الكلام بهذه النغمة ، فلن اخبرك بشىء بعد ذلك .. والآن ، لقد قبلته يا نللى ! .. فاسرعى واخبرينى هل كنت مخطئة فى ذلك !

ـ إذا كنت قد قبلته ، فما جدوى مناقشة الأمر من جديد ؟.. لقد اعطيته كلمتك ، وليس فى وسعك أن تسحبيها ..

فصاحت فى ضيق وهى تفرك يديها وتقطب جبينها :

ـ نعم .. ولكن قولى هل كان يجب ان افعل ذلك .. تكلمى !

فقلت متمهلة وانا ازن كلماتى :

ـ هناك أشياء ينبغى بحثها والتفكير فيها قبل الإجابة على

هذا السؤال إجابة صائبة .. فأولا ، وقبل كل شيء ، هل تحبين مستر أدجار ؟

– ومن ذا الذى يستطيع الا يحبه ؟.. نعم ، احبه ، طبعا !

عندئذ مضيت استجوبها فى إلحاح شديد – فمن الحكمة ان افعل ذلك مع فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها ! – قلت :

– ولماذا تحبينه يا مس كاثى ؟

– هراء !.. إننى أحبه ، وهذا يكفى !

– كلا البتة .. بل يجب ان تقولى لماذا تحبينه ؟

– حسنا .. لأنه وسيم الطلعة ، رقيق المعشر ..

– سبب سخيف !

– ولأنه شاب فى مقتبل العمر ، مرح لطيف ..

– وهذا سبب سخيف أيضا ..

– ولأنه يحبنى ..

– ذلك لا يغير من الأمر شيئا !

– وسوف يغدو غنيا .. وشد ما احب ان اكون اعظم سيدة فى هذه الأنحاء كلها ، ومن بواعث زهوى وفخارى ان يكون لى مثل هذا الزوج ..

– وهذا اسوأ الأسباب التى ذكرتها . والآن خبرينى كيف تحبينه ؟

– كما يحب كل إنسان .. ما هذا السخف يا نللى ؟

– كلا البتة .. اجيبى على سؤالى !

– احب الأرض التى تحت قدميه ، والهواء الذى يحوط راسه ، وكل شيء يلمسه ، وكل كلمة يقولها .. احب كل نظراته ، ولفتاته ، وكل ما يقوله ويفعله .. احبه بكل ما فيه ، كل الحب .. فماذا تريدين بعد ذلك ؟

– ولكن لماذا ؟

– لا .. لقد انقلب الامر لديك إلى مهزلة ! .. وهذا إفراط فى حب المشاكسة يا نللى !.. الا اعلمى إذن اننى لا اتخذ هذا الأمر هزلا او مزاحا ..

قالت السيدة الشابة ذلك وقد علا وجهها العبوس وادارت ظهرها ناحيتى مستقبلة المدفأة .. فبادرت اقول :

– إننى بعيدة عن الهزل كل البعد يا مس كاثرين .. فأنت تحبين مستر ادجار لأنه وسيم الطلعة ، ولأنه شاب ، ولأنه مرح ، ولأنه غنى ، ولأنه يحبك .. ومهما يكن من أمر فإن السبب الأخير لا قيمة له البتة .. فقد تحبينه دون ان يحبك .. وقد لا تشعرين نحوه بالحب برغم حبه لك ، ما لم تكن له الميزات الأربع الأولى !

– كلا .. لا شيء من ذلك البته .. بل إننى كنت لأشفق عليه ، واكرهه ، لو كان قبيح الصورة ، او اشبه بمهرجى الملاعب !

– ولكن هناك فى هذا العالم الكثير من الشبان الأثرياء الذين لا يقلون عنه وسامة وبهاء ، ان لم يزيدوا ، فما الذى يمنعك من ان تحبيهم ؟

ـ إذا وجد أمثال هؤلاء ، فإنهم يبعدون عن طريقي .. ولم الق في حياتي احدا يماثل ادجار ..

ـ قد تلقين بعضا منهم .. ثم انه لن يظل طول حياته وسيم الطلعة شابا ، وقد لا يكون ثريا على الدوام ..

ـ ولكنه كذلك الآن ، وليس يهمني سوى حاضري .. ليتك تتكلمين في تعقل يا نللي ..

ـ حسنا .. هذا يحسم الأمر ، وما دمت لا تهتمين إلا بحاضرك ، فتزوجي بمستر لينتون !

ـ إنني لا اطلب اذنك كي ازوجه ؛ فسوف افعل ذلك .. ومع ذلك فانك لم تخبريني هل اصبت في ذلك ؟

ـ بل اصبت تماما ، إذا كان الناس يصيبون عندما يتزوجون من اجل حاضرهم ، دون مستقبلهم !.. ولنستمع الآن إلى همومك واسباب شقائك . إن اخاك سوف يطرب لهذا الأمر ، ولست اعتقد ان السيد لينتون والسيدة زوجته سوف يثيران اي اعتراض . وسوف تفرين من دار مليئة بالفوضى ، لا راحة فيها ولا استقرار ، إلى دار محترمة ذات سعة وثراء ووقار .. ثم انك تحبين ادجار ، وهو يحبك .. كل شيء إذن مذلل ميسور .. فأين المتاعب والشقاء إذن ؟

فصاحت كاثرين وهي تضرب بإحدى يديها على صدرها وبالأخرى على جبينها :

ـ هنا .. ثم هنا ! .. او حيثما تسكن الروح والنفس في جوارح الجسد .. فانني في قرارة نفسي ، وفي اعماق قلبي ، اشعر بانني قد اخطأت !

ـ هذه غاية العجب يا آنستي ، وصدقيني انني لا افهم من الأمر شيئا !

ـ إنه سري .. ولكن إذا وعدتني بالا تسخري مني فسوف افسر لك الأمر . وقد لا استطيع بيانه في وضوح وجلاء ، ولكني ساجعلك تحسين بما يخالجني من مشاعر ..

واتخذت مجلسها بجواري فوق الأريكة ، واكتست اساريرها لمحة من الحزن والاكتئاب ، وسرت الرعدة في يديها المتشابكتين .. وبعد ان اخلدت إلى التفكير العميق لحظة ، قالت فجاة :

ـ ألم ترى في نومك احلاما غريبة قط يا نللي ؟

ـ نعم .. يحدث لي ذلك من حين إلى حين ..

ـ كذلك انا .. لقد رايت في حياتي احلاما لازمتني بعد ذلك دائما ، وغيرت الكثير من آرائي .. بل لقد راحت تمتزج بي ، وتتغلغل في كياني ، كما يمتزج النبيذ بالماء ، فيتغير لون تفكيري .. وهاك واحدا منها .. سوف اقصه عليك ، ولكن حاذري من ان تضحكي من اي جزء منه !

فصحت اقاطعها : « لا ، لا تفعلي يامس كاثرين .. فلدينا من اسباب الفزع والكآبة ما يكفينا دون حاجة إلى استحضار الاشباح والأرواح لتزيد من كربنا وخبلنا .. هيا عودي إلى طبيعتك المرحة كعهدي بك دائما .. انظري إلى هيرتون الصغير .. انه لا يحلم بشيء مفزع ، وما احلاه وهو يبتسم في نومه ! » .

– نعم .. وما أحلى أباه وهو يسب ويلعن فى وحدته !.. أظنك مازلت تذكرينه يا نللى عندما كان صورة أخرى من هذا الصغير السمين ، وفى مثل سنه وبراءته .. ولكن مهما يكن من أمر يا نللى فسوف أرغمك على الاستماع إلى حلمى .. انه ليس طويلا ، كما أننى الليلة بعيدة كل البعد عن الرغبة فى المرح والانبساط ..

فرحت أردد فى عجلة : « كلا .. لن أسمعه !.. لن أسمعه ! » .

والواقع أننى كنت شديدة التعلق بالخرافات والأوهام ، وما زلت كذلك حتى الآن .. ولقد كانت كاثرين فى تلك الليلة فى حالة غريبة غير مألوفة من الكآبة والانقباض جعلتنى أفزع مما قد تقوله فأرى فيه نبوءة مشئومة ، أو أتكهن بكارثة مروعة !.. وقد تضايقت هى من رفضى الإصغاء إليها ، ولم تمض فى روايتها ، بل تظاهرت بأنها سوف تطرق موضوعا آخر ، فقالت بعد قليل :

– لو أننى كنت فى السماء يا نللى لكنت شقية تعسة !

– لأنك لست أهلا للذهاب إلى السماء .. فالخاطئون جميعا يجدون الشقاء والتعاسة فى السماء ..

– ليس هذا هو السبب .. لقد حلمت مرة أننى كنت هناك !

فقاطعتها ثانية ، صائحة : « قلت لك إننى لا أنوى الإصغاء إلى أحلامك يا مس كاثرين .. سوف أذهب إلى فراشى ! » .

وإذ رأتنى أهم بالنهوض ، تضاحكت وأمسكت بى فى مكانى قائلة : « رويدك ، فلن أضايقك كثيرا .. كنت فقط أهم بأن أقول لك إن السماء لا يبدو أنها تصلح لى مقرا وسكنا .. فقد تمزق قلبى من البكاء كى أعود إلى الأرض حتى غضبت الملائكة منى غضبا شديدا ، فأخذتنى وطوحت بى من السماء فسقطت فى وسط الأحراش فوق « مرتفعات ويذرنج » ، وصحوت وأنا أبكى من الفرح .. وهذا وحده يكفى لتفهمى سرى يا نللى .. فما خلقت للزواج من إدجار لينتون ، كما لم أخلق لأجد فى السماء مقرا لى وسكنا .. ولو أن ذلك المنكود الشرير – الذى هو أخى – لم يهبط بهيثكليف إلى الدرك الأسفل ، لما فكرت فى هذا الزواج .. أما الآن فإن زواجى من هيثكليف يحط من قدرى ويسقط من شأنى ومكانتى .. لذلك فإنه لن يعرف أبدا كم أحبه . وليس حبى له لأنه بهى الطلعة يا نللى ، ولكن لأنه أشبه بى منى ، وأقرب إلى قلبى من نفسى !.. ومهما كانت طبيعة الشىء الذى تصنع منه الأرواح ، فإن روحى وروحه صنعتا من عنصر واحد .. أما لينتون فعلى خلافنا ، كالفرق بين شعاع القمر والبرق ، أو بين الجليد والنار ! » .

وقبل أن تفرغ من عبارتها ، أحسست بوجود هيثكليف معنا .. فقد لاحظت حركة يسيرة ، فأدرت رأسى ورأيته ينهض من فوق المقعد ويتسلل خارجا بغير حس أو صوت . كان قد ظل يصغى حتى سمع كاثرين تقول إن زواجها منه يحط من قدرها ، فلم يشأ أن يبقى ليسمع المزيد مما تقول..

وكانت رفيقتى تجلس على الارض ، وقد حال ظهر الاريكة دون ان تحس بوجوده او رحيله ، ولكنى اجفلت وصحت اطلب إليها الصمت ..

فسالتنى وهى تتفرس حواليها فى قلق : « لماذا ؟ »

فاجبتها ، وقد اسعفتنى اصوات عجلات مركبة فى الخارج :

ـ لقد جاء جوزيف ، وسوف ياتى هيثكليف إلى هنا معه .. بل إنى لست واثقة من انه لا يقف عند الباب فى هذه اللحظة !

ـ اوه !.. إنه لا يستطيع ان يسمعنى من وراء الباب .. اعطينى هيرتون ، ريثما تعدين لنا العشاء ، وعندما تفرغين من إعداده فاطلبى إلى ان اتناول عشائى معك ، لانى اريد ان اخادع ضميرى القلق ، واقنع نفسى بان هيثكليف لا يدرك معنى لهذه الاشياء .. إنه لا يدركها يا نللى .. وهو لا يعرف معنى الوقوع فى الحب .. اليس كذلك ؟

فقلت فى دهشة : « لست ارى سببا يحول دون معرفته له ، كما تعرفينه .. ولو ان قلبه قد وقع اختياره عليك انت فإنه سوف يغدو اشقى مخلوق ولدته انثى على الإطلاق .. وما ان يصبح اسمك « مسز لنتون » حتى يكون قد فقد الصديق ، والحب ، وكل شىء !.. هل فكرت كيف يمكنك احتمال هذا الفراق ، وكيف يمكن ان يطيق هو احتماله ، عندما يجد نفسه منبوذا مهجورا فى هذا العالم ؟ »

فقاطعتنى وهى تهتف فى استنكار : « منبوذا مهجورا ؟..

فراق وهجران ؟.. منذا الذى يستطيع ان يفرق بيننا بالله عليك ؟ لن يحدث ذلك ما دمت حية يا إيلين(١) ! ولن اقدم عليه من اجل مخلوق من البشر !.. فليفن كل لينتون على وجه الارض ، وليتلاش ويصبح عدما فى عدم ، قبل ان افكر فى هجر هيثكليف او التخلى عنه .. اوه ، كلا .. ليس ذلك ما انويه ، ولا ما اعنيه .. وما كنت لأصبح مسز لينتون قط لو كان ذلك هو الثمن المنشود .. سوف يظل عندى مثلما كان طول حياته ، ويجب على ادجار ان ينفض عنه كراهيته له ، ويحتمل لقاءه ورؤيته على الأقل .. ولسوف يفعل عندما يعلم حقيقة شعورى نحوه .. وها قد رايت الآن يا نللى انك كنت تظنيننى انانية تعسة .. ولكن الم يخطر لك قط انى لو تزوجت من هيثكليف فسنغدو فقيرين شحاذين ، على حين انى لو تزوجت من لينتون فسيكون فى وسعى ان اعين هيثكليف على النهوض ، واضعه حيث يكون بمنجاة من سطوة اخى وسيطرته ؟ » .

ـ اتفعلين ذلك بنقود زوجك يا مس كاترين ؟.. إنك لن تجديه لين العريكة إلى الحد الذى تعتمدين عليه !.. ثم إننى اعتقد ـ دون ان يكون من شانى الحكم على ما تفعلين ـ ان ذلك اسوا ما ذكرته من بواعث تدفعك للزواج من لينتون !

فاجابت قائلة : « كلا .. إنه خيرها واقواها . إن الأخرى

---

(١) « ايلين » ، او « نيللى » ، او « مسز دين » ، كلها اسماء لامراة واحدة .

كانت لإرضاء أهوائي وإشباع نزواتي ، ومن أجل إدجار لينتون أيضا ، لإرضاء رغبته .. وأما هذا الباعث فإنه من أجل من يشتمل في شخصه على كل مشاعري نحو إدجار ، وعلى أنا نفسي !.. إنني لا أستطيع التعبير عما يدور بخلدي ، ولكن من المحقق أنك ، وكل إنسان آخر ، تعلمين أنه يوجد ــ أو يجب أن يكون هناك ــ كيان آخر لك خارج هيكلك !.. وإلا فأية فائدة كانت من خلقي إذا كنت بكليتي سجينة هذا الجسد !.. إن أعظم ما لقيت من شقاء وهموم في هذه الدنيا إنما هما شقاء هيثكليف وهمومه التي كنت أرقب كلا منها وأحسه وأعيش فيه منذ البداية .. وغاية حياتي ومنتهاها إنما هي هيثكليف نفسه . فلو هلك كل من عداه ، وبقي هو ، لبقيت أنا الأخرى متصلة الكيان والوجود . ولو بقي كل شيء آخر ، وفنى هو ، لغدا الوجود كله غريبا عني ، لا أحس بأني جزء منه !.. إن حبي للينتون أشبه بأوراق الشجر في الغابة ، يغيرها الزمن ويغير عليها ــ وهذا ما أحسه من الآن ــ كما يغير الشتاء على أوراق الأشجار .. وأما حبي لهيثكليف فأشبه بتلك الصخور الخالدة تحت الأرض ، قد لا تكون مصدر بهجة ظاهرة ، ولكنها ضرورية كالأزل !.. نللي !.. إنني هيثكليف !.. وهو أبدا في عقلي وفي فكري ، لا كمتعة أو ملهاة ، إلا بقدر ما يمكن أن أكون أنا متعة وملهاة لنفسي .. ولكنه كياني ووجودي نفسه .. فلا تتحدثي عن فراقنا مرة ثانية لأن ذلك أمر مستحيل الوقوع عمليا .. و .. » .

وكفت عن الحديث بغتة ، وهي تخفي وجهها بين طيات

ثوبي .. لكنني دفعتها عني في غير رفق أو لين ، إذ كان صبري قد نفد من حماقاتها ، وقلت :

ــ إذا كنت أجد أي معنى في هرائك هذا يا آنسة ، فإنه يكفي لإقناعي بأنك تجهلين كل شيء عن المسئوليات والواجبات التي يجب أن تضطلعي بها في الزواج .. أو أنك فتاة شريرة لا خلق لها ولا مبادىء !.. فأرجو ألا تشغليني بالمزيد من أسرارك هذه ، لأني لا أعدك بكتمانها !

فقالت في لهفة : « وهل تكتمين هذا ؟ »

فعدت أقول : « كلا .. لست أعدك بذلك أيضا ! »

وكانت تهم بالإلحاح علي في الرجاء ، لولا أن دخل جوزيف في تلك اللحظة فوضع حدا لحديثنا .. وانتحت كاثي ناحية ، وأخذت هيرتون في حجرها ، بينما انصرفت أنا لإعداد العشاء ، حتى إذا ما فرغت منه بدأت وجوزيف نتشاحن أينا يحمل العشاء إلى مستر هندلي .. فلم ينته شجارنا إلا بعد أن برد الطعام وعندئذ اتفقنا على أن ننتظر حتى يطلب عشاءه ، إذا شعر بحاجة إلى الطعام ، إذ كنا جميعا نرتعد فرقا من لقائه عندما يكون قد ظل منفردا بنفسه طويلا !

وتلفت جوزيف يبحث عن هيثكليف ، ثم قال : « وكيف لم يعد ذلك الشقي من الحقل بعد ، في هذه الساعة ؟.. ما الذي يفعله ؟.. لا ريب أنه يتسكع كعادته ! »

فأجبت : « لا ريب أنه في مخزن الغلال ، وسأذهب لأناديه .. » .

ومضيت ابحث عنـه ، واناديه فى كل مكان بالمنـزل ، ولا مجيب .. فلما عدت ، انتحيت بكاترين وهممت اقول لها اننى واثقة من انه سمع شطرا كبيرا مما قالته ، ثم ذكرت لها كيف لمحته وهو يغادر المطبخ فى اللحظة التى كانت فيها تشكو سوء معاملة اخيها له ومسلكه القاسى حياله .. فما راعنى إلا انها قفزت من مجلسها فى فزع شديد ، والقت بهيرتون فوق الاريكة ، واندفعت إلى الخارج لتبحث عن صديقها بنفسها ، دون ان تتمهل ريثما تتفكر فى سبب هذا الفزع الذى دهمها ، او ما عساه يكون قد ساءه من حديثها .. ولقد طال غيابها حتى ان جوزيف اقترح الا ننتظرهما اكثر من ذلك ، واشار فى خبث إلى انهما قد مكثا معا بعيـدا حتى لا يسمعا صلاته الطويلة المسهبة .. وراح يؤكد لى انهمـا من سوء الخلق والنزوع إلى الشر بحيث لا نتوقع منهما مسلكا طيبا !.. ومن اجل صلاح نفسيهما ، تطوع فى تلك الليلة بصلاة خاصـة اضافها إلى ربع الساعة المعهود من التضرع والابتهال ، الذى تقضيه عادة امام الطعام قبل ان نمد إليه يدا .. ولعله كان خليقا بان (يلضم) فيها صلاة اخرى ، لولا ان اندفعت السيدة الصغيرة إلى الداخل ، وانقضت عليه تامره فى حزم بان يسرع بالخروج إلى الطريق ليبحث عن هيثكليف ، اينما كان ، حتى يجده ويحضره إلى المنزل فى الحال .. واضافت فيما يشبه العويل :

ـ إننى اريد ان احـدث إليه حتما قبل ان اصعد إلى حجرتى .. ثم ان البوابة مفتوحة على مصراعيها ، ولابد انه

فى مكان ما بعيد عن مدى السمع ، لانه لم يجب ندائى برغم اننى صعدت فوق سطح الحظيرة وجعلت اصيح منادية باسمه باعلى ما استطعت من صوت ..

واعترض جوزيف فى بادىء الامر ، ولكنها كانت فى حالة من اللهفة لا تسمح باعتراض مشيئتها .. فما لبث ان وضع قبعته فوق راسه ، وسار وهو يغمغم بعبارات السخط والحنق ، بينما راحت تذرع الارض ذهابا وجيئة وهى تهتف :

ـ إننى لاعجب اين هو الآن ؟ .. بل اين يمكن ان يكون ؟!. ما الذى قلته يا نللى ؟. لقد نسيت !. اترينه غضب من سوء خلقى بعد الظهر ؟.. يا إلهى !.. خبرينى يا عزيزتى ، ما الذى قلته فاحزنه ؟ .. شد ما اود ان يعود !.. شد ما اود حقا ان يعود ثانية !

فصحت بها ، وإن كان القلق قد بدا يتسلل إلى قلبى :

ـ ما هذه الضجة التى تقيمينها للاشىء ؟.. امن اتفه سبب تفزعين وترتاعين ؟ .. لست ارى مما يثير القلق ان يخرج هيثكليف لنزهة فى الاحراش فى ضوء القمر ، او يدفعه تجهمه المالوف إلى الاستلقاء بين الدريس دون ان يعنى بالرد على ندائنا .. اؤكد لك انه هناك ، وساريك كيف اخرجه بنفسى ..

وبادرت بالخروج لاعيد الكرة فى البحث عنه فى كل مكان خطر ببالى ، ولكن بحثى لم يسفر عن اية ثمرة ، كما ان بحث جوزيف انتهى إلى النتيجة ذاتها ، إذ عاد وهو يهدر قائلا :

– ان هذا الفتى لن ينصلح حاله قط .. ولقد ترك البوابة مفتوحة فخرج مهر الآنسة وحطم صفين من عيدان القمح ، وانطلق عبر الحقل إلى الأحراش .. والله إن السيد سوف يثير الشياطين في الصباح ، وحسنا يفعل .. فقد طال صبره حتى غدا ضعفا وخورا .. ولكن للصبر نهاية ، وسوف ترون عاقبة أفعالكم هذه ؟

فقاطعته كاثرين :

– هل وجدت هيثكليف يا حمار ! وهل بحثت عنه كما أمرتك ؟

– كان الأولى أن أبحث عن المهر ، فذلك خير وأجدى !.. ولكنني لا أستطيع البحث عن حصان أو إنسان في هذه الليلة المظلمة التي تشبه سواد المدخنة ! .. ثم إن هيثكليف لن يجيب ندائي ، وكان الأولى أن يلبي نداءك أنت !

والحق أنها كانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لليالي الصيف، وكانت السحب تتجمع وتنذر بقصف الرعد وهطول المطر ، فقلت انه يجدر بنا ان نجلس جميعا فان العاصفة المقتربة خليقة بأن تعيده إلى المنزل ، دون مزيد من العناء أو القلق .. غير أنني لم أستطع إقناع كاثرين بالهدوء ، فظلت قلقة ، تروح وتغدو بين باب المطبخ والبوابة الخارجية في حالة من الاضطراب والهياج لا تدع مجالا لأية راحة أو هدوء .. وما لبثت أن اتخذت لها مكانا ثابتا عند طرف السور بالقرب من الطريق ، حيث أقامت هناك غير عابئة باعتراضي المتوالي ، ولا بالرعد القاصف ، بل ولا بقطرات المطر الكبيرة التي بدأت تهطل

حولها ، وهي تنادي على هيثكليف بين الفينة والفينة ، وتنصت لعله يجيب النداء ، ثم تنفجر باكية صائحة من جديد .. وكانت عندما تعتريها نوبات البكاء والصياح ، تفوق هيرتون أو أي طفل آخر ، في هذا المضمار ..

وقبيل منتصف الليل ، وفيما نحن نجلس على هذه الحال ، انطلقت شياطين العاصفة من عقالها ، وأتت تهدر فوق « المرتفعات » في عنفوان قوتها وشدتها . وكانت الرياح تزمجر كالذئاب الجائعة ، والرعد يقصف كأن السماء توشك أن تنقض على الأرض، وأطارت العاصفة شجرة عند ركن الدار، فسقط غصن غليظ منها فوق السطح ، وحطم جزءا من المدخنة الشرقية ، فتهاوت الأحجار والأنقاض في هدير مروع داخل موقد المطبخ حتى خلنا أن صاعقة قد انقضت بيننا ، وأسرع جوزيف يجثو على ركبتيه ويبتهل إلى الله أن يذكر عبديه الصالحين « نوحا » و « لوطا » ، وأن يقي عباده الأبرار من الهلاك ، ويقصر الدمار والفناء على الكفرة والأشرار .. وأحسست بهاتف خفي يهجس في نفسي بأن اللعنة ستحيق بنا جميعا ، وأن « يونان »(١) المنحوس ليس إلا مستر ايرنشو نفسه ! .. وعندئذ مضيت أحرك مقبض باب الوكر الذي يأوي إليه ، لأتحقق مما إذا كان لا يزال على قيد الحياة ، فأجابنا في صوت عال ، وفي ألفاظ جعلت جوزيف يصيح ويصخب بأكثر مما كان يفعل من قبل ، ويبتهل إلى الله أن

---

(١) « يونان » في الانجيل يقابل « يونس » في القرآن .

يفرق بين القديسين أمثاله ، والخاطئين أمثال سيده !.. ولكن العاصفة انقضت بعد زهاء عشرين دقيقة وخلفتنا جميعا بغير سوء ، فيما عدا كاثى التى ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء إلى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها حتى فاض شعرها وثيابها بأكبر قدر من الماء .. وأخيرا أتت إلى المطبخ ، فألقت بنفسها فوق الأريكة بثيابها المبتلة وأدارت رأسها إلى المسند وهى تخفى وجهها بين يديها ..

فهتفت أقول وأنا ألمس كتفها بيدى :

– حسنا يا آنسة ! .. أتراك موكلة بأن تجلبى لنفسك الموت ؟ .. وهل تعرفين كم الساعة الآن ؟ .. إنها النصف بعد منتصف الليل . تعالى ، تعالى إلى فراشك ، فليس ثمة جدوى من بقائك بعد ذلك فى انتظار ذلك الفتى الطائش المعتوه ، فلعله قد ذهب إلى (جيمرتون) وبقى بها إلى الآن .. ولعله حدس أننا لن نبقى فى انتظاره حتى هذا الوقت المتأخر ، وحدس أن مستر هندلى هو وحده الذى قد يكون ساهرا ، فأراد أن يتحاشى لقاءه إذا فتح له الباب ..

فقال جوزيف : « كلا .. كلا ، إنه لم يذهب إلى (جيمرتون) . ولست أعجب إذا كان الآن فى قاع حفرة مليئة بالوحل !.. فتلك المحنة التى أبتلانا بها الله لا تذهب عبثا .. ولو أنك ذهبت وراءه بالآنسة لكنت الفريسة التالية !.. هل تعرفين ما تقول التوراة ؟ » .

ثم بدا يتلو علينا الآيات ويرشدنا إلى مواضعها بين النصوص

فيما عدا كاثى التى ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء الى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها ..

حيث يمكن ان نجدها .. وإذ ذهبت توسلاتى لتلك البنت العنيدة بان تنهض وتستبدل ثيابها المبللة ، عبثا ، تركت احدهما يتلو عظاته وصلواته، والأخرى ترتعد من فرط البرد ، ومضيت إلى فراشى حاملة هيرتون الصغير الذى سرعان ما استغرق فى النوم .. ولبثت برهة اسمع صوت جوزيف وهو يتابع ابتهالاته ، ثم سمعت وقع أقدامه فى الدرج ، قبل ان يغلبنى النعاس واروح فى نوم عميق ..

فلما نزلت إلى المطبخ فى الصباح ، متاخرة عن موعدى المعتاد قليلا ، رايت ـ على ضوء اشعة الشمس التى كانت تخترق فتحات النافذة ـ مس كاثرين لاتزال جالسة بجوار المدفأة التى خبت نيرانها . وكان الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس منفرجا والضوء يغمرها من النافذة المفتوحة .. وكان هندلى قد خرج من الحجرة ووقف بجوار مدفأة المطبخ ، شاحب الوجه مثقل العينين بالنعاس .. وكان يقول لها عندما دخلت :

ـ ماذا بك يا كاثى ؟.. إنك تبدين فى حالة يرثى لها ، كجرو غريق .. لماذا اراك شاحبة الوجه مبللة الثياب باصغيرتى ؟

فأجابته فى إحجام وتخاذل :

ـ لقد ابتلت ثيابى ، وشعرت بالبرد .. هذا كل شىء ..

فلم اتمالك نفسى من القول ، إذ رايت السيد وقد افاق من سكره : « آه ! انها فتاة شريرة .. لقد تركت وابل المطر ليلة امس يغرقها ثم جلست الليل بطوله هنا ولم استطع التاثير عليها كى تذهب إلى فراشها او تتحرك من مكانها ..».

فراح مستر ايرنشو يحدق البصر إلينا جميعا فى دهشة ، وما لبث ان قال : « الليل بطوله ؟.. وما الذى ابقاها مستيقظة حتى الآن ؟.. إنه ليس الخوف من الرعد طبعا ، لقد انقضى ذلك منذ ساعات طويلة ؟ »

فلم يشأ احد منا ان يذكر شيئا عن غياب هيثكليف ، طالما كان فى وسعنا ان نخفيه .. وهكذا قلت إننى لا ادرى ما الذى ثبت فى راسها كى تظل جالسة ساهرة ، كما انها لم تقل شيئا البتة . وكان الجو جميلا والصباح مشرقا ، فدفعت مصاريع النافذة وسرعان ما امتلأ المكان بشذى الزهور المنبعث من الحديقة ، غير ان كاثرين صاحت بى فى حنق :

ـ اغلقى النافذة ياايلين ، فانى اموت من البرد !

واخذت اسنانها تصطك وبدنها يرتعد ، وهى تقترب من رماد النيران الخابية ، فامسك اخوها برسغها ، وصاح : «انها مريضة !.. واحسب ان ذلك هو السبب فى عدم ذهابها إلى الفراش . يا للشيطان ! إننى لا اريد ان تنغصوا حياتى بالمزيد من المرض هنا !.. ما الذى جعلك تخرجين فى المطر بحق السماء ؟ » .

فانبرى جوزيف ، وقد سنحت له الفرصة ـ بعد ان راى ترددنا ـ لينفث سموم لسانه ، قال :

ـ الجرى وراء الشبان كالعادة !.. ولو كنت فى مكانك ايها السيد لنزلت على وجوههم واقفيتهم صفعا ، السادة منهم والصعاليك !.. فما من يوم تخرج فيه من المنزل حتى يحضر لينتون الشاب ليتسكع هنا . اما مس نللى فهى فتاة

رقيقة الشعور !.. إنها تجلس في المطبخ ترقب حضورك من النافذة ، لتنذرهما بعودتك ، فما ان تدخل من باب حتى يتسلل لينتون من الباب الآخر ، وبعد ذلك تمضي سيدتنا العظيمة في الغزل من جديد على طريقتها !.. هل ترى من آداب السلوك أن تذهب لتجوب في الحقول بعد منتصف الليل مع ذلك الوغد سليل الشياطين والفجر ، هيثكليف ؟.. إنهم يظنونني اعمى لا ارى شيئا ، ولكني لست كذلك !.. لقد رايت لينتون الشاب وهو ياتي ويذهب . ورايتك انت ، (وهنا تفضل بتوجيه الكلام لي :) انت ايتها الفتاة الضالة التي لا تصلح لشيء ، تنهضين فجاة وتسرعين إلى حجرة الجلوس في اللحظة التي تسمعين فيها وقع حوافر جواد السيد في اول الطريق !

فصاحت كاثرين : « اصمت ايها النمام الدساس !.. ولا تزد من قحتك وسلاطة لسانك امامي .. لقد حضر ادجار لينتون امس يا هيندلي مصادفة ، وكنت انا التي طلبت إليه الانصراف لانني اعلم انك ما كنت تود ان تلقاه في الحالة التي كنت فيها .. »

فأجاب أخوها : « بل انت تكذبين يا كاثي ، لا شك في ذلك . ثم إنك بلهاء لعينة !.. ولكن دعينا من لينتون الآن ، واخبريني الم تكوني مع هيثكليف ليلة الامس ؟.. قولي الحقيقة الآن ، ولا حاجة بك إلى الخوف من إيذائه . فعلى الرغم من انني اكرهه الآن اكثر من اي وقت مضى ، إلا انه اسدى إلي صنيعا لا استطيع تجاهله ، منذ وقت قصير ، بحيث لا يطاوعني ضميري على ان ادق عنقه .. ولكي احول دون ذلك فسوف

اطرده اليوم ، بل هذا الصباح بالذات . وعندما يذهب فإني انصحكم جميعا بان تفتحوا اعينكم جيدا وإلا كان لكم عندي الجزاء الأوفى ! » .

فبدأت كاثرين تنشج في مرارة وتقول :

ــ ما رايت هيثكليف ليلة الأمس قط .. وإذا طردته من هنا فسوف أذهب معه ، ولكن مهلا ، لعلك لن تستمتع بهذه الفرصة قط . لعله ذهب من تلقاء نفسه !

ثم انفجرت في نوبة من البكاء المرير والحزن الدافق حتى غدت كلماتها الأخيرة غير واضحة او مفهومة .. وعندئذ راح اخوها يصب عليها وابلا من الالفاظ القارصة والعبارات القاسية ، وامرها بان تذهب إلى حجرتها في الحال ، وإلا اذاقها ما يجعل لبكائها سببا . وارغمتها على الطاعة ، ولن انسى ما حييت الحالة المروعة التي كانت فيها عندما اوينا إلى حجرتها ، حتى تملكني الرعب والفزع ، وحسبتها قد اصيبت بالجنون ، فاسرعت ارجو جوزيف أن يبادر إلى طلب الطبيب ، لانني وجدتها تهذي بكلام غير مفهوم كهذيان المحموم .. وما كاد مستر كينيث يراها حتى قرر انها مصابة بحمى ، وان حالتها بالغة السوء إلى حد خطير ، ثم فصدها وامرني بان يقتصر غذاؤها على اللبن المخفوض وثريد الماء ، وان نرقبها باعين مفتوحة حتى لا تلقي بنفسها من النافذة او من الدرج ، وما لبث ان بارحنا لكثرة عمله في تلك الانحاء التي لا تقل المسافة فيها بين كوخ وآخر عن ميلين او ثلاثة ..

ولست أزعم انني كنت لها ممرضة رقيقة حانية ، كذلك

لم يكن جوزيف والسيد بخير منى فى هذا المضمار .. وعلى الرغم من ذلك ، ومن ان مريضتنا كانت متعبة عنيدة صلبة الرأى . فانها اجتازت مرحلة الخطر بسلام . وقد زارتنا مسز لينتون العجوز مرارا عدة ، وكانت لا تفتأ توجهنا وترشدنا ، بل وتوجه إلينا اللوم والتقريع إذا لمحت علينا تراخيا أو تقصيرا ، حتى إذا ما بدأت كاثرين مرحلة النقاهة امرت على ان تاخذها إلى منزلها فى (ثرشكروس جرانج) لتستكمل هناك اسباب الشفاء والصحة .. وكم شكرنا للسيدة الكريمة ان خلصتنا من متاعب كاثى ومضايقاتها ، غير ان المسكينة دفعت ثمن شفقتها وحنانها غاليا ، فقد انتقلت عدوى الحمى إليها وإلى زوجها ، وما لبثا ان قضيا نحبهما وبين احدهما والآخر ايام قلائل !

وعادت إلينا سيدتنا الصغيرة اشد قحة واحد طبعا واعظم تعاليا وغطرسة مما كانت عليه قط من قبل !.. ولم تكن قد سمعنا شيئا البتة عن هيثكليف منذ اختفائه ليلة العاصفة ، فكان من سوء طالعى ذات يوم ، وقد اثارتنى بفعالها حتى لم اعد املك زمام نفسى ، ان القيت عليها وحدها تبعة اختفائه . وكانت تعرف هذه الحقيقة تماما ، ولكنها انفت ان يواجهها احد بها . ومنذ ذلك اليوم ، ولعدة شهور بعد ذلك ، تباعدت عنى ولم تعد تتصل بى على اى وجه إلا لتصدر لى امرا ، شأنى فى ذلك شأن اية خادم عادية !.. ووقع جوزيف كذلك تحت طائلة غضبها ، وكان يود ان يقول لها كل ما يجول بخاطره ، وان يلقى على مسامعها عظاته كأنها لا تزال بنتا صغيرة ، ولكنها كانت تعتبر نفسها امراة ، وترى نفسها

سيدتنا ، وتخال من حقها بعد مرضها الأخير ان تلقى منا كل احترام وإجلال . وكان الطبيب قد قرر ان حالتها لا تحتمل المعارضة او الإثارة ، وانها يجب ان تنفذ مشيئتها ورغباتها بغير تردد ، فإن اجترأ احد على الوقوف امامها واعتراضه لها كان فى عينيها لا يقل عن القتل !.. وكانت تتحاشى أخاها ورفاقه ، بينما كان هو ، مدفوعا بما سمعه من الدكتور كينيث ، وبخشيته من العواقب الخطيرة التى قد تصيبها إذا ما استبد بها الغضب ، قد ترك لها الحبل على الغارب ، واخذ يلبى كل رغباتها ، ايا كانت ، ويتحاشى كل ما يثير مزاجها النارى الجموح . بل لقد كان مفرطا فى التسامح معها ، ممعنا فى إرضاء نزواتها واهوائها ، لا عن حب حقيقى او عاطفة أخوية صادقة ، بل عن زهو وكبرياء ، إذ كان يذوب لهفة على ان تتشرف العائلة بمصاهرة آل لينتون .. وما دامت تدعه وشأنه فلها ان تدوس على اعناقنا كالعبيد ، فما يعنيه من ذلك شىء !.. وكان ادجار لينتون ، كالكثيرين ممن سبقوه وممن سيأتون بعده ، مفتونا ذاهب اللب بمعبودته ، وحسب نفسه أسعد رجل حملته الأرض ، فى اليوم الذى قادها فيه إلى هيكل كنيسة جيمرتون ، بعد وفاة والده بثلاثة أعوام .

وارغمت ـ على غير ما كنت اهوى واحب ـ على مغادرة (مرتفعات ويذرنج) ومصاحبة كاثرين إلى هنا ، منذ كان هيرثون الصغير قد بلغ الخامسة من عمره ، وبدأت اعلمه مبادىء الهجاء . وكان فراقنا اليما ، ولكن دموع كاثرين كانت

اقوى من دموعنا . وعندما رفضت الذهاب معها ، ووجدت ان توسلاتها لم تجد نفعا معى ، ذهبت تشكو لزوجها واخيها ، فاغرانى الاول بالمزيد من الاجر ، على حين امرنى الثانى بأن احزم متاعى واتهيأ لمغادرة البيت ، لانه لا يريد نساء فى منزله بعد ان خلا من سيدته . وقال عن هيرتون إنه سيكل امر رعايته وتهذيبه إلى القس . وهكذا لم يعد امامى غير سبيل واحد للاختيار ، وهو أن انفذ ما امرت به ، وارافقها . ولقد قلت للسيد قبل انصرافى إنه إنما اراد الخلاص من كل ذى حياء او خلق قويم فى المنزل ، حتى يطلق لنزواته العنان ، ويمضى نحو الدمار من اسرع طريق .. ثم قبلت هيرتون وودعته ، ومنذ ذلك اليوم اضحى بالنسبة لى غريبا بكل معنى الكلمة . وقد يبدو ذلك امرا عجيبا ، ولكنى لا اشك البتة فى انه قد نسى كل شيء عن « ايلين دين » ، تلك التى كان لها ـ كما كانت له ـ كل شيء فى هذا العالم ! » .

* * *

وعند هذا القدر من الحديث حانت من مديرة المنزل نظرة نحو الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة ، فذهلت إذ وجدتها قد بلغت الواحدة والنصف ، ونهضت من مجلسها دون أن ترضى بالبقاء ثانية واحدة بعد ذلك . والحق انى كنت انا نفسى ميالا إلى تأجيل متابعة القصة إلى وقت آخر .. ولبثت بعد ان تركت الحجرة جالسا افكر فيما سمعت ، ساعة او اثنتين ، استجمعت بعدها شجاعتى للذهاب إلى الفراش ، برغم ذلك الخدر الموجع الذى كان يسرى فى راسى واطراف ..

* * *

الفصل العاشر

لعمرى كانت الايام التالية خير تمهيد لمن ينشد حياة النسك والوحدة والعزلة !.. اربعة اسابيع قضيتها بين الالام ، والسعال ، والمرض . وبين هذه الرياح الباردة القارسة ، وهذه السماء المقبضة الموحشة ، وتلك الطرقات التى لا يمكن لاحد عبورها ، ثم اطباء الريف الكسالى !.. حتى سئمت هذا الحرمان المطلق من رؤية وجوه البشر ، ولكن الاسوا من كل هذا وذاك إنما كان ذلك الإنذار المروع الذى وجهه لى كينيث بالا اتوقع مغادرة الدار قبل حلول الربيع !

وكان مستر هيثكليف قد شرفنى بزيارته ، بعد أن كان قد ارسل لى منذ سبعة ايام زوجا من بط المستنقعات ، وكنا فى آخر موسم صيده . يا له من وغد !.. الا يعلم انه ليس بريئا من مرضى هذا ؟.. لكم كنت اود ان اجابهه بذلك صراحة ، ولكن واأسفاه !.. كيف كان يسعنى أن اسيء إلى رجل كان من الكرم بحيث جلس بجوار فراشى ساعة كاملة تحدث فيها عن كل شيء إلا عن الحبوب والجرعات والنفاطات ودود العلق !.. ولكنى الآن احسن حالا ، واجتاز فترة تحسنت فيها كثيرا عن ذى قبل . وإذا كان الضعف قد بلغ منى حدا يحول بينى وبين القراءة ، إلا اننى اجد نفسى قادرا على الاستمتاع بشيء مسل يذهب عنى هذه الوحشة التى اعانيها .. فلماذا لا ادعو مسز دين لتتم حكايتها ؟.. إننى ما زلت اذكر حوادثها الهامة إلى القدر الذى قصته على منها .

نعم ، اذكر ان البطل قد اختفى عن العيان ، فلم يسمع عنه احد طيلة اعوام ثلاثة .. وان البطلة قد تزوجت .. سوف ادق الجرس لادعوها ، وستسر إذ ترانى قادرا على الاستمتاع بحديث طلى .

واتت مسز دين ، فبدات تقول :

ـ ما زال باقيا على موعد الدواء عشرون دقيقة يا سيدى ..

ـ بعدا للدواء وسحقا !.. إنما احب ان ..

ـ ولكن الطبيب يقول إنه يجب عليك ان تتناول هذه المساحيق ..

ـ من كل قلبى يا مسز دين .. ولكن لا تقاطعيني !.. تعالى واجلسى هنا . وابعدى اصابعك عن هذه الشرذمة من القنانى والزجاجات ، واخرجى من جيبك معدات الحياكة . احسنت !.. والآن امضى قدما فى رواية قصة مستر هيثكليف من حيث وقفت ، إلى يومنا هذا . اترينه قد اتم دراسته فى اوروبا وعاد سيدا مهذبا ؟.. ام نال درجة من الجامعة ؟.. ام فر إلى امريكا واكتسب ثروته من سفك الدماء فى بلده الأصلى ؟.. ام لعله نالها من قطع الطريق بجبال إنجلترا ؟

ـ ربما كان قد مارس شيئا من ذلك كله يا مستر لوكوود ، ولكنى لا استطيع الجزم بايها كان مصدر ثرائه .. وقد قلت قبل ذلك إننى لا ادرى كيف جمع ثروته ، كذلك لست ادرى شيئا عن الوسائل التى ساعدت بها نقوده فى ترقية مداركه من ذلك الجهل الوحشى الذى كان مترديا فيه . ومهما يكن

من امر فإنى ارجو ان تاذن لى بمتابعة القصة على طريقتى ، إذا رايت انها سوف تسليك ولا تثقل عليك .. وبهذه المناسبة ، هل تشعر اليوم بانك احسن حالا ؟

ـ كثيرا ..

ـ هذه انباء سارة ..

واتخذت مسز دين مجلسها امامى ، ثم مضت تتابع قصتها :

« صحبت مسز كاترين إلى (ثرشكروس جرانج) ، وكم شعرت بارتياح ورضى لما اصبت به من خيبة امل ، إذ رايتها تسلك مسلكا رائعا ، خيرا بكثير مما كنت اتوقع .. كانت تبدو مولعة اشد الولع بمستر لينتون ، كما كانت تحوط شقيقته بكل ضروب الود والانعطاف . وكانا كلاهما يعنيان اشد العناية بتوفير اسباب الراحة لها ورعايتها ، والبعد عن كل ما يعكر صفوها . لم تكن الشوكة هى التى تنحنى لتفسح الطريق امام زهور اللبلاب المتسلقة ، وإنما كانت الزهور هى التى تحتضن الشوكة وتعانقها وتدور من حولها !.. ولم تكن تنشا بينها وبينهما مواقف فيها شد وإرخاء ، او تسلط وإذعان ، وإنما كانت تقف مكانها منتصبة القامة ، وكانا هما اللذان يخضعان ويلينان .. ومن ذا الذى يمكن ان يكون حاد الطبع سيىء الخلق متى كان لا يلقى معارضة او استخفافا ؟.. ولقد لاحظت ان مستر لينتون كان ينطوى على خوف عميق من تكدير صفوها او تعكير مزاجها .. وكان يخفى عنها شعوره هذا ، ولكنه ما ان يرانى ارد عليها فى حدة ، او يرى احدا

من الخدم الآخرين يظهر امتعاضا من صرامة أوامرها ، حتى يعلو وجهه تقطيب الاستياء ، وهو شيء ما كان يحدث له لو أن الأمر كان خاصا به . وكثيرا ما خاطبني ، عابسا متجهما ، من حدة لساني وسلاطتي معها ، قائلا إن طعنات السكين ما كانت لتسبب له ألما أشد مما يقاسيه عندما يرى زوجته متكدرة أو مغيظة .. وإذ كنت لا أريد أن أسيء إلى سيد كريم مثله ، فقد روضت نفسي على أن أكون أكثر تسامحا .. وهكذا ظللنا أكثر من ستة شهور والبارود ملقى مكانه كأنه رمل لا خطر فيه ولا ضرر منه ، إذ لم تكن ثمة نار تقترب منه لتشعله وتفجره . وكانت تعترى كاثرين ، بين آن وآخر ، فترات من الكآبة والصمت ، فكان زوجها يحترمها في عطف صامت ، ويعزو ذلك إلى التغيير الذي أحدثه في كيانها ذلك المرض الخطير الذي أصابها ، إذ لم تكن قط قبله عرضة لمثل هذا الانقباض والكآبة .. وكان انبثاق الفجر وإشراق الشمس من جديد يقابلهما إشراق واستجابة من ناحيته .. وأحسب أن بوسعي أن أؤكد أنهما كانا يتقاسمان سعادة عميقة متزايدة ..

ثم انتهى كل شيء !.. حسنا !.. لابد لنا من أن تظهر حقيقتنا في النهاية .. كما أن البسطاء الكرام لا يقلون أنانية وأثرة عن المسيطرين المتسلطين . وقد انتهى كل شيء عندما سببت الأحداث لكل منهما أن يشعر بأن مصلحة أحدهما ليست صاحبة المقام الأول في تفكير الآخر وخواطره !.. ففي مساء يوم عليل الهواء من شهر سبتمبر ، كنت قادمة

من البستان أحمل سلة ثقيلة ملأى بثمار التفاح التي جنيتها . وكان الليل قد أرخى سدوله ، والقمر يطل من فوق سور الفناء فيرسل أشباحا غامضة تتراقص في جنبات المبنى المتعددة . ووضعت حملي على درجات السلم بجانب باب المطبخ الخلفي ، ثم تمهلت لألتقط أنفاسي اللاهثة ، واستنشق الهواء العليل الرقراق ، وقد استقبلت القمر بوجهي وأدرت ظهري ناحية المطبخ ، وإذا بي أسمع صوتا يقول من خلفي :

ـ أهذه أنت يا نللي ؟

كان صوتا عميقا ، في نبراته لكنة غريبة ، ومع ذلك كان في الطريقة التي نطق بها باسمي شيء جعله يبدو مألوفا لي .. فاستدرت مجفلة لأرى المتكلم ، وقد غمرني الخوف ، إذ كانت الأبواب مغلقة ، ولم أكن قد لمحت أحدا عند اقترابي من الدار .. وإذا بشيء يتحرك في الظلام عند ركن الباب ، فاستطعت أن أتبين رجلا طويل القامة يرتدي ثيابا قاتمة ، أسمر الوجه أسود الشعر . واقترب المجهول فاستند إلى الجدار بجوار الباب ومد يده يتحسس الرتاج بأصابعه كأنما يهم بفتح الباب بنفسه ، فقلت في نفسي : « ترى من يكون ؟ مستر ايرنشو ؟ ولكن لا .. فهذا الصوت لا يشبه صوته » .

واستطرد الغريب يقول ، بينما كنت لا أزال أحملق فيه مدهوشة :

ـ لقد انتظرت هنا ساعة كاملة ، كان السكون يرين فوق المكان خلالها ، أشبه بصمت القبور ، فلم أجرؤ على الدخول . ولكن ألم تعرفيني ؟.. انظري . إنني لست غريبا عنك !

فاستطعت أن أتبين رجلا طويل القامة يرتدى ثيابا قاتمة ، أسمر الوجه أسود الشعر .

ومال إلى الأمام فسقط شعاع فوق وجهه ، ورأيت وجنتين غائرتين تغطى معظمهما سوالف من الشعر الحالك السواد ، كما رأيت حاجبين كثيفين ، وعينين عميقتين يشع منهما بريق عجيب . وعندئذ ذكرت العينين ، فلم أدر هل صاحبهما شبح من الأشباح يتراءى لى ، أم إنسان من أهل الدنيا ، ورفعت يدى فى دهشة ، هاتفة :

ـ ماذا ؟ .. هل عدت ثانية ؟ .. أهذا أنت حقا ؟

فأجابنى وهو يرفع بصره منى إلى النوافذ التى كانت تعكس الآفا من أشعة القمر المتكسرة دون أن يبدو ضوء بداخلها :

ـ نعم .. هيثكليف !.. ولكن أما من أحد منهم هنا ؟.. أين هى ؟.. إنك لا تبدين مسرورة لرؤيتى يا نللى !.. ولكن لا حاجة بك لهذا الاضطراب .. أهى هنا ؟ تكلمى .. فإنى أريد أن أقول كلمة واحدة لها .. لسيدتك .. اذهبى واخبريها أن شخصا من (جيمرتون) يرغب فى أن يراها !

فهتفت قائلة : « وكيف تلقى النبأ ؟.. وماذا تراها فاعلة ؟ .. إن هذه المفاجأة تحيرنى وتشل حواسى ، فسوف يطير صوابها . وأنت هيثكليف بعينك ، ولكنك تغيرت كثيرا . كلا ، لست أفهم ما حل بك ، فهل كنت فى الجندية ؟ »

فقاطعنى فى صبر نافد ، قائلا :

ـ اذهبى وبلغى رسالتى ، فإنى على أحر من الجمر حتى تفعلى !

ثم مد يده ورفع المزلاج ، فدخلت إلى المنزل .. ولكنى ما كدت أشرف على حجرة الجلوس ، حيث كان يجلس مستر ومسز لينتون ، حتى لم أجد فى نفسى ميلا إلى التقدم خطوة أخرى . وأخيرا عزمت على أن أتعلل بسؤالهما عما إذا كانا يرغبان فى إضاءة الشموع ، وعندئذ فتحت الباب ..

كانا وقتئذ يجلسان معا إلى جوار نافذة عريضة مفتوحة على مصراعيها ، وقد انكشف أمامهما ـ وراء أشجار الحديقة الباسقة وخضرة البستان المترامى الأطراف ـ وادى جيمرتون وقد جلله خط طويل من الضباب يتلوى معه حتى يوشك أن يصل إلى قمته (ولعلك لاحظت أنك لا تكاد تجتاز الكنيسة الصغيرة حتى يكون الماء الذى ينشع من المستنقعات قد اتصل بنهيرات صغيرة تجرى مع انحناءات الأخاديد المتعددة) .. وكانت (مرتفعات ويذرنج) تعلو فوق ذلك الضباب الفضى ، ولكن منزلنا القديم لم يكن ظاهرا للعيان ، إذ إنه ينحدر نحو الجانب الآخر من الجبل . وكانت الحجرة ، والجالسان فيها ، والمنظر الساحر الذى يتأملانه ، تسبح جميعا فى سلام عجيب ، حتى لقد أحجمت ـ نافرة ـ عن أداء مهمتى ، وأوشكت أن أغادر المكان دون أن أبلغ رسالتى ، مكتفية بسؤالى عن إضاءة الشموع ، عندما دفعنى النزق إلى أن أعود ، قائلة :

ـ هنا شخص من جيمرتون يريد أن يتحدث إليك يا سيدتى ..

فقالت مسز لينتون : « ما الذى يريده ؟ »

فأجبت : « إننى لم أسأله .. » .

ـ حسنا . أسدلى الستائر يا نللى ، وأحضرى لنا الشاى .. وسوف أعود فى الحال .

وغادرت الحجرة ، فسألنى مستر إدجار فى غير اكتراث عمن يكون هذا الشخص ، فقلت : « إنه شخص لا تتوقع سيدتى رؤيته .. فهو ذلك المدعو هيثكليف .. ولعلك تذكره يا سيدى فقد كان يعيش فى منزل مستر إيرنشو .. » .

فصاح فى حدة : « ماذا ؟ .. ذلك الغلام الغجرى الذى كان يعمل فى الحقل ؟.. ولماذا لم تقولى ذلك لكاثرين ؟ » .

ـ مهلا يا سيدى ، فما يجدر بك أن تنعته بهذه الصفات ، وإلا أضناها الأسى لسماعك .. فقد كاد قلبها يتحطم عندما رحل فجأة ، وأحسب أن عودته ستكون عيدا بالنسبة لها ..

فسار مستر لينتون إلى نافذة فى الناحية الأخرى من الحجرة تشرف على الفناء ، ففتحها وانحنى يطل منها .. وأعتقد أنه رآهما تحته ، إذ أسرع يهتف قائلا : « لا تقفى هنا يا حبيبتى ، بل أدخلى الشخص إذا كنت تعرفينه ! » .

وما هى إلا لحظة حتى سمعت صرير المزلاج ، ورأيت كاثرين ترقى الدرج فى عجلة شديدة ، مبهورة الأنفاس ، وقد استبد بها الانفعال بحيث كاد يخفى فرحتها .. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إنك لو رأيت وجهها وقتئذ لحسبت أن كارثة رهيبة قد حلت بها !

وأسرعت تطوق عنق زوجها وهى تقول لاهثة : « أوه

يا ادجار . يا حبيبى ادجار .. لقد عاد هيثكليف ! .. لقد عاد حقا ! » .

وراحت فى غمرة انفعالها تشدد الضغط حول عنق زوجها الذى صاح عابسا : « حسنا ، حسنا . ولكن لا تخنقينى لهذا السبب ! .. إنه لم يبد لى قط كنزا ثمينا إلى هذا القدر ، ولا حاجة بك إلى كل هذا الفرح الجنونى ! »

فخففت قليلا من غزارة فرحتها وقالت : « أعلم انك ما احببته قط ، ولكن يجب الآن ان تكونا صديقين ، من اجل خاطرى . هل ادعوه إلى الصعود ؟ »

ـ هنا ؟.. فى حجرة الجلوس ؟

ـ وأين إذن ؟

فلاح عليه الضيق والحرج ، وغمغم قائلا إن المطبخ هو اللئق مكان به .. ولكن مسز لينتون رمقته بنظرة غريبة ، تحمل من الغضب مثلما تحمل من السخرية بتزمته ، وما لبثت ان استطردت تقول :

ـ كلا .. فلست استطيع الجلوس فى المطبخ ، ولكن اعدى مائدتين هنا يا نللى ، إحداهما لسيدك ومس ايزابيلا ، إذ هما من طبقة السراة والخاصة ، والأخرى لى ولهيثكليف ، فنحن من الطبقة الدنيا !.. ايرضيك هذا ياعزيزى ؟ .. ام تفضل ان توقد مدفأة اخرى لنا ؟ إذا شئت ذلك فارجو ان تصدر امرك لتنفيذه !.. اما انا فسوف اهرع لاحتفى بضيفى .. آه ! .. كم اخشى ان يكون سرورى من الغزارة بحيث لا يكون حقيقة واقعة !

وهمت بان تندفع خارجة من الحجرة ، ولكن ادجار امسك بها ، وقال لى : « اذهبى انت فاطلبى إليه أن يصعد . وانت يا كاثرين ، حاولى ان تكونى مسرورة دون ان يبلغ بك الأمر إلى حد السخف .. ولا حاجة بك لان يشهد خدم الدار منظر حفاوتك بخادم هارب كأنه شقيق لك ! »

فنزلت ووجدت هيثكليف ينتظر عند الباب ، متوقعا دعوته إلى الدخول .. وتبعنى دون أن يضيع وقته فى المزيد من الكلام ، حتى قدته إلى حضرة السيد والسيدة ، التى كان تورد وجنتيها ينم عما سمعته من قوارص الكلم .. ولكن وجنتى السيدة توهجتا تحت تأثير شعور آخر عندما ظهر صديقها عند الباب، ووثبت من مكانها متقدمة نحوه ، فتناولت كلتا يديه ، وقادته إلى حيث كان يقف زوجها ، ثم امسكت باصابع مستر لينتون المترددة الناكصة ، ودفعتها إلى يد هيثكليف . وقد ذهلت عندما سقط ضوء الشموع ووهج النار على وجه هيثكليف وقوامه فكشف عن مدى التغير الذي حل به . كان قد اصبح رجلا فارع الطول رياضيا ممشوق القوام ، بحيث كان سيدى يبدو بجانبه هزيلا اشبه بالغلمان ! .. وكان اعتدال قامته يوحى بانه كان فى الجيش. اما اساريره فقد اكتست طابعا من الصرامة والجد جعله يبدو اكبر سنا من مستر لينتون ، ولكن محياه كان ينم عن ذكاء وفطنة ، وقد خلا من سمة المهانة التى كانت بادية عليه فيما مضى .. وكانت تكمن فى حاجبيه الكثيفين المنقبضين ، وفى عينيه المليئتين بنيران متقدة ، ضراوة نصف متحضرة ، كان

يجهد فى قمعها وكبح جماحها . وكان مسلكه مهذبا فى وقار ، خلوا من أية خشونة أو جلافة ، وإن كان من الصرامة بحيث لا يعد لطيف الشمائل رقيق الحاشية ..

وكانت دهشة سيدى تضارع دهشتى إن لم تزد عليها ، فلبث برهة حائرا لا يدرى كيف يوجه الخطاب إلى « عامل الحقل الأجير » كما كان يدعوه ! .. أما هيثكليف فقد أرخى ذراعه ، ووقف ينظر إليه فى برود ، حتى نطق السيد أخيرا فقال :

ـ اجلس ياسيدى ، فان مسز لينتون ـ وقد ذكرت الأيام الماضية ـ قد رغبت إلى أن أستقبلك استقبالا وديا .. ولاشك أن من بواعث سرورى أن أقوم بكل ما يجلب إليها السرور والبهجة ..

ـ كذلك أنا ، خصوصا إذا كان لى نصيب من أسباب هذا السرور ، ولهذا سوف أبقى معكما ساعة أو اثنتين عن طيب خاطر ..

واتخذ له مجلسا فى مواجهة كاترين التى ظلت نظراتها معلقة به كأنها تخشى أن يتلاشى من أمامها إن هى حولتها عنه ! .. أما هو فلم يكن يرفع أنظاره إليها إلا لماما ، قانعا بالنظرة العجلى يصوبها نحوها بين آن وآخر ، فترتد فى كل مرة فى جرأة متزايدة ، وهى تومض بذلك السرور السافر الذى ينهله من عينيها .. وكانا من الاستغراق فى فرحتهما المتبادلة بحيث لم يحسا حرجا أو ارتباكا . ولكن ذلك لم يكن شأن مستر ادجار ، فقد إزداد وجهه امتقاعا من فرط غضبه حتى

بلغ هذا الشعور ذروته عندما نهضت زوجته ومشت إلى حيث كان هيثكليف جالسا عند الطرف الآخر للسجادة ، فأمسكت بيديه من جديد وراحت تضحك بغير وعى كشخص ذهب السرور بلبه ! .. وأخيرا هتفت تقول :

ـ سوف يبدو لى ذلك حلما من الأحلام فى الغد ! .. لن يكون فى استطاعتى أن أصدق أننى رأيتك ، ولمستك بيدى ، وخاطبتك مرة أخرى .. ومع ذلك فما أقساك ياهيثكليف ! .. إنك لا تستحق هذا الترحيب ، بعد أن ظللت غائبا ثلاث سنوات لزمت فيها الصمت ولم تفكر فى قط !

فغمغم يقول :

ـ لقد فكرت فيك أكثر قليلا مما فكرت أنت فى ياكاثى .. وقد سمعت بزواجك منذ قريب ، وبينما كنت واقفا أنتظر فى الفناء ، دبرت فى رأسى هذه الخطة : أن أتزود من وجهك بنظرة واحدة ، قد تكون نظرة دهشة ، وقد تكون نظرة سرور مصطنع ، وأمضى بعد ذلك لأسوى حسابى مع هندلى ، ثم أقضى على نفسى فأوفر على الحكومة مشقة إعدامى ! .. بيد أن ترحيبك بى قد طرد هذه الأفكار من رأسى ، ولكن حذار من أن تلاقينى على صورة أخرى فى المرة القادمة ! .. كلا ، إنك لن تدفعينى إلى الفرار ثانية . أحقا كنت حزينة من أجلى ياكاثى ؟ .. لقد كنت على حق فيما فعلت ، بل اضطررت إليه اضطرارا . ولقد عانيت الكثير من قسوة الحياة ومرارتها منذ أن سمعت صوتك آخر مرة . ولكن يجب أن تصفحى عنى ، فما ناضلت وكافحت إلا من أجلك !

فقاطعهما لينتون وهو يجاهد فى الاحتفاظ بنبراته العادية ، وبقدر من الأدب ، قائلا :

ـ تعالى إلى المائدة يا كاثرين ، إلا إذا كنت تنوين تناول الشاى باردا . تعالى من فضلك ، فإن أمام مستر هيثكليف شقة طويلة يمشيها أينما كان يزمع المبيت الليلة .. ثم إننى أحس بالظمأ ..

فاتخذت مجلسها أمام آنية الشاى ، بينما أقبلت مس إيزابيلا تلبية للجرس الذى يدعو إلى الطعام أو الشاى . وإذ انتهت مهمتى بتقريب مقاعدهم إلى المائدة ، غادرت الحجرة وانصرفت لشأنى . ولكن تناول الشاى لم يستغرق عشر دقائق ، فإن كاثرين لم تملأ قدحها قط ، إذ كانت فى حالة لاتستطيع معها أن تبتلع طعاما أو شرابا .. أما مستر إدجار فقد انسكب منه الشاى فى الطبق ، ولم يأخذ من قدحه أكثر من جرعة أو اثنتين !

ولم يطل الضيف مقامه فى تلك الأمسية أكثر من ساعة ، وفيما كنت أودعه سألته إن كان ذاهبا إلى (جيمرتون) ، فقال:

ـ كلا .. بل إلى (مرتفعات ويذرنج) ، فقد دعانى مستر إيرنشو للمبيت عندما زرته هذا الصباح !

وكان لهذه العبارة طنين فى رأسى ، ورحت أفكر فيها بعد ذهابه ، بين مصدقة ومكذبة .. أهو يزور مستر إيرنشو ؟ .. ومستر إيرنشو يدعوه للمبيت ؟ .. أتراه قد تعلم النفاق وأتى إلى هذه المنطقة ليرتكب شروره مستترا بمسوح

الرهبان ؟ .. أخذت أمعن التفكير فى الأمر ، فأحسست فى أعماق قلبى بهاجس يحدثنى أنه كان من الخير أن يظل بعيدا عنا ، ولا يعود إلينا ..

وزهاء منتصف الليل ، أفقت مذعورة من نوم البداءة العميق ، فإذا مسز لينتون تجلس بجانب فراشى وهى تجذبنى من شعرى لتوقظنى .. فما أن فتحت عينى حتى قالت فيما يشبه الاعتذار :

ـ لم أذق للنوم أو الراحة طعما يا نللى .. وشد ما أحس بالحاجة إلى كائن حى يسهر معى ويشاركنى سعادتى !.. ولكن إدجار شديد التجهم والعبوس لأننى فرحة بشىء لا يهمه ولا يبالى به .. فهو يرفض أن يفتح فمه إلا ليبدى تبرمه ، وليسمعنى كلاما سخيفا .. وقد أكد لى أننى قاسية أنانية إذ أزعجه بالحديث فى وقت يحس فيه بالتوعك والنعاس .. فهو دائما يدعى التوعك عند أقل معارضة .. وقد تفوهت ببضع عبارات فى مدح هيثكليف ، فأخذ فى الصياح ، إما من الصداع ، كما يزعم ، أو من ألم الغيرة ، وما لبث أن بدأ فى البكاء ، فنهضت من الفراش وتركته ..

ـ وأية جدوى من امتداحك هيثكليف أمامه ؟ .. لقد كانا يتبادلان الكراهية وهما فتيان يافعان .. ولعل هيثكليف كان خليقا بأن يثور مثله لو سمعك تطرينه أمامه .. إنها طبيعة البشر يا سيدتى ، فدعى مستر لينتون وشأنه ، ولا تشركيه فى أحاسيسك ، إلا إذا رغبت فى أن ينشب بينهما عراك سافر ونزاع قتال ..

فمضت تتابع القول :

ـ ولكن الا ترين ذلك دليلا على ضعف شديد ؟ .. إننى لا اضمر لأحد غيرة او حسدا .. فما تأذيت قط من شعر ايزابيلا الذهبى الوضاء ، ولا من بشرتها الناصعة البياض ، ولا من اناقتها الدقيقة المترفة ، ولا من ذلك الحب الذى تظهره العائلة كلها نحوها .. حتى انت يا نللى ، فانك ما ان ينشب نزاع بيننا حتى تقفى فى صفها ضدى ، فاستسلم كأية أم بلهاء .. إننى ادعوها حبيبتى ، واتملقها حتى ترضى ويصفو مزاجها .. وكم يسر اخوها عندما يرانا متصافيتين يجمع الود بيننا .. وذلك يسرنى بالمثل .. ولكنهما صنوان يا نللى! .. فقد ربيا على التدليل ، ويخالان ان العالم إنما خلق لرضائهما وراحتهما .. وعلى الرغم من اننى اعمل دائما على ملاطفتهما، إلا اننى اعتقد ان بعض العقاب قد يصلح من امرهما !

ـ إنك مخطئة فى ذلك يا مسز لينتون ! .. فهما اللذان يلاطفانك ويدللانك ، ولست اجهل ماذا كان خليقا بان يحدث إذا لم يفعلا ذلك .. إن فى وسعك ان تتسامحى فى شأن اهوائهما العابرة ، طالما كان شغلهما الشاغل ان يبادرا إلى تلبية كل رغباتك وطلباتك ! .. ومع ذلك فقد ينشب بينكما الشجار اخيرا ، بصدد امر ذى اهمية متساوية لكما ، وعندئذ سوف ترين أن هذين اللذين تظنينهما ضعيفين قد يغدوان اشد منك عنادا واصلب عودا ومراسا ..

فتضاحكت وهى تجيب : « وعندئذ سوف يحارب بعضنا

بعضا حتى الموت يا نللى ، اليس كذلك ؟ .. كلا .. صدقينى إننى شديدة الإيمان بحب لينتون لى ، بحيث اننى لو هممت بقتله لما فكر فى الثأر او الانتقام .. » .

فنصحتها بان تزداد له تقديرا من اجل حبه لها ، فاجابت :

ـ هذا ما افعله يا نللى .. ولكنه من جانبه ليس فى حاجة إلى ان يعمد إلى الأنين والنواح من اقل شىء واتفهه .. أليس ذلك صغارا منه ؟ . لقد كان الأخلق به ، بدلا من إراقة دموعه لاننى قلت ان هيثكليف اصبح الآن جديرا بالتقدير والاحترام، وان اى سيد فى الاقليم سوف يشرفه أن يتخذ منه صديقا ، كان الأخلق به أن يبادرنى هو بهذا القول ، وأن يبدى سروره وانعطافه نحوه .. ويجب أن يعتاد رؤيته ، بل خليق به ان يميل إليه ! .. فلو قدرنا الأسباب التى تدفع هيثكليف إلى كراهيته لرايناه قد سلك مسلكا ممتازا معه ..

فسألتها : « ما الذى ترينه فى ذهابه إلى « مرتفعات ويذرنج » ؟ .. الظاهر انه قد تغير تماما من شتى النواحى ، واصبح تقيا يمد يد الصداقة إلى اعدائه فى كل مكان ! »

ـ لقد شرح لى الأمر ، إذ عجبت لمسلكه مثلما عجبت .. قال إنه ذهب إلى هناك ليستعلم منك عن اخبارى ، ظنا منه انك مازلت تقيمين هناك .. وقد اخبر جوزيف هندلى بمقدمه، فخرج اخى وراح يسأله عما كان يفعله كل هذا الوقت ، وكيف كان يعيش ، ثم دعاه اخيرا إلى الدخول .. وكان بعض الاشخاص جالسين حول احدى الموائد يلعبون الورق ، فانضم إليهم هيثكليف ، وربح بعض النقود التى خسرها اخى .. فما

كاد يراه عامر الجيب بالمال حتى رجاه فى ان يعود فى المساء ثانية ، فلم يملك إلا ان يلبى هذه الدعوة !.. إن هندلى من الغفلة بحيث لا يعنى باختيار اصدقائه فى حكمة وتعقل !. كما انه لايشغل فكره بالتفكير فى الاسباب التى قد تدفعه إلى التوجس من شخص سبق ان جرعه كاس الهوان مترعة .. ولكن هيثكليف يؤكد ان السبب الرئيسى لرغبته فى إعادة العلاقات مع غريمه السابق إنما هو رغبته فى ان يقيم على قيد خطوات من « الجرانج » ، فضلا عن تعلقه بالدار التى نشانا فيها معا ، واملـه فى ان يتاح لى المزيد من الفرص لرؤيته اكثر مما لو اتخذ من « جيمرتون » مقاما .. وفى نيته ان يعرض على اخى اجرا عاليا نظير السماح له بالإقامة فى « مرتفعات » ، ولا ريب ان جشع اخى وحبه للمال سوف يدفعانه إلى قبول هذا العرض .. لقد كان شرها دائما ، ولو انه يطرح بإحدى يديه ما يجتنيه باليد الأخرى .

فقلت : « يا احلاه مكانا يختاره شاب لإقامته !.. ولكن الا يخالجك الخوف من العواقب يا مسز لينتون ؟ » .

ـ لست اخاف على صديقى شيئا ، فان له من حصافة الراى ما يقيه الاخطار .. كما ان خوفى على هندلى قليل ، فإن انحطاطه الأدبى لم يبق موضعا لزيادة المستزيد ، ولن يتهدده خطر بدنى لاننى سأقف حائلة دونه .. آه يا نللى!.. إن ماحدث الليلة قد قرب مابينى وبين الله والإنسانية جميعا .. لقد كنت فى ثورة عارمة ضد العناية الإلهية .. وكم عانيت من ضروب الشقاء والبؤس المرير ما لو عرف هذا المخلوق مبلغ

مرارته لما فكر فى تعكير صفوى بعد ذلك بنزقه ومشاكساته الفارغة .. وقد احتملت كل هذا الشقاء وحدى بدافع من الشفقة عليه ، فلو اننى افصحت عن الوان العذاب التى هدت كيانى لعرف كيف يتوق إلى تلطيفها بنفس الحرارة واللهفة التى كنت اتوق بها إليه .. ومهما يكن من امر فقد انقضى ذلك الآن ، ولن اعمد إلى الانتقام من حماقته .. وفى وسعى ان احتمل كل شىء بعد ذلك ، فلو صفعنى اقل مخلوق على قيد الحياة على خدى ، لما اكتفيت بان ادير الخد الآخر ، بل لسالته الصفح عن إثارتى إياه واستفزازى له حتى صفعنى!! .. وبرهانا على ذلك سوف اذهب إلى ادجار من فورى فاصالحه واسترضيه .. طابت ليلتك يانللى .. لقد انقلبت ملاكا رحيما !

وفارقتنى منشرحة الصدر لهذا الإيمان الجديد الذى سكن نفسها ، فظهرت ثمرة نجاحها فى تنفيذ ما اعتزمته على محيا مستر لينتون فى الصباح !.. فلم تفارقه جهامته وعبوسه فحسب ، (ولو ان حالته النفسية المرحة كانت تبدو كأنها مازالت متاثرة بفرحة كاثرين الغزيرة) ، بل لقد ذهب إلى حد عدم الاعتراض على اصطحابها ايزابيلا معها إلى « مرتفعات ويذرنج » بعد الظهر .. ولقد جازته على ذلك بفيض من الرقة والحب ، جعل المنزل كله يبدو كجنة الفردوس عدة ايام متتالية ، وقد نعم السيد والخدم بهذا الإشراق الدائم الجميل ..

اما هيثكليف ـ او مستر هيثكليف كما ينبغى ان اقول فى

المستقبل – فقد اخذ يستخدم حريته فى زيارة « ثرشكروس جرانج » فى حذر وحرص باديء الامر .. كان يبدو انه يقدر إلى اى مدى يحتمل سيد الدار تطفله .. كما رات كاثرين من الحكمة ان تخفف من مظاهر سرورها بلقائه .. وهكذا أنشأ لنفسه حقا فى ان تكون زياراته متوقعة دائما .. وكان ما يزال على جانب كبير من ذلك التحفظ الذى كان يتميز به وهو بعد غلام يافع ، وقد افاده ذلك فى كبح جماح مشاعره واحاسيسه حتى لا تندفع فى مظاهرة قد تثير المتاعب .. وهكذا هجع قلق السيد وتوجسه حتى بدات الأحداث التالية توجه هذا القلق إلى وجهة اخرى بعض الوقت ..

كان مصدر متاعبه الجديدة ينبثق من الكارثة الداهمة غير المتوقعة التى حاقت بايزابيلا لينتون إذ انتابها ميل جارف مفاجىء نحو ذلك الضيف الثقيل .. وكانت فى ذلك الحين شابة جميلة ساحرة فى الثامنة عشرة من عمرها ، يتميز خلقها ببساطة الطفولة ، وإن كانت مع ذلك حادة الذكاء ، مرهفة الحس ، سريعة الغضب إذا استثيرت .. ولقد ارتاع اخوها – الذى كان شديد الحب لها – وفزع لهذا الولع الجنونى الخيالى .. فبغض النظر عن المهانة التى تحيق بهم من مصاهرة رجل لا اسم له ولا عائلة ، وعن احتمال انتقال املاك الأسرة – إذا لم ينجب وريثا ذكرا – إلى يد مثل هذا الرجل ، فقد كان من الحصافة بحيث يدرك حقيقة هيثكليف ، ويعلم انه برغم التغيير الذى حل بمظهره ، فان عقليته لم تتغير ولن تكون قابلة للتغيير .. وكان يخاف هذه العقلية ويتوجس

منها شرا وينور لها .. وهكذا فزع وتشاءم من فكرة زواجه من ايزابيلا ، ولعل فزعه ونفوره كانا يزدادان شدة لو انه ادرك ان غرام ايزابيلا كان من ناحيتها وحدها ، دون استثارة او إغراء ، وإنها وهبته لمن لا يبادلها عاطفتها او يستجيب لاحاسيسها .. فانه منذ ان اكتشف هذا السر الرهيب ، القى باللوم كله على عاتق هيثكليف واعتقد انه رسم هذه الخطة ودبرها تدبيرا ..

وكنا جميعا قد لاحظنا وقتا ما ان مس لينتون قد غدت ضيقة الصدر ، ينهشها القلق والاضطراب ، لسبب لا نعرفه ، وانها اصبحت كثيرة التبرم والعبوس ، لاتفتا تتصيد الفرص للاحتكاك بكاثرين وإثارتها كأنما تريد ان تستفزها حتى تخرجها عن طورها وعن صبرها المحدود .. وقد لمسنا لها العذر – إلى حد ما – وتعللنا بسوء صحتها ، إذ كانت تزداد نحولا ويخبو ضياؤها امام اعيننا ، إلى ان حدث ذات يوم ، كانت فيه شديدة المشاكسة إلى حد غريب ، ان رفضت تناول إفطارها ، واخذت تشكو من ان الخدم لا يطيعون اوامرها ، وان السيدة لا تريد ان تجعل منها شيئا مذكورا فى المنزل ، وان ادجار يهمل شأنها ، وانها اصيبت ببرد من ترك الابواب مفتوحة ، واننا ندع نيران المدفاة فى حجرة الجلوس تخبو متعمدين إغاظتها ، إلى غير ذلك من مئات التهم الواهية التافهة .. فاصرت مسز لينتون على ان تجعلها تأوى إلى فراشها ، وراحت تعنفها فى رفق ولين ، ثم هددتها بان ترسل فى طلب الطبيب .. فما كادت تسمع اسم كينيث حتى ثارت ،

وصرحت بأن صحتها على خير حال ، وأن سبب شقائها هو ما تلقاه من خشونة كاثرين وفظاظتها ..

فصاحت السيدة وقد أذهلها هذا الاتهام غير المعقول :

ـ كيف تزعمين أنني خشنة معك أيتها الخبيثة المدللة ؟.. لاريب أنك قد جننت .. ألا خبريني متى كنت خشنة معك ؟..

فتأوهت ايزابيلا وقالت : « بالأمس .. والآن ! »

ـ بالأمس ؟ .. في أية مناسبة ؟

ـ عندما كنا نسير في البراري ، فقد طلبت مني أن أجول حيثما أشاء ، بينما كنت تسيرين الهوينى مع مستر هيثكليف ..

فضحكت كاثرين ، وقالت : « هل هذا ما تعنينه بخشونتي وفظاظتي ؟ .. لم يكن ذلك تلميحا إلى أن وجودك غير مرغوب فيه ، فنحن لا يهمنا البتة بقيت معنا أم فارقتنا .. وإنما ظننت أن حديث هيثكليف لن يكون جميل الوقع في أذنيك .. »

فبكت الآنسة الشابة ، وغمغمت تقول : آه .. كلا .. كلا .. إنما قصدت إبعادي لعلمك أنني أحب أن أكون معكما .. » .

فقالت مسز لينتون وهي تنظر إلى مستنجدة : « أهي في تمام عقلها ؟ .. سوف أعيد عليك ما تبادلنا من حديث ، كلمة كلمة ، وعليك يا ايزابيلا أن تريني أي شيء فيه يثير اهتمامك أو يبهجك .. »

ـ إن الحديث لا يهمني ، وإنما أردت أن أكون مع ..

وترددت قليلا ، فقالت كاثرين تستحثها : « حسنا .. مع من ؟ »

ـ معه .. ثم إنني لا أحب أن أنحى عن الطريق دائما .

واستطردت تقول بعد لحظة وهي تزيد النار اضطراما :

ـ إنك أنانية يا كاثي ، تريدين أن تستأثري بكل شيء فلا تدعي لأحد منه نصيبا ، ولا تودين أن ترى أحدا محبوبا سواك !

فصاحت مسز لينتون ، وقد غلبت دهشتها على غضبها :

ـ يالك من قردة صغيرة سليطة اللسان ! .. ولكني لا أصدق أنك على هذا القدر من البلاهة ! .. فمن المحال أن تشتهي إعجاب هيثكليف وتلتمسيه ، وأن تحسبيه شخصا لطيفا مرموقا .. لعلني أسأت فهم ما تعنين يا ايزابيلا ؟

فقالت الفتاة المفتونة : « كلا .. إنك لم تسيئي الفهم .. فإني أحبه أكثر مما أحببت أنت إدجار يوما من الأيام .. وعساه كان خليقا بأن يحبني لو أنك تركته وشأنه .. »

فقالت كاثرين وهي تؤكد كل كلمة تنطق بها ، وقد تبدت في لهجتها الحرارة والإخلاص :

ـ إنني لا أغبطك على موقفك هذا ، ولا أرضى أن أكون مكانك ولو قدم لي عرش مملكة بأسرها .. ألا ساعديني يا نللي في إقناعها بجنون ما تذهب إليه .. قولي لها ما هو هيثكليف .. إنه كالأرض البور التي لم تستصلح ، ومخلوق لا تهذيب لديه ولا علم ولا ثقافة .. والأولى لي أن أضع هذا العصفور الصغير في العراء يوما من أيام الشتاء القارسة ، من أن أنصح لك بأن تهبيه قلبك .. وأن جهلك المحزن بأخلاقه وطباعه يا طفلتي ـ

لا اى شىء آخر – هو الذى يجعل هذا الحلم يملأ راسك .. ولكن مهلا !.. لا تخالى انه يخفى فى اعماقه فيضا من الحنان والعاطفة خلف هذا المظهر الصارم العبوس !.. لا تحسبى انه قطعة من الماس الخام ، او لؤلؤة ثمينة تكمن بين شقى محارة خشنة المظهر .. لا .. إنما هو ذئب ضار خلو من الرحمة والشفقة ، فى ثياب رجل من البشر !.. ولست اقول له : « دع هذا العدو او ذاك فى سلام لانه ليس من الشهامة ان تقسو عليه او تؤذيه » .. وإنما اقول له آمرة : « دعه فى سلام لاننى اكره ان يناله منك سوء » .. وإنه لحرى بأن يهشمك يا ايزابيلا كبيضة العصفور إذا ما وجدك حملا متعبا يبهظ كاهله .. إننى اعلم حق العلم انه لا يمكن ان يحب احدا من آل لينتون ، ومع ذلك فهو خليق بأن يتزوج من ثروتك الحاضرة والمستقبلة !.. فان شرهه للمال ينمو معه حتى اصبح خطيئته الكبرى .. هذه صورته كما اراها وارسمها لك .. وانا مع ذلك صديقته ، وربما كنت حرية ، لو انه فكر جديا فى الإيقاع بك ، بان امسك لسانى وادعك تسقطين فى شراكه ..

فنظرت مس لينتون إلى زوجة شقيقها فى سخط وازدراء ، وقالت :

– يا للعار !.. يا للعار !.. إنك لاسوا من عشرين عدوا ، ايتها الصديقة الافعى !..

– آه .. إنك لاتريدين أن تصدقيني إذن ؟ .. اتظنين اننى اقول ذلك بوحى من الانانية الشريرة ؟ ..

– إننى واثقة من ذلك .. وإننى لارتجف فزعا منك !..

فصاحت الاخرى : « حسنا .. فلتجربى بنفسك إذن !.. لقد قمت بواجبى ، وساضع حدا لهذا الجدل امام قحتك وسوء ادبك .. »

وبينما كانت مسز لينتون تغادر الحجرة ، اخذت الفتاة تنشج بالبكاء ، وتقول :

– كاننى يجب أن اتألم واقاسى من اجل انانيتها واثرتها !.. لقد اصبح كل شىء ضدى .. كل شىء .. فقد قضت على عزائى الوحيد ، ودمرته تدميرا .. ولكنها كانت تنطق بالاكاذيب ، اليس كذلك ؟.. إن مستر هيثكليف ليس شيطانا كما تصوره .. إن له روحا طاهرة شريفة ، وإلا فكيف ذكرها وعاد ليراها ؟

فقلت :

– ابعديه من فكرك يا آنستى .. انه طير مشئوم الطالع ، لايصلح قرينا لك .. لقد كانت مسز لينتون عنيفة فى كلامها ، ومع ذلك فإنى لا استطيع مخالفتها فيما قالته .. فهى ادرى بقلبه منى ومن اى امرىء غيرى ، وما كانت لتصوره بأسوا مما هو عليه حقا !.. فان الاشراف الامناء لا يخفون فعالهم .. وإلا فخبرينى بربك كيف كان يعيش هذه السنين ؟ .. وكيف اصبح ذا مال وثراء ؟ .. ولماذا يقيم فى « مرتفعات ويذرنج » ، فى منزل رجل يبغضه وينفر منه ؟.. إنهم يقولون إن مستر ايرنشو يسير من سيىء إلى اسوا منذ مقدمه .. وهما يقطعان الليل كله جالسين معا دائما ، واخذ هندلى يقترض منه

بضمان ارضه واملاكه ، واصبح لا يفعل شيئا سوى ان يشرب ويقامر .. لقد سمعت ذلك منذ اسبوع فحسب ، وجوزيف هو الذى اخبرنى عند ما قابلته فى جيمرتون .. قال :

« لا تدهشى يانللى إذا سمعت ان بيتنا قد غدا مسرحا لتحقيقات النيابة ، لان بعضهم سوف تقطع اصابعه إذا حاول ان يمنع الآخرين من سلخه كالعجل الذبيح !.. وذلك هو السيد كما تعلمين !.. اما فتاك الطيب هيثكليف ، فياله من شخص نادر المثال .. انه يطلق الضحكة المدوية لدى اول إشارة من الشيطان ، وما اكثر إشاراته ! .. الم يقل لكم شيئا عن حياته الناعمة بيننا عند ما يذهب لزيارتكم فى « الجرانج » ؟ .. هذا برنامجه عندنا .. يستيقظ عند الغروب .. ثم النرد والخمر ، والنوافذ الموصدة ، والشموع المضاءة ، حتى ظهر اليوم التالى .. ثم يحمل السيد إلى حجرته وهو يسب ويلعن بالفاظ تجعل الناس المهذبين – مثلى – يضعون اصابعهم فى آذانهم من العار والخجل !.. واما الخبيث فانه يملأ جيوبه ، ويأكل وينام ، ثم يمضى إلى منزل جاره ليثرثر مع زوجته .. ولا ريب انه قال للسيدة كاثرين كيف يجرى ذهب ابيها إلى جيوبه ، وكيف يجرى إبن ابيها فى طريق الدمار الواسعة ، بينما يسبقه هو ليفتح له ابواب الجحيم .. » واعلمى يا مس لينتون أن جوزيف وإن كان وغدا عريقا إلا انه ليس كاذبا !.. فاذا كان مايرويه من افعال هيثكليف صحيحا ، فما احسبك تودين مثل هذا الزوج لنفسك ، اليس كذلك ؟ ..

– إنك ضالعة فى التآمر ضدى مع الآخرين يا ايلين ! ..

ولن اصغى إلى ترهاتكم ومفترياتكم قط .. اى حقد واية ضغينة تلك التى تدفعك إلى محاولة إقناعى بانه لا توجد اية سعادة فى هذا العالم ؟! .

وليس فى وسعى ان اقرر هل كانت الفتاة ستتغلب على تلك النزوة لو انها تركت وشأنها ، ام انها كانت ستتعهدها وتربيها إلى الأبد ، فان الوقت لم يمهلها ريثما تمعن التفكير فى الأمر .. ففى اليوم التالى عقدت جلسة المحكمة فى المدينة المجاورة ، واضطر سيدى إلى حضورها .. فما أن علم مستر هيثكليف بغيابه ، حتى حضر للزيارة مبكرا عن موعده المعتاد .. وكانت كاثرين وايزابيلا جالستين فى المكتبة ، صامتتين ، وقد حل بينهما الجفاء محل الصفاء .. كانت الاخيرة شديدة الاضطراب لما بدر منها من إفشاء سرها والكشف عن احاسيسها الدفينة فى نوبة عارضة من الاندفاع العاطفى .. واما الأولى فانها ، بعد إمعان التفكير فى الأمر ، ازدادت شعورا بعمق الإساءة التى نالتها من رفيقتها .. وإذا كانت ما تزال تضحك من قحتها وسلاطة لسانها ، فإنها ازدادت ميلا إلى ان تجعل الأمر بالنسبة لايزابيلا ابعد مايكون عن الضحك !.. وقد ضحكت فعلا عندما رأت هيثكليف يمر امام النافذة ، فقد كنت وقتئذ انظف المدفأة ، فلمحت على شفتيها ابتسامة خبيثة .. وكانت ايزابيلا مستغرقة فى تأملاتها ، متظاهرة بالقراءة ، فلم تنتبه لمقدمه ، وظلت فى مكانها حتى فتح الباب .. وكانت الفرصة قد ضاعت لمحاولة الفرار من الحجرة ، وهو الأمر الذى كانت توده وتتمناه لولا أن اصبح متعذرا ..

وهتفت السيدة فى جدل وهى تقرب مقعدا من النار :

ـ ادخل .. لقد اتيت فى وقتك ! .. فهاهنا شخصان فى حاجة الىمة إلى ثالث يذيب الثلج الذى انعقد بينهما .. وانت ذات الشخص الذى نختاره كلانا ونرضاه .. إننى يا هيثكليف لاتيه فخرا بان اقدم لك ، اخيرا ، شخصا شغف بك حبا اكثر منى .. وفى يقينى انك سوف تزهو وتختال عجبا .. كلا .. انها ليست نللى ، فلا تنظر إليها ! .. ولكن شقيقة زوجى المسكينة هى التى يتقطع قلبها لمجرد تامل جمالك الجسدى والروحى ! .. وقد صار فى يدك الآن ان تصبح صهرا لادجار .. كلا .. كلا يا ايزابيلا .. إنك لن تفرى من هنا الآن ..

وكانت الفتاة المحيرة قد هبت واقفة فى ارتياع وحنق ، فاستطردت كاترين ، وهى تمسك بذراعها فى قوة ، وتتظاهر بالمرح والدعابة :

ـ لقد تشاجرنا كالقطط بسببك ياهيثكليف ! .. وقد غلبتنى عن جدارة فى مضمار الدفاع عنك ، بباعث من الوفاء لك والاعجاب بك .. بل لقد قالت لى إننى لو كنت من كرم الخلق بحيث اتنحى عن الطريق ، فان غريمتى ـ كما تود ان تجعل من نفسها ـ سوف ترمى قلبك بسهم يصميه دواما ، ويسدل على صورتى استار النسيان إلى الابد ..

فاستجمعت ايزابيلا اهداب كرامتها المهيضة ، وانفت من النضال فى سبيل الخلاص من القبضة القوية التى تمسك بها ، وصاحت قائلة :

ـ كاترين ! .. سوف أكون شاكرة لك إذا لزمت جادة

فاستطردت كاترين ، وهى تمسك بذراعها فى قوة وتتظاهر بالمرح والدعابة :
ـ لقد تشاجرنا كالقطط بسببك يا هيثكليف !.

الصدق ورجعت من افترائك على ؛ حتى ولو كان على سبيل المزاح ! .. وأرجوك يامستر هيثكليف أن تأمر صديقتك هذه بأن تخلى عنى ، فهى تنسى أنك وأنا لم توثق معرفتنا ببعضنا بعد ، وأن مابـرها وبسليها قد يكون مؤلما لى غاية الألم ..

ولكن الضيف لم يحر جوابا ، بل اتخذ مجلسه بينهما ، وبدا عليه عدم الاكتراث للعاطفة التى انشبت مخالبها فى قلبها من نحوه .. فاستدارت الفتاة وعادت تهمس ، فى لهفة ، متوسلة لمعذبتها أن تخلى سبيلها ؛ ولكن مسز لينتون صاحت قائلة :

ـ محال .. عبثا ما تطلبين !.. فلن يقال عنى أننى استأثر بالشىء فلا أدع لأحد منه نصيبا .. سوف تبقين ما طاب لى أن تبقى !.. وأنت ياهيثكليف ، مالك لا تظهر الغبطة والرضى بهذه الأنباء السارة التى أحملها إليك ؟.. إن إيزابيلا تقسم أن حب إدجار لى لايعد شيئا مذكورا بجانب الحب الذى تكنه لك وتطوى عليه جوانحها .. إننى واثقة من أنها قالت شيئا من هذا القبيل ، أليس كذلك يا إيلين ؟ .. ثم أنها صامت عن الطعام والشراب منذ نزهتنا فى البرارى أول أمس ، من فرط الأسى والغضب لأننى نحيتها عن صحبتك ظنا منى أنها صحبة لا تناسبها ! ..

فقال هيثكليف وهو يدير مقعده ليواجههما معا :

ـ أظنك تكذبين عليها .. فهى تريد الخلاص من صحبتى الآن على أية حال ..

ثم راح يحملق بأنظاره فى حدة إلى الفتاة موضوع الحديث ، كما يحملق المرء إلى حيوان غريب كريه المنظر ـ أو الحشرة

« ذات المائة ساق » التى تعيش فى جزر الهند ـ يدفعه الفضول وحب الاستطلاع إلى تأمله برغم ما يثيره فى النفس من نفور واشمئزاز .. فلم تحتمل الفتاة المنكودة ذلك كله ، وتداول وجهها الشحوب والتورد لحظة بعد أخرى ، وجللت قطرات الدمع اطراف أهدابها ، فأخذت تحاول بكل ما فى أصابعها الدقيقة من قوة ، أن تنتزع قبضة كاثرين القوية على ساعدها .. ولكنها إذ رأت أنها كلما رفعت أصبعا عن ذراعها أطبق غيره عليها ، وقد تعذر عليها أن ترفعها جميعا ، بدأت تستخدم أظفارها الحادة ، وسرعان ما تبدت آثارها على يد كاثرين فى أهلة حمراء دامية ..

فصاحت مسز لينتون وهى تخلى سبيلها ، وتنفض يدها من فرط الألم :

ـ أيتها النمرة المفترسة !.. اغربى عن وجهى بحق السماء ، واخفى عن الناس وجهك البشع المقيت ! .. ألا ما أحمقك إذ تبدين له مخالبك هذه !.. أتقدرين عواقب ما تحدثه من الأثر فى نفسه ؟.. وأنت يا هيثكليف .. انظر .. إن لها أظفارا كأدوات التعذيب !.. وعليك أن تحذر منها على عينيك ..

فأجاب فى وحشية ، عندما أغلق الباب خلف الفتاة :

ـ لو هددتنى بها لعرفت كيف انتزعها من أصابعها .. ولكن ما الذى قصدته من إغاظة تلك المخلوقة على هذا النحو ياكاثى ؟.. انك لم تقولى الحقيقة ، أليس كذلك ؟..

ـ أؤكد لك أننى قلت الحقيقة بحذافيرها .. فقد كانت مدلهة فى هواك طيلة الأسابيع الماضية ، وراحت تهذى بك

هذا الصباح ، وما لبثت أن أطلقت على سيلا من السباب . إننى كشفت النقاب عن مثالبك ومساوئك لأخفف من غلواء إعجابها بك .. ولكن لا تقم للأمر وزنا بعد ذلك .. فكل ما قصدته هو أن أعاقبها على سوء أدبها .. إننى أحبها من كل قلبى ، يا عزيزى هيثكليف ، بحيث لا أسمح لك بأن تنقض عليها فتلتهمها !..

ــ وأنا أكرهها بحيث لا أفكر فى هذه المحاولة ، إلا على طريقة الغيلان !.. ولعمرى سوف تسمعين أمورا غريبة لو قدر لى أن أعيش وحدى مع هذا الوجه الشمعى الشاحب المقيت .. إن أقل ما أفعله هو أن أرسم على صفحته البيضاء ألوان الطيف !.. وأن أحيل زرقة عينيها إلى سواد يوما بعد يوم .. فهاتان العينان تشبهان عينى لينتون إلى حد بغيض ..

فقالت كاثرين فى هدوء :

ــ بل إلى حد جميل .. فهما أشبه بعيون الحمام ، أو عيون الملائكة !..

وعاد يسأل بعد لحظة صمت قصيرة :

ــ إنها وريثة أخيها ، أليس كذلك ؟ ..

ــ شد ما يؤسفنى أن أفكر فى ذلك !.. فلسوف يحجبها ــ بإذن الله ومشيئته ــ ستة من أبناء أخيها !.. ولكن أطرد هذا الخاطر من فكرك الآن .. إن لعابك يسيل لهفة على أملاك جارك ، فاذكر جيدا أن أملاك هذا الجار إنما هى أملاكى أنا ..

ــ لو أنها كانت ملكى لما تغير الأمر بالنسبة إليك .. وقد تكون إيزابيلا لينتون فتاة بلهاء ، ولكنها ليست مجنونة البتة .. حسنا .. سوف ندع الحديث فى هذا الأمر ، كما تريدين ..

ولقد نحيا الحديث حقا ، ولكن عن لسانيهما فحسب .. ولعل كاثرين قد نحته عن فكرها كذلك ، ولكنى على يقين من أن الآخر كان لا يفتأ يذكره فيما بقى من تلك الأمسية ، فقد رأيته يبتسم لنفسه ــ أو بالأحرى يكشر عن أنيابه المتلهفة ــ ويغوص فى لجة من التفكير العميق كلما دعا الأمر إلى غياب مسز لينتون من الحجرة ..

وقوى بى العزم على مراقبة حركاته .. فإن قلبى كان دائما أميل إلى جانب السيد ، منه إلى جانب كاثرين .. وأحسبنى كنت على حق فى ذلك لأنه كان رفيقا عطوفا ، سليم الطوية ، وافر الثقة بالناس ، شريفا طاهر الذيل .. أما هى ، وإن كانت لا يمكن أن يقال عنها إنها على نقيض ذلك ، إلا أنها كانت ــ فيما يبدو ــ تبيح لنفسها حرية واسعة بحيث كنت قليلة الإيمان بتمسكها بالمبادىء القويمة وبالتالى قليلة المبالاة بمشاعرها وانفعالاتها .. وكنت أتمنى أن يحدث شىء يخلص « مرتفعات ويذرنج » و « الجرانج » معا من مستر هيثكليف ، ويردنا إلى الهدوء الذى كان يشملنا قبل مقدمه .. فقد كانت زياراته كابوسا متصلا لى ، بل وللسيد أيضا ، فيما أظن .. وكانت إقامته فى « المرتفعات » جورا وظلما يجل عنه الوصف ، فكنت أحس كأن الله قد تخلى عن الشاة الضالة هناك لتلقى جزاء ضلالها التعس المنحوس ، وأن وحشا شريرا يكمن لها ويتربص بها ويحول بينها وبين حظيرة الأمان ، منتظرا الفرصة السانحة ليثب عليها ويوردها حتفها .

* * *

الفصل الحادى عشر

كنت فى بعض الأحيان ، كلما فكرت فى هذه الأشياء وتدبرتها فى وحدتى ، أحس ذعرا مفاجئا يدفعنى إلى أن أقوم فأضع قلنسوتى فوق رأسى ، وأذهب لأرى كيف تسير الأمور فى « المرتفعات » . كنت أقنع ضميرى بأن من واجبى أن أنذر هندلى بما يتقوله الناس عن مسلكه الشائن ، ولكنى كنت لا ألبث أن أذكر طباعه الشريرة التى يصر عليها ، فأفقد الأمل فى أن يكون لمسعاى أية ثمرة مرجوة ، وعندئذ أحجم عن العودة إلى ذلك البيت المنحوس ، وإن كان الشك يخامرنى فى قدرتى على احتمال التمسك بما قطعته على نفسى من عهد ..

وذات مرة ، كنت ذاهبة إلى « جيمرتون » ، فمضيت من طريق غير الطريق المألوفة ، حتى اجتزت البوابة القديمة .. وكان ذلك فى الوقت الذى بلغته من حكايتى .. وكان عصر يوم مشمس شديد البرودة ، وقد تعرت الأرض من العشب ، وجفت الطريق وصلب أديمها .. وبلغت كتلة من الحجر يتفرع الطريق عندها يسارا إلى البرارى والأحراش ، تقوم فوق عمود من الصخر الرملى غير المشذب ، وقد نقش عليه ، عند طرفه الشمالى ، حرفا « م.و » ، وعند الطرف الشرقى حرف « ج » ، وعند الطرف الجنوبى الغربى « ث.ج. » فقد كان هذا الحجر يتخذ دليلا ومرشدا إلى مرتفعات ويذرنج وبلدة جيمرتون وثرشكروس جرانج .. وكانت الشمس تتألق فوق قمته السمراء ، فتذكرنى بأيام الصيف .. ولست أدرى

ما الذى حل بى ، ولا سببه ، إذ أحسست ، دفعة واحدة ، فيضا من أحاسيس الطفولة يتدفق إلى قلبى .. فقد كنت وهندلى منذ عشرين عاما نتخذ هذه البقعة مرتعا مفضلا للعبنا .. ورحت أتأمل الكتلة الحجرية طويلا ، وقد نهشتها عوامل الجو المختلفة ، ثم انحنيت فوق حجر صغير عند قاعدتها .. ووجدته مازال مليئا بأصداف القواقع والحصباء الملونة التى كنا مولعين بإخفائها هناك مع غيرها من الأشياء الأخرى السريعة العطب .. فخيل لى أننى أرى رفيق صباى القديم ، واضحا جليا كأنه هو بلحمه ودمه ، وقد جلس على العشب اليابس ، واحنى رأسه الأسمر المربع إلى الأمام ، وراح يحفر الأرض بقطعة من الأردواز .. عندئذ هتفت فى غير وعى : « هندلى أيها المسكين » ! .. وسرعان ما أجفلت وانتفضت ، إذ لعب بعينى خداع البصر فاعتقدت لحظة أن الغلام قد رفع رأسه وراح يحملق فى عينى !.. ولقد تلاشت هذه الرؤيا فى مثل وميض البرق ، ولكنى ما لبثت أن شعرت بحنين لا يقاوم نحو الذهاب إلى المرتفعات .. وقد استحثتنى الأوهام والخرافات إلى الاستجابة لهذا الهاتف .. فمن يدرى لعله الآن قد مات ، أو لعله ـ فيما خيل إلى ـ مشرف على الموت ؟! .. وكنت كلما ازددت قربا من البيت ، ازداد انفعالى واضطرابى ، حتى إذا ما لمحته من بعد سرت القشعريرة فى كل خلية من بدنى .. وكانت « الرؤيا » التى تراءت لى عند علامة الطريق ، قد سبقتنى إلى هناك ، ووقفت تتطلع إلى من خلال البوابة ! .. أو على الأقل كانت هذه هى الفكرة التى

بدرت إلى ذهنى عندما رأيت غلاما مشعث الشعر أسود العينين ، يطل بوجهه المتورد من خلال القضبان .. ولكنى ما لبثت أن أدركت أن ذلك لابد أن يكون هيرتون ، ولدى هيرتون ، الذى لم يتغير كثيرا منذ فارقته من عشرة شهور ..

نسيت مخاوف السخيفة فى الحال ، وهتفت به قائلة :

ـ ليباركك الله يا حبيبى ! .. هيرتون .. إننى نللى .. نللى ، مربيتك ! ..

فتراجع إلى الخلف قدر ذراع ، ثم التقط من الأرض حجرا كبيرا ، فحدست من هذا الفعل أنه إذا كانت نللى مازالت تعيش فى ذاكرته ، فإنه لم يتبينها فى شخصى البتة ! .. واستطردت أقول :

ـ لقد أتيت لأرى أباك ياهيرتون !

فرفع يده بالقذيفة ليرشقنى بها ، وعندئذ انطلقت فى حديث رقيق لأهدىء من سورته ، ولكنى لم أستطع منع يده . فأصابنى الحجر فى رأسى .. وسرعان ما تدفق من شفتى الغلام المتلعثمتين سيل من الشتائم وألفاظ السباب التى كان ـ سواء فهمها أم لم يفهم معناها ـ ينطق بها فى خبرة مؤكدة ! وأساريره الصغيرة تتقلص فى حقد وكراهية بشران الألم .. ولك أن تثق ، يامستر لوكوود ، أن ذلك قد أحزننى أكثر مما أغضبنى .. ! وكنت على وشك البكاء ، عندما أخرجت برتقالة من جيبى وقدمتها إليه لأستميله وأترضاه ، فتردد لحظة وما لبث أن اختطفها من يدى ، كأنما خيل إليه أننى

تعمدت إغراءه ثم العبث به .. وأخرجت برتقالة أخرى أريتها له ، وقد أبعدتها عن متناول يده ، ثم سألته :

ـ من الذى علمك هذه الألفاظ الجميلة يا ولدى ؟ أهو القس ؟

فأجابنى : « لعنة الله على القس ، وعليك ! .. أعطينى هذه ! »

ـ أخبرنى أولا أين تلقنت دروسك ، وسأعطيها لك .. من هو مدرسك ؟

ـ الشيطان أبى !

ـ وما الذى تعلمته من أبيك ؟

فقفز ليخطف البرتقالة من يدى ، ولكنى رفعتها إلى أعلى ، واستطردت أسأله : « ما الذى يعلمه لك أبوك ؟ »

ـ لا شىء سوى أن أظل بعيدا عن طريقه .. وأبى لا يستطيع أن يضربنى ، لأننى أشتمه ..

ـ آه ! .. وهل الشيطان هو الذى يعلمك أن تسب أباك وتشتمه ؟

فأجاب وهو يتشدق بكلامه : « آه ! .. لا .. لا .. » .

ـ من إذن ؟

ـ هيثكليف ..

فسألته عما إذا كان يحب مستر هيثكليف ، فأجاب : « آه ! .. نعم .. » .

ومضيت أجاذبه أهداب الحديث لأعرف منه سبب حبه إياه ، فلم أخرج منه إلا بهذه العبارات :

ـ لا ادرى . . ولكنه يكيل لأبى الصاع صاعين مما يفعله بى . . وهو يسب ابى كلما شتمنى ، ويقول إننى يجب ان افعل ما يتراءى لى !

ـ ولكن الا يعلمك القس القراءة والكتابة إذن ؟

ـ كلا . . لقد قيل لى إن القس سوف يجد اسنانه مقذوفة إلى حلقه ، إذا وضع قدمه على عتبة الدار . . وهيثكليف هو الذى وعدنى بذلك !

فوضعت البرتقالة فى يده ، ثم سألته ان يخبر اباه بأن سيدة تدعى « نللى دين » تنتظر عند بوابة الحديقة وترغب فى ان تتحدث إليه . . فمضى فى الممر حتى اختفى داخل الدار . ولكنى رأيت هيثكليف ـ لا هندلى ـ هو الذى يظهر فى الباب ، فدرت على اعقابى ، وانطلقت اعدو فى الطريق بكل ما وسعنى من جهد وسرعة ، دون ان اتوقف لحظة ، حتى بلغت علامة الطريق الحجرية ، وقد تملكنى فزع مروع كأننى اطلقت الشياطين من عقالها !

وليس لهذا الحادث صلة مباشرة بقصة مس ايزابيلا ؛ اكثر من انه شدد من عزيمتى على فرض حراسة شديدة حولها ؛ وان ابذل غاية جهدى فى وقف تغلغل مثل هذا التأثير الشرير فى (الجرانج) ، ولو اضطررت إلى إثارة عاصفة فى الدار ؛ بإفساد سرور مسز لينتون وابتهاجها .

فلما حضر هيثكليف فى زيارته التالية ، صادف ان كانت الآنسة الشابة تطعم الحمام فى الفناء ، وكانت قد لبثت ثلاثة

ايام لا تخاطب كاثرين بكلمة ، وإن كانت قد تخلت عن عبوسها وتذمرها ؛ مما وجدنا له راحة فى نفوسنا . . وكنت اعلم انه ليس من عادة هيثكليف ان يوجه اية مجاملة غير لازمة لمس لينتون ، ولكنه ما كاد يلمحها فى ذلك اليوم ، حتى القى على واجهة الدار نظرة حذرة فاحصة ، ثم سار نحوها . . وكنت اقف بجوار نافذة المطبخ ، ولكنى اسرعت فتواريت عن انظاره، فرأيته يجتاز الفناء إليها ويقول لها شيئا . . فبدا عليها الضيق والحرج ، والرغبة فى الفرار منه ، ولكنه وضع يده على ذراعها ليمنعها من المسير ، فحولت وجهها عنه . وكان من الواضح انه القى عليها سؤالا ، وانها لم تشأ الإجابة عليه ، وعندئذ القى على المنزل نظرة اخرى سريعة ، وإذ حسب نفسه بمنجاة عن الأنظار ، كان الوغد من النذالة بحيث احتضنها وقبلها !

عندئذ هتفت دون وعى :

ـ ايها الخائن يهوذا ! يا لك من منافق عريق ، ومخادع اصيل !

فانبعث صوت عند مرفقى ، يقول : « من هو ذاك يا نللى؟»

كان ذلك صوت كاثرين وقد دخلت الحجرة دون ان اشعر بها ، لاستغراقى فى مراقبة الاثنين الواقفين فى الخارج، فاجبتها فى حرارة :

ـ إنه صديقك الحقير ! . . ذلك الوغد المتسلل هناك ! . . آه ! لقد لمحنا ، وها هو ذا قادم إلى الدار . شد ما اعجب

هل يجد لديه من الصفاقة ما يتيح له ان يبرز مغازلته لمس ايزابيلا ، على حين انه اخبرك بانه يكرهها ؟

وكانت مسز لينتون قد لمحت ايزابيلا وهى تتخلص من يديه ، ثم تعدو هاربة إلى الحديقة . وفى اللحظة التالية كان هيثكليف يفتح الباب ، فهممت بأن اطلق العنان لسخطى واطلعه على رأيى فيه لولا ان كاثرين اصرت على ان تسكتنى ، وهى غاضبة ، وهددتنى بطردى من المطبخ إذا تجاسرت على الإمعان فى القحة بإطلاق لسانى السليط ، وصاحت بى :

ـ إن من يسمعك يظنك سيدة هذه الدار ! .. وإنك لفى حاجة لمن يلزمك حدك ، ويعرفك قدرك . وانت ياهيثكليف ، ما الذى تسعى وراءه من إثارة هذه الضجة ؟ .. لقد قلت لك إنك يجب ان تدع ايزابيلا وشأنها ، وانى لأرجو ان تفعل . إلا إذا كنت قد سئمت التردد على هذه الدار ، وتريد ، ان يوصد لينتون ابوابها فى وجهك !

فقال الشيطان الاسود ، الذى لم امقته فى حياتى قدر مقتى له وقتئذ :

ـ سألت الله ان يجنبه هذه المحاولة ، وان يبقى عليه نعمة الحلم والصبر .. فاننى ازداد كل يوم لهفة على إرساله إلى السماء !

فهتفت كاثرين وهى تغلق الباب الداخلى : « صه ! .. وحسبك لا تزدنى غضبا . ولكن لماذا تجاهلت رجائى وتغاضيت عنه ؟ .. هل اعترضت طريقك عن عمد ؟ » .

فزمجر قائلا : « وماذا يهمك من ذلك ؟ .. من حقى أن اقبلها ، إذا رضيت ذلك ، وليس من حقك ان تعترضى ، فانتى لست زوجك ، ولا حاجة بك إلى ان تغارى منى ؟ »

فأجابت السيدة : « لست اغار منك ، وإنما تأخذنى الغيرة من اجلك ! .. والآن دع عنك هذا التقطيب ، فانك لن تعبس فى وجهى او تتجهم لى . وإذا كنت تحب ايزابيلا فسوف تتزوجها ، ولكن هل تحبها ؟ .. اخبرنى بالحقيقة يا هيثكليف .. آه ! .. إنك لا تريد أن تجاوبنى .. وإنى واثقة من انك لا تحبها ! »

فتدخلت فى الحديث متسائلة :

ـ وهل يوافق مستر لينتون على زواج شقيقته من هذا الرجل ؟

فأجابت سيدتى ساخرة : « لابد لمستر لينتون من الموافقة .. »

فقال هيثكليف : « بل ليوفر على نفسه هذا العناء ، لأننى استطيع ان افعل ما اشاء دون حاجة إلى رضائه . واما انت ياكاثرين ، ففى نيتى ان اقول لك كلمتين الآن بهذه المناسبة : اود ان تعرفى باننى اعلم انك عاملتنى معاملة جهنمية ، هل تسمعين ؟ .. معاملة جهنمية خبيثة . فاذا كنت تهنئين نفسك باننى لم اعرف ذلك ، فانت بلهاء . وإذا كنت تحسبين ان الكلمات المعسولة تخدعنى وتخفف عنى ، فانت حمقاء .. اما إذا كنت تتصورين اننى ساحتمل ذلك دون ان انتقم لنفسى ، فسوف اقنعك عما قريب بعكس ما تتصورين ! .. وفى

الوقت نفسه فإنى أشكر لك اطلاعى على سر شقيقة زوجك . واقسم بأن أفيد من هذا السر إلى أبعد حد . وما عليك إلا أن تتنحى جانبا ! »

فهتفت مسز لينتون ، فى دهشة وذهول :

ـ ما هذا التطور الجديد فى أخلاقك ؟ .. أتقول إننى عاملتك معاملة جهنمية ، وأنك ستأخذ بثأرك ؟ .. ولكن كيف تنوى أن تفعل أيها الوحش الجحود ؟ .. وكيف بالله عاملتك معاملة جهنمية ؟

فأجاب هيثكليف وقد فترت حرارته قليلا :

ـ إننى لا أسعى للانتقام منك أنت ، فإن ذلك ليس من خطتى . إن الطاغية يسحق عبيده ، ولكنهم لا ينقلبون ضده . وإنما يسحقون من يلونهم فى المرتبة ! .. ومرحبا بالعذاب أجرعه من يدك حتى الموت ، إذا كان فى ذلك مسلاة لك . ولكن دعينى فقط أتسلى قليلا بالطريقة نفسها .. ودعك من إهانتى بقدر ما يسعك . لقد هدمت القصر الذى بنيته حجرا فوق حجر ، حتى سويته بالأرض ، فلا تقيمى لى كوخا ثم تتيهى فخرا بفضلك وإحسانك عندما تقدمينه لى منزلا ! .. ولو خطر ببالى أنك تودين حقا أن أتزوج ايزابيلا ، فإننى أكون غرا لا يستحق الحياة !

فصاحت كاثرين :

ـ آه ! .. لقد أغاظك أننى لا أحس بالغيرة ، أليس كذلك ؟ حسنا ، لن أعيد ما عرضته من زواجك بإيزابيلا ، فذلك أشبه

بتقديم روح ضالة إلى الشيطان . ولعمرى إن هناءك وسعادتك إنما ينبعان من إشاعة الشقاء بين الناس ! .. وهذا ما أثبته لى . لقد هدأت حدة غضب ادجار واستيائه من عودتك ، وبدأت أشعر بالأمن والدعة والهدوء ، ولكنك إذ يهولك أن ترانا نعيش فى سلام ، تصمم على أن تثير المتاعب والشجار . اذهب يا هيثكليف فتشاجر مع ادجار ، إذا طاب لك أن تفعل ، واخدع شقيقته وغرر بها ، فإنك بذلك تقع تماما على خير وسيلة لتنتقم بها لنفسك منى !

وانقطع الحديث عند هذا الحد ، فجلست مسز لينتون بجوار المدفأة ، متوردة الوجه ، يرتسم على محياها الحزن والكآبة ، فإن المارد الذى أخرجته من القمقم ليخدمها قد تمرد عليها ، فلا هى قادرة على إعادته ، ولا هى مستطيعة السيطرة عليه ! .. أما هو فقد وقف أمام المدفأة معقود الذراعين فوق صدره ، مستغرقا فى التفكير فى خواطره الشريرة .. وعلى هذا الوضع تركتهما وذهبت أبحث عن السيد الذى كان يعجب مما أبقى كاثرين أسفل الدار كل هذه المدة ! .. وما كدت أدخل عليه حتى سألنى :

ـ هل رأيت سيدتك يا ايلين ؟

ـ نعم ، إنها فى المطبخ يا سيدى ، وقد أغضبها مسلك مستر هيثكليف إلى حد يثير الشجن . والحق يا سيدى أننى أرى الوقت قد حان لتنظيم زياراته على أساس آخر . فمن الضرر البالغ أن يعامل بالرفق واللين بعد أن وصل الأمر الآن إلى هذا الحد !

ثم مضيت أقص عليه ما حدث فى الفناء ، وما تلا ذلك من نقاش حاد ، بعد أن أغضيت عن ذكر ما لم أجرؤ على قوله . وقد خطر لى أن ذلك لن يسىء كثيراً إلى مسز لينتون ، ما لم تسىء هى إلى نفسها فيما بعد إذا ما اتخذت موقف الدفاع عن ضيفها . أما مستر لينتون فقد نفد صبره قبل أن أتم حديثى ، وكانت كلماته الأولى تنم على أنه لا يخلى كاترين من اللوم ، فقد صاح :

ـ هذه حالة لا تطاق ، ومن العار أن تتخذ كاترين منه صديقا وتفرض صحبته على فرضا !.. استدعى يا نللى خادمين إلى البهو ، فلن أدع كاترين تتمهل طويلا فى النقاش مع الوغد المنحط . لقد جاملتها بما فيه الكفاية !

ونزل إلى الطابق الأرضى ، وأمر الخادمين بالانتظار فى الممر ، ثم مضى إلى المطبخ ، فتبعته ، ورأينا الصديقين قد عاودا مناقشتهما الثائرة .. أو بالأحرى كانت مسز لينتون ممعنة فى تقريعه من جديد بقوة وصرامة . أما هيثكليف فكان يقف عند النافذة ، مطاطىء الرأس ، وقد بدا مرتاعا ـ إلى حد ما ـ من ثورتها العنيفة حياله . وكان هو أول من رأى السيد ، فأومأ إليها بإشارة سريعة أن تخلد إلى الصمت ، وما لبثت أن كفت عن الكلام بغتة وقد اكتشفت سبب إشارته .. وبدأ لينتون يقول :

ـ ما معنى هذا ؟ .. وعلى أى وجه تفهمين الحشمة واللياقة إذا كنت تبقين هنا وتصغين إلى الألفاظ التى يصبها فى مسامعك هذا السفيه البذىء اللسان ؟ ! .. ولكن أحسبك

لا ترين فيها شيئا ، إذ هى لغته المعتادة !.. لقد ألفت ضعته وانحطاطه ، ومن يدرى فلعلك تتخيلين أن بوسعى أن آلفها كذلك !

ـ هل كنت تسترق السمع من وراء الباب يا ادجار ؟

ولقد نطقت السيدة بهذه الكلمات فى لهجة عنيت باستخدامها كى تثير زوجها وتستفزه ، إذ كانت تنطوى على الاستخفاف وازدراء ثورته ، معا ..

أما هيثكليف ، فقد رفع رأسه عند سماعه حديث سيدى ، وما لبث أن أطلق ضحكة ساخرة مستهزئة إذ سمع ما قالته السيدة .. ولعله قصد أن يثير انتباه مستر لينتون إليه ، وقد نجح فى ذلك حقا .. ولكن ادجار لم يكن فى نيته أن يعامله فى غضب جامح ، فقال فى هدوء :

ـ لقد ترفقت بك طويلا يا سيدى ، لا لأننى أجهل سوء خلقك التعس ، ولكن لأننى كنت أشعر أنك غير مسئول عن ذلك تماما .. فلما أرادت كاترين أن تبقى على معرفتك ، وافقتها فى حمق وبلاهة .. بيد أن وجودك قد غدا سما أدبيا يدنس أكثر الناس فضيلة ونقاء . ولهذا السبب ، ولكى نتقى سوء العاقبة ، فإنى أمنعك من الحضور إلى هذا المنزل بعد الآن ، وأطلب إليك الانصراف فى الحال .. فإن تأخرت ثلاث دقائق ، فسوف يكون خروجك قسرا وبطريقة مخزية !

فنظر إليه هيثكليف وهو يقيس طوله وعرضه بعين ملأى بالزراية والاستهزاء ، ثم قال : « كالى .. إن حملك هذا

يهدد ويتوعد بلغة الفحول !.. وإنه لفى خطر من تهشيم جمجمته على مفاصل قبضتى . يا إلهى !.. شد ما يؤسفنى يا مستر لينتون أنك لست أهلا لأن أصرعك ! »

فنظر سيدى ناحية الممر ثم أشار إلى أن أدعو الرجلين ، إذ لم يكن فى نيته أن يخاطر بعراك مباشر مع هيثكليف ، فأطعت إشارته ، ولكن مسز لينتون ارتابت فى أن هناك شيئا ما ، وتبعتنى .. فلما حاولت نداء الرجلين ، فطنت للأمر فجذبتنى إلى الداخل ثانية ، ودفعت الباب فأغلقته ، ثم أوصدته بالمفتاح !

ونظر إليها زوجها فى دهشة وغضب ، فقالت ردا على تساؤله :

ـ يا لها من وسائل شريفة تتبعها !.. إذا كانت الشجاعة تعوزك لمهاجمته ، فاعتذر إليه ، أو دعه يهزمك !.. وسوف يشفيك ذلك من غرورك وتظاهرك بأكثر مما أنت عليه من قوة وبأس . كلا ، سوف أبتلع المفتاح قبل أن تأخذه منى .. يا إلهى !.. لقد لقيت منكما أطيب جزاء على ما أسديته لكليكما من فضل وعطف .. وبعد طول تسامحى واحتمالى المستمر لضعف أحدكما وسوء خلق الثانى ، ألقى الشكر منكما ممثلا فى نموذجين من الجحود الأعمى ، والحمق السخيف .. لقد كنت أدافع عنك وعن ذويك يا إدجار ، ولكنى أتمنى الآن أن يجلدك هيثكليف بالسياط حتى تخور قواك ، جزاء تجاسرك على سوء ظنك بى !

ولم يكن السيد فى حاجة لهذه التجربة حتى يحل به ذلك الخور ، فقد حاول أن ينتزع المفتاح من قبضة كاثرين ، ولكنها رأت الأسلم أن تلقى به وسط شعلة النار المتأججة فى الموقد . وعندئذ أخذت مستر إدجار رعدة عصبية شديدة ، وشحب وجهه حتى أصبح كوجوه الموتى ـ إذ لم يكن فى وسعه أن يقهر ذلك الفيض من الانفعال والتأثر ، إبقاء على حياته ـ وهكذا قهره ذلك المزيج من الألم والهوان ، فاستند إلى ظهر أحد المقاعد ، وأخفى وجهه بين يديه .. فاستطردت مسز لينتون هاتفة :

ـ آه !.. يا للسماء !.. لو كنا فى الأيام الخوالى لأحرزت رتبة الفروسية لمسلكك هذا !.. لقد قهرنا ، وغلبنا على أمرنا !.. ولن يرفع هيثكليف إصبعا عليك ، إلا كما يجرد الملك حملة من جيشه لتأديب عصبة من الجرذان !.. ولكن ابشر وقر عينا ، فلن يصيبك سوء البتة . إن من كان على شاكلتك لا يعد حملا ، وإنما هو أرنب رضيع !

فقال صاحبها : « شد ما أود أن تتيهى فرحا بهذا الجبان الذى يجرى فى عروقه اللبن بدلا من الدماء !.. وإنى أهنئك بذوقك وحسن اختيارك ، فهذا هو الرعديد الذى يسيل ريقه على ذقنه ، والذى فضلته على .. إننى لا أرضى بأن أضربه بقبضة يدى ، وإنما تكفى ركلة من قدمى لترضينى كل الرضاء .. أتراه يبكى ، أم هو مشرف على الإغماء خوفا وفرقا ؟ »

ودنا هيثكليف فركل بقدمه المقعد الذى يستند إليه

لينتون . ولقد كان خيرا له الا يقترب إلى هذا الحد ، فإن سيدى رفع قامته فى وثبة سريعة ، ولطمه بجمع يده على رقبته لطمة كانت كفيلة بأن تصرع شخصا أضعف بنية من هيثكليف ، الذى انقطعت أنفاسه لحظة .. وفيما كان لا يزال يحشرج بأنفاسه ، خرج مستر لينتون من الباب الخلفى إلى الفناء ، ومنه إلى المدخل الأمامى .. عندئذ صاحت كاثرين :

ـ أرأيت ؟ .. هاأنت قد قطعت على نفسك سبيل الحضور إلى هنا .. فانصرف الآن ، لأنه سوف يعود وفى يديه زوج من المسدسات ، ومعه ثلة من الأعوان .. وإذا كان قد سمع ما قلناه ، فلن يصفح عنك بطبيعة الحال ، فإنك يا هيثكليف قد أسأت إليه إساءة بالغة .. ولكن اذهب .. أسرع .. فإنى أفضل أن أرى ادجار فى ورطة عن أن أراك أنت ..

فهدر هيثكليف بصوت كالرعد :

ـ أتظنين أننى أذهب وهذه اللطمة ما زالت تحرق حلقى ؟ .. يا للشيطان ! .. كلا ، بل سوف أحطم ضلوعه كبندقة معطوبة قبل أن أخطو خطوة خارج الدار . وإذا كنت لا أطرحه أرضا الآن ، فثقى أننى سوف أقتله يوما من الأيام . وما دمت تقيمين وزنا لحياته ، فدعينى أثأر لنفسى منه وأناله الآن !

فتدخلت أنا قائلة ، وقد استبحت لنفسى شيئا من الكذب :

ـ إنه لن يأتى إلى هنا ، بل سيرسل الحوذى واثنين من البستانيين . ومن المؤكد أنك لن تنتظر حتى يلقوا بك فى

عرض الطريق .. ثم أن كلا منهم يحمل هراوة غليظة ، وسوف يرقبهم السيد من نافذة البهو ليرى أنهم قد نفذوا أوامره ..

وكان الحوذى والبستانيان موجودين حقا ، ولكن لينتون كان معهم . وكانوا قد اجتازوا الفناء بالفعل ، ففكر هيثكليف فى الأمر ، وقرر أن يتحاشى العراك مع الخدم الثلاثة ، وتناول محرك النار فهشم به قفل الباب الداخلى ، واتخذ سبيله إلى الفرار ، فى الوقت الذى كانوا يدخلون فيه من الباب الآخر ..

وكانت مسز لينتون شديدة الانفعال ، فأمرتنى بأن أرافقها إلى الطابق العلوى .. ولم تكن تعرف شيئا عن الدور الذى لعبته فى إثارة هذه المشكلة ، كما أننى كنت متلهفة على أن تظل فى جهلها هذا ..

وألقت بنفسها فوق الأريكة فى حجرة الجلوس ، وهى تصيح :

ـ إننى أكاد أفقد عقلى يا نللى .. وأحس بألف من مطارق الحدادين تهوى على رأسى .. قولى لإيزابيلا أن تتجنب لقائى ، فإن هذه الضجة الكبرى إنما نشبت بسببها .. وإذا طاب لها ، أو لأى شخص آخر أن يزيد من غضبى فى هذه اللحظة ، فسوف أغدو ضارية متوحشة . ثم قولى لادجار يا نللى ، إذا رأيته ثانية الليلة ، إننى فى خطر الإصابة بمرض خطير .. وليت ذلك يحدث فعلا . لقد أفزعنى وأحزننى وأصابنى بهم خانق ، ولذلك أريد أن أفزعه بدورى .. ثم إنه

قد يأتى ليبدا حلقة جديدة من الإهانات او التذمر والشكوى . وإنى واثقة من أننى سوف أقابل الإهانة بمثلها ، وعندئذ لا يعلم إلا الله إلى اين ينتهى بنا الامر .. هل تفعلين ذلك من اجلى ، يا عزيزتى نللى الطيبة ؟ .. انك تعلمين اننى لا يمكن ان الام ، بحال من الاحوال ، فيما حدث .. فما الذى أصابه حتى جعل منه متسمعا على الأبواب ؟ .. لقد كان حديث هيثكليف مشينا بعد أن تركتنا ، ولكننى كنت كفيلة بأن أصرفه سريعا عن ايزابيلا ، وما بقى بعد ذلك لا يعد شيئا مذكورا .. ولكن كل شىء اندفع فى الطريق الخاطىء الآن ، بسبب لهفة ذلك الأحمق على سماع كلمات السوء التى تقال عنه ، وهى نزوة تتملك بعض الناس كشيطان يسكن ابدانهم !.. ولو أن ادجار لم يتسمع على حديثنا قط ، لما أصابه من السوء أكثر مما أصابه . والواقع انه عندما اقتحم على الباب ، وخاطبنى بتلك اللهجة الحمقاء ، وذلك الحنق السخيف ، بعد أن كنت انهال على هيثكليف لوما وتقريعا ـ حتى بح صوتى ـ من اجله ، احسست باننى لم اعد ابالى ما يفعله كل منهما بالآخر .. خصوصا وقد شعرت بانه على اى وجه ينتهى ذلك المشهد ، فإننا سوف يتمزق شملنا لمدة لا يعرف أحد مداها . حسنا ، إننى إذا عجزت عن الاحتفاظ بصداقة هيثكليف ، وإذا انقلب إدجار حقودا غيورا ، فسوف أحاول تحطيم قلبيهما بأن أحطم قلبى بنفسى .. فتلك اسرع الوسائل لإنهاء كل شىء ، إذا ما وجدت نفسى مسوقة إلى ابعد الحدود .. ولكنه عمل ينبغى إرجاؤه حتى يخيب الأمل وينقطع الرجاء ، ولن أفاجىء لينتون به . لقد ظل حتى الآن حريصا على

الخوف من إثارتى ، فعليك ان تمثلى له خطورة تخليه عن هذه السياسة ، وان تذكريه بحدة طبعى وسرعة تأثرى، بحيث اغدو على حافة الجنون إذا اضطرمت نيران غضبى . وكم أود يا نللى ان تصرفى من أساريرك هذا الجمود والتبلد ، وان تلوحى اكثر لهفة وقلقا على !

ولا ريب ان الفتور الذى كنت ألقى به هذه التعليمات كان مما يثير الحنق والسخط ، فقد كانت تمليها على بلهجة مليئة بالحرارة والاخلاص ، ولكنى كنت اعتقد أن الشخص الذى يستطيع تدبير نتائج نوبات غضبه مقدما ، يستطيع بالمثل ان يدبر كيف يسيطر على نفسه حتى ولو عانى آثارها . ثم إننى لم اكن اريد أن « افزع » السيد ، كما قالت ، واضاعف من احزانه ، خدمة لأنانيتها .. لذلك لم اقل للسيد شيئا عندما التقيت به قادما إلى حجرة الجلوس ، ولكن ابحت لنفسى ان اعود ادراجى لانصت إلى حديثهما ، واعلم إن كانا سيعودان إلى الشجار ثانية . وكان هو البادىء فى الحديث ، إذ قال فى هدوء ، دون ان تشوب صوته شائبة من غضب او حنق ، بل كانت نبراته تنم بالقنوط والأسى ، قال :

ـ ابقى حيث انت يا كاثرين ، فلن ابقى طويلا . وما اتيت لاجادلك او لتصالحينى . كلا ، وإنما اريد فقط ان اعرف إذا كنت ـ بعد أحداث هذا المساء ـ تنوين الاستمرار فى صلتك الوثيقة مع ..

فقاطعته السيدة وهى تدق الأرض بقدميها :

ـ رحماك ! .. رحماك ! .. بحق السماء لا تدعنا نسمع المزيد عن هذا الأمر الآن ! .. إن دماءك الباردة لا يمكن أن تجعلك تصاب بالحمى ، كما أن عروقك مليئة بماء مثلج ، على حين بلغت عروقى درجة الغليان . ومجرد رؤيتى لمثل هذه البرودة القارصة تجعلها تتراقص من حرارة الحمى ! .

فلم تثن فتاة مستر لينتون ، بل مضى يقول فى إصرار :

ـ عليك أن تجيبى على سؤالى إذا أردت الخلاص منى ، بل لا بد لك من الإجابة عليه . وهذا العنف الذى يتملكك لا يقلقنى ولا يهمنى ، فقد تبينت أن بوسعك أن تكونى رابطة الجأش قليلة الاكتراث ، كأى انسان آخر إذا أردت . فهل تنوين التخلى عن هيثكليف بعد الآن ، أم تريدين التخلى عنى ؟ .. من المحال عليك أن تكونى صديقتى وصديقته فى نفس الوقت ، وإنى أصر تماما على معرفة أينا تختارين ..

فصاحت كاثرين ثائرة : « وإنى أصر على أن أترك وحدى الآن . إننى أطالبك بذلك .. ألا ترانى لا أكاد أستطيع الوقوف ؟ .. ادجار .. دعنى .. اتركنى ! »

وراحت تشد حبل الجرس حتى انقطع وهو يدوى برنين متصل .. فدخلت الحجرة مهلة ، فإن مثل هذه الثورات الشريرة الحمقاء خليقة بأن تثير حنق القديسين ! .. ووجدتها

مستلقية تضرب رأسها بذراع الأريكة ، وتصرف بأسنانها حتى ليخيل إليك أنها ستحطمها حتى تتناثر شظاياها . وكان مستر لينتون واقفا ينظر إليها وقد تملكه الخوف ، بل ووخز الضمير . فجأة ! .. وأمرنى بأن أحضر بعض الماء ، على حين كانت متقطعة الأنفاس ، لا تستطيع النطق . وأحضرت كوبا مليئة بالماء ، ولما رفضت أن تشربها ، سكبتها فوق وجهها . وبعد ثوان معدودة كانت قد مدت جسمها المتصلب ، وقلبت عينيها ، بينما ابيضت وجنتاها ثم ازرقتا ، واتخذت سمة الموتى .. فبدا لينتون فزعا مرتاعا ، ولكنى همست أقول له :

ـ لا شىء البتة .. لا شىء بها !

لقد كرهت أن يلين ويستسلم ، ولو أننى كنت أحس بالخوف فى أعماق قلبى .. فقال وقد أخذته قشعريرة شديدة :

ـ إن الدماء تسيل من شفتيها !

ـ لا بأس .. فما بها من شىء !

ثم رويت له كيف صممت ، قبل مجيئه ، على تمثيل نوبة من الصرع أمامه . ولكنى لم أحاذر ، وتكلمت بصوت مرتفع ، فسمعتنى .. إذ انتفضت واقفة ، وقد انسدل شعرها فوق كتفيها ، وومضت عيناها ببريق مروع ، وتوترت عضلات

رقبتها وذراعيها على نحو غير طبيعى .. فوطنت نفسى على انها ستهشم عظامى ، على اقل تقدير . ولكنهـا اكتفت بالتحديق فيما حولها بنظرات نارية ، ثم اندفعت بغتة خارجة من الحجرة ، وامرنى السيد بان اتبعها ، فتبعتها حتى باب حجرتها ، حيث دخلت واغلقته فى وجهى ..

ولما لم تنزل لتناول الإفطار فى الصباح التالى ، مضيت إليها لاسالها هل تود ان نحمله إليها ، ولكنها اجابت فى لهجة قاطعة : « كلا ! » .. ثم كررت عليها السؤال ساعة الغداء ، ثم فى موعد تناول الشاى بعد الظهر ، وفى صباح اليوم التالى .. فكنت اتلقى نفس الإجابة الحاسمة . اما مستر لينتون فقد قضى طيلة الوقت فى المكتبة ، ولم يسال قط عما تفعله زوجته .. وكان قد قضى ساعة مع إيزابيلا على انفراد ، حاول خلالها ان يستخلص منها ما ينم على ارتياعها وفزعها من تقرب هيثكليف إليها ، ولكنه لم يظفر بطائل من إجاباتها المبهمة التى لم تقصد منها إلا المراوغة والتهرب ، حتى اضطر اخيرا إلى إنهاء استجوابه ، دون ان يقتنع بنتيجته .. غير انه ختم حديثه معها بتحذير صارم ، وهو انه إذا كانت هى من الجنون بحيث تشجع ذلك الدعى الحقير ، فإن ذلك سوف يقطع كل اواصر القرابة التى تربط بينها وبينه !

***

الفصل الثانى عشر

بينما كانت مس لينتون تقضى الوقت فى حزن واكتئاب ، متنقلة بين البستان والحديقة ، فى صمت دائم وهم مقيم ، وعبراتها لا تكاد تكف عن الانهمار ، وبينما كان اخوها يحبس نفسه فى المكتبة ، ويعيش بين كتب لم يفتحها قط ، وفى صحبته السأم والكلال ، كنت من ناحيتى احس ، فى توقع غامض مستمر ، بان كاترين لن تلبث ان تندم على مسلكها ، وتأتى طيعة ، فتطلب الصفح من زوجهـا ، وتسعى إلى مصالحته واسترضائه .. وقد ظلت مضربة عن الطعام فى إصرار وعناد ، ولعلهـا كانت تعتقد ان زوجهـا كان يغص بالطعـام ، فى كل وجبة ، حزنا على غيابهـا ، وان الكبرياء وحدها هى التى تمنعه من ان يهرع إليها ويلقى بنفسه تحت قدميها .. ومضيت فى اداء واجباتى المنزلية كالمعتاد ، وقد اقتنعت بان (الجرانج) لا يؤوى إلا نفسا واحدة معقولة ، هى التى تسكن بدنى !.. وما حاولت قط ان اسرى عن الآنسة ، او ازجر السيدة واؤنبها ، إذ كان ذلك عبثا لا طائل وراءه .. كما لم الق بالا إلى تأوهات سيدى الذى كان يحن لسماع اسم زوجته ، ما دام لا يستطيع ان يسمع صوتها !.. وصممت على ان ادعهم وشأنهم حتى يلجأوا لى بمحض اختيارهم . وعلى الرغم من ان الطريق إلى ذلك كان يبدو طويلا مضنيا ، إلا إننى ابتهجت اخيرا إذ لمحت بصيصا من الضياء ينبىء ببزوغ فجر التقدم ، كما قدرت من بادىء الأمر ،

ففى اليوم الثالث فتحت مسز لينتون باب حجرتها ؛ وكان الماء قد نفد من الأباريق التى كانت عندها ، فطلبت مزيدا منه ، كما طلبت بعض الثريد ، لأنها كانت ، فيما تعتقد ، مشرفة على الموت . وقد اعتبرت هذا الكلام مهيئا لمسامع ادجار ؛ ولم أصدق أن حالتها بلغت هذا الحد من السوء ، ولذلك احتفظت به لنفسى ولم أنقله لسيدى : وأحضرت لها قليلا من الشاى ، وبعض الكعك الجاف ، فأكلت وشربت بنهم شديد ، ثم استلقت على وسادتها ثانية ، وراحت تشدد الضغط على راحتيها ، وتتأوه قائلة :

– آه !.. إننى موشكة على الموت ، طالما أن أحدا لا يبالى بشيء مما يحدث لى .. ليتنى لم آكل شيئا !

ومضت برهة طويلة ، قبل أن أسمعها تغمغم ثانية :

– كلا .. لن أموت ، فسوف يسره موتى .. إنه لا يحبنى قط ، ولن يفتقدنى البتة !

وظللت محتفظة بجمودى الظاهر ، على الرغم من الصفرة الشديدة التى كانت تكسو محياها ، وتلك الحالة الغريبة التى اعترتها .. ولكنى سألتها :

– هل طلبت سيدتى شيئا ؟

فقالت وهى ترفع خصلات شعرها المشعثة الكثيفة من فوق وجهها المنهوك : « ما الذى يفعله ذلك المخلوق الجامد الحس ؟ .. هل استغرق فى غيبوبة ، أم أنه قد مات ؟ » .

– إذا كنت تقصدين مستر لينتون ، فلم يصبه هذا ولا ذاك !.. إنه ، فيما أظن ، فى حالة لا بأس بها ، ولو أن

دراساته تستغرق معظم وقته وتشغله أكثر مما ينبغى . إنه دائما بين كتبه ، وأحسب أن ذلك يرجع إلى أنه لا يجد صحبة أخرى يسكن إليها !

وما كان ينبغى أن أقول لها ذلك لو أننى عرفت حقيقة حالها ، ولكنى لم أستطع التخلص من الفكرة التى كانت تتسلط على وقتئذ ، وهى أن شطرا كبيرا من سوء حالتها إنما كان تمثيلا فى تمثيل !.. ولم أكد أفرغ من عبارتى حتى صاحت فى دهشة واضطراب :

– بين كتبه ؟.. بينما أموت هنا ؟.. بينما أنا على حافة القبر ؟.. يا إلهى !.. هل يعلم كيف تغيرت ؟

ثم استطردت وهى تحملق فى صورتها المنعكسة فى المرآة على الجدار المقابل : « أهذه كاترين لينتون ؟ لعله يحسبنى أتدلل ، أو أمثل عليه دورا !.. ألا يمكنك أن تخبريه أن الأمر جد فى جد ، وأنه بلغ درجة خطيرة مروعة ؟.. نللى ، إذا لم يكن الأوان قد فات ، فإنى بمجرد أن أعرف حقيقة شعوره سوف أختار بين هذين الأمرين : إما أن أضرب عن الطعام والشراب فى الحال – ولن يكون ذلك عقابا له إلا إذا كان له قلب يحس ويتألم – وإما أن أستجمع قواى ، وأغادر البلاد نهائيا .. ولكن هل قلت الصدق فيما أخبرتنى عنه ؟ .. حذار يا نللى !.. هل هو الآن قليل الاكتراث لحياتى إلى هذا الحد ؟ »

فأجبتها : « لماذا يا سيدتى ؟.. إن السيد ليست لديه أية فكرة عما أصابك من اضطراب ، ولذلك فإنه بطبيعة الحال

لم يخامره أى خوف من أنك ستتركين نفسك تموتين من الجوع . . »

– أتظنين أننى لن أفعل ؟ . . ألا يمكنك أن تخبريه أننى سأفعل حتما ؟ . . أوحى إليه بذلك . تكلمى كأنك تفعلين من تلقاء نفسك . قولى له إنك واثقة من أننى سأقضى على نفسى جوعا . .

فاعترضت قائلة : « كلا ، لعلك نسيت يا مسز لينتون أنك أكلت بعض الطعام الليلة فى شهية وتلذذ ! . . وسوف تبدو عليك آثاره الطيبة غدا . . »

فقاطعتنى قائلة :

– لو أننى فقط كنت واثقة من أن ذلك سوف يقضى عليه ، لقتلت نفسى بغير تردد . . لقد قضيت هذه الليالى الثلاث دون أن يغمض لى جفن و . . أواه ! . . لقد لقيت أشد العذاب ، وأقضت مضجعى الأشباح يا نللى . . ولكنى بدأت أشعر بأنك لا تحبيننى . ألا ما أعجب ذلك ! لقد حسبت أنهم وإن كرهوا بعضهم بعضا ، إلا أنهم جميعا لا يملكون إلا أن يحبونى . . فإذا بهم جميعا ينقلبون أعداء لى فى خلال ساعات قلائل . إن الجميع هنا قد أصبحوا أعداء لى ، إنى واثقة بذلك تماما . . وما أفظع أن يلاقى المرء الموت بينما تحيط به وجوه جامدة غير مكترثة : فإيزابيلا ، يملؤها الفزع والنفور وتخشى أن تدخل الغرفة حتى لا تروع لرؤية كاترين وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة . . بينما يقف إدجار بجانبى فى رصانة ليرقب انتهاء كل شىء ، وبعد ذلك يقيم الصلوات شكرا لله

على إعادة السلام إلى هذا المنزل ، ثم يعود ثانية إلى كتبه ! . . ولكن بحق كل ذى شعور وإحساس ، ما شأنه بالكتب بينما أنا مشرفة على الموت ؟

والواقع أنها لم تستطع احتمال الفكرة التى بثتها فى رأسها من استسلام مستر لينتون للأمر الواقع فى فلسفة غريبة . . فراحت تدور فى الفراش ، وتزيد من حركاتها المحمومة حتى غدت أشبه بحركات المجانين ، ثم أخذت تمزق الوسادة بأسنانها ، وأخيرا رفعت كتفيها ؛ وهى تحس بحرارة شديدة تسرى فى بدنها ، فطلبت إلى أن أفتح النافذة . . وكنا فى وسط الشتاء ؛ كما كانت الرياح تهب من الشمال الشرقى قوية قارسة البرد ، فاعترضت على فتح النافذة ، وقد تملكنى القلق والذعر من التعبيرات الغريبة التى تتلاعب بأساريرها ، والتبدل العجيب الذى يصاحب حركاتها ، وذكرت مرضها السابق وتحذير الطبيب من عدم معارضتها أو الوقوف فى وجه رغباتها . . وكانت ثائرة عنيفة منذ لحظة ، أما الآن فقد استندت إلى إحدى ذراعيها ، دون أن تنتبه إلى رفضى فتح النافذة ، وبدت كأنما تجد تسلية صبيانية فى جذب الريش من الثقوب التى أحدثتها بالوسادة ، ثم تنسيقه فوق الملاءة إلى أصنافه وأنواعه المختلفة . . كان عقلها قد شرد إلى آفاق أخرى ، وبدأت تغمغم محدثة نفسها :

ـ هذا ريش ديكة رومية ! . . وهذا ريش بط برى ! . . وهذا ريش الحمام . . آه ، إنهم يضعون ريش الحمام فى الوسائد . . لا عجب إذن إذا كنت لم أجد سبيلا إلى الموت !

.. سوف أعنى بإلقائه على الأرض عندما أستلقى على الفراش . وهذا ريش أوز الأحراش ، أما هذا ـ ولابد من أن أعرفه وسط آلاف الريش ـ فهو ريش « القمرى » ، ذلك الطائر الطيب الجميل الذى كان يرفرف فوق رؤوسنا فى وسط الأحراش .. لقد كان يريد الوصول إلى عشه ، لأن السحب كانت قد بلغت رؤوس التلال ، فأحس باقتراب المطر .. ولكن هذا الريش جمع من وسط المروج ، فإن أحدا لم يصد القمارى قط ، وقد رأينا عشه فى الشتاء مليئا بالهياكل الصغيرة ، لأن هثكليف ، كان قد نصب فخاخا حول العش ، فلم تجرؤ الطيور الكبيرة على القدوم إلى العش وتركت أفراخها حتى نفقت .. وقد جعلته يعد أنه لن يصيد القمارى بعد ذلك قط ، وقد وفى بوعده !.. نعم . ها هنا الكثير منها .. هل صاد قمارى يا نللى ؟.. وهل كان بينها قمارى حمراء ؟.. دعينى أر !

فقاطعتها قائلة : « دعى هذا العبث الشبيه بلعب الأطفال .. »

.. ثم جذبت الوسادة من يدها ، وقلبتها فجعلت الثقوب ناحية الحشية ، لأنها كانت تخرج الريش منها حفنة بعد حفنة ، واستطردت : « ارقدى واغمضى عينيك ، فإنك تهذين !.. لقد ملأت الغرفة بالريش الذى يتطاير فيها كأنه الثلج المندوف ! »

ومضيت ألتقط الريش من هنا وهناك ، وإذا بها تتابع كلامها قائلة :

ـ إننى أرى فيك يا نللى امرأة كهلة ، مجللة الرأس بالشعر الأشيب ، محنية الكتفين !.. وكان فراشى هذا قبو الجنيات تحت صخرة (بنستون) ، بينما تنهمكين فى جمع السهام ذات الرؤوس الصخرية المدببة ، لتقتلى بها أبقارنا وماشيتنا ! .. ثم تزعمين عندما ترينني قريبة منك أنها ليست إلا خصلات من الصوف !.. هذا ما سوف يصير إليه أمرك بعد خمسين عاما ، أما الآن ، فأعرف أنك لست كذلك .. آه ، إننى لا أهذى كما تزعمين . أنت مخطئة ، وإلا فلابد لى من الاعتقاد أنك كنت حقا تلك الشمطاء المجفاء ، وأننى كنت تحت صخرة (بنستون) ، ثم إننى أشعر بأن الليل أرخى سدوله ، وأرى شمعتين على المائدة تنعكس أضواؤهما على الكواة السوداء فتتألق صفحتها كالكهرمان الأسود !

فصحت قائلة : « الكواة السوداء ؟.. أين هى ؟.. هل تحلمين ، أم تتكلمين فى نومك ؟ » .

ـ إنها هناك ، مستندة إلى الجدار ، كما كانت دائما !.. ولكنها تبدو عجيبة الآن ، فإنى أرى فى صفحتها وجها !

فعدت إلى مقعدى ، وفتحت فرجة فى ستار الفراش حتى أستطيع مراقبتها ، ثم قلت : « لا توجد مكواة فى الحجرة ، ولم توجد بها فى يوم من الأيام .. »

ولكنها مضت تحملق ببصرها فى المرآة فى قلق ، قائلة :

ـ ألا ترين ذلك الوجه ؟

وعبثا حاولت إفهامها أن ذلك كان وجهها هي ، فنهضت وغطيت المرآة بشال كبير ، غير أنها استطردت في إلحاح ولهفة : « إنه لا يزال هناك ، خلف الشال .. ثم إنه يتحرك من هذا !.. أرجو ألا يخرج من مكمنه عندما تغادرين الحجرة .. أواه يا نللي !.. إن الحجرة مسكونة بالأشباح ، وإني خائفة من البقاء فيها بمفردي ! »

فتناولت يدها بين يدي وطلبت إليها أن تهدأ وتستريح ، إذ كان بدنها كله قد أخذته رعشات متوالية كانت تهزه هزا ؛ ولكنها ظلت تحدق ببصرها في المرآة ، لا ترخي عينيها عنها .. فألححت عليها قائلة : « لا يوجد أحد هنا البتة . لقد كانت صورتك أنت يا مسز لينتون ، وقد عرفتها بنفسك منذ لحظات ! »

فقالت لاهثة : « صورتي أنا ؟.. وها هي الساعة تدق الثانية عشرة ؟.. هذا صحيح إذن !.. آه !.. ما أفظع ذلك ! »

وتشبثت أصابعها بثوبها فرفعته حتى غطت به عينيها .. وعندئذ حاولت أن أسترق الخطى إلى الباب وفي نيتي أن أدعو زوجها ، ولكني أسرعت بالعودة إليها إذ أطلقت صرخة ثاقبة ، وكان الشال قد سقط من فوق إطار المرآة ، فصحت بها قائلة :

ـ ماذا جرى ؟.. وما هذا الجبن الآن ؟ استيقظي ، فإنها المرآة .. المرآة يامسز لينتون ، وأنت ترين نفسك فيها ، وهأنذا أظهر فيها كذلك ، إلى جوارك .

وأمسكت بي في قوة وهي ترتعد في وجل وذهول ، وما لبث الفزع أن انقشع من أساريرها تدريجيا ، وتحول شحوبها إلى تورد الخجل وهي تتنهد ، قائلة :

ـ أواه ياعزيزتي !.. لقد حسبتني في منزلي . خيل إلي أنني راقدة في حجرتي « بمرتفعات وبذرنج » ، وقد اختلط عقلي بسبب ما أعانيه من ضعف ، فصرخت بغير وعي أو شعور .. لا تقولي شيئا ، ولكن امكثي معي ، فإني أخشى النوم ، لأن أحلامي ترعبني وتفزعني !

ـ بل إن النوم العميق سوف يفيدك يا سيدتي ، وأرجو أن تكون آلامك هذه مانعة لك من الصيام مرة أخرى ..

فعادت تقول في مرارة ، وهي تعصر يديها وتفركهما :

ـ آه ، ليتني الآن في فراشي الصغير بالمنزل القديم !.. وهذه الرياح تزفزف بين أغصان الشربين بجوار نافذتي . ألا دعيني أحسها واستنشقها يا نللي ، فإنها تنحدر من البراري رأسا . دعيني أرشف منها مرة واحدة !

وفي سبيل مرضاتها وإراحتها ، أمسكت بمصراع النافذة وواربته بضع ثوان ، فاندفع منه هواء مثلج ، جعلني أبادر إلى غلقه والعودة إلى مكاني .. وكانت عندئذ ترقد في سكون ، لا تتحرك ولا تتكلم ، وقد سبح وجهها في بحر من الدموع . كان الإرهاق البدني قد طغى على هياجها النفسي ، ولم تعد كاثرين الغضوب الثائرة أكثر من طفل باك ذليل ..

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN

ودبت فيها الحياة لتسألنى بغتة :

ـ كم مضى من الوقت منذ حبست نفسى هنا ؟

ـ كان ذلك مساء الاثنين ، ونحن الآن فى ليلة الخميس ، أو بالأحرى صباح الجمعة !

ـ ماذا ؟ .. الاثنين والجمعة من الأسبوع نفسه ؟ .. هذه المدة القصيرة فقط ؟

ـ إنها طويلة بما فيه الكفاية لمن لا يعيش إلا على الماء القراح وحدة الطبع !

فغمغمت قائلة فى ارتياب : « حسنا ، إنها تبدو ساعات كليلة متثاقلة ، ولا بد أن تكون أكثر من ذلك .. فانى أذكر ما حدث لى فى البهو بعد أن تشاجرا ، حين راح ادجار يستفزنى فى قسوة فانطلقت أعدو هاربة إلى هذه الحجرة وقد تملكنى اليأس . وما كدت أوصد الباب ، حتى اكتنفتنى ظلمة حالكة السواد ، وتعثرت فسقطت على الأرض .. وما استطعت أن أبين لادجار كيف كنت مقبلة حتما على نوبة شديدة حادة ، وكيف أن الغضب سوف يفضى بى إلى الجنون ، لو أصر على التمادى فى مضايقتى ومعاندتى ! .. فلم تعد لى أية سيطرة على لسانى ، أو عقلى ، ولعله من جانبه لم يكتشف الأسى وعذابى ، التى لم تدع لى من حاسة التفكير إلا القدر الذى يدفعنى إلى محاولة الفرار منه ومن صوته ! .. وقبل أن أستعيد حواسى بالقدر الذى يسمح لى بأن أرى وأسمع ، كان الفجر قد انبثق .. وسوف أخبرك يا نللى بما كنت أفكر فيه ، وما كان يلف ويدور فى رأسى ،

حتى خشيت على عقلى أن يذهب بددا . كان يخيل إلى ـ وأنا ملقاه على الأرض ، ورأسى مستند إلى رجل المائدة ، وعيناى لا تكادان تستشفان ذلك المربع الرمادى الذى يتوسط النافذة ـ أننى كنت فى فراشى الذى تعرفينه هناك ، تلك الخزانة ذات الفتحات المربعة ، المصنوعة من الخشب البلوط ، وأن قلبى كان يتقطع من حزن عظيم لم أذكر سببه عندما استيقظت وقتئذ ، وإنما رحت أكد فكرى ونفسى لاكتشف سره وكنهه .. ولكن أعجب ما فى الأمر أن السنوات السبع الأخيرة من حياتى غدت كلها كأنها صفحة بيضاء ، حتى خيل إلى أنها لم تكن البتة ! .. لم يكن لها يوما وجود !

ترقب الجزء الثانى من (مرتفعات ويذرنج)

فى غمرة هذا الهذيان المحموم الذى اندفعت فيه بطلة القصة المدللة التعسة « كاثرين ايرنشو » ـ أو « مسز لينتون » ـ ينتهى الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لهذه الترجمة الكاملة للصراع الأدبى الخالد (مرتفعات ويذرنج) .

وفى الجزء التالى ، نتابع مطالعة هذه القصة الإنسانية الرائعة ، فنرى ما يكون من أمر التصدع الخطير الذى أحدثه هيثكليف فى العلاقة بين الزوجين « كاثرين » و « ادجار » ! .. ثم نتابع المطاردة العنيفة التى يشنها هيثكليف على العذراء الغريرة « ايزابيلا » ، والعداء القاتل الذى يكنه الأول لغريمه القديم «هندلى » ! .. الخ .

* * *